سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

خصائص القرآن الكريم المعجزة

السلسلة العامة
الكتاب الحادي عشر

السلسلة العامة
الكتاب الحادي عشر

خصائص القرآن الكريم المعجزة

سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

2004

عنوان المؤلف

دمشق - سورية

ص ب 5425

هاتف 2710925 11 963+

الطبعة الأولى

2000 نسخة

خصائص القرآن الكريم المعجزة

■ تجدون كل المعلومات المتعلقة بسلسلة مؤلفات المفكر سليم الجابي على العنوان الإلكتروني التالي على شبكة الإنترنت :

http://www.saleemaljabi.com

■ يتلقى المؤلف برحابة صدر كل الإنتقادات و الأراء و الاستفسارات على البريد الإلكتروني :

saleem@saleemaljabi.com

خصائص القرآن الكريم المعجزة

سامر إسلامبولي

صدر للمؤلف

- السلسلة العامة:

القراءة المعاصرة تحت المجهر
نظرية جذور الأخلاق
القضاء و القدر نظرية كونية ثابتة
النظرية القرآنية حول خلق العالم
الرأي في المرأة والحرية و التراث
فن الاختزال القرآني [المقطعات القرآنية]
هل مات المسيح على الصليب ؟
الله جل جلاله [وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه]
نشوء الإنسان وتطوره
منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره
خصائص القرآن الكريم المعجزة

- سلسلة باب العبادات:

الصوم في الإسلام

- سلسلة باب التفسير

في ظلال دلالات سورة الكهف
في ظلال دلالات سورة الإسراء
في ظلال دلالات سورة هود

- سلسلة تصحيح أفكار ومعتقدات

مثنى وثلاث ورباع
الجن حقيقة أم خيال ؟
هل كان محمد [ص] شهوانيا
العقل تعريفه - ماهيته - حدود عمله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب:

خصائص القرآن الكريم المعجزة

إذا سمع أيّ كاتب أو باحث هذا العنوان (خصائص القرآن المعجزة) يحار ممَّا سمعه. بسبب أنَّه قرأ لبعض الذين كتبوا في موضوع إعجاز القرآن قولهم بأنَّ القرآن الكريم معجزٌ في صياغته العربيَّة. وفيما كتبه بعضهم الآخر أيضاً بأنَّ القرآن الكريم معجزٌ فيما تضمّنه من مضامين. وفي عصرنا أخذ يقرأ نتفاً هنا وهناك تتعلّق بإعجاز القرآن الكريم، فتطرّقوا في كتاباتهم إلى البنية الرّياضيَّة للقرآن الكريم وفيما طرحه من علوم لم تكن موجودة زمن إنزاله. أمَّا أنْ يسمع هذا القارئ بأنَّ القرآن المجيد معجزٌ في خصائصه، فهذا الأمر ينزل جديداً على سمعه وعلى ما مرَّ من أمام عينيه من قراءات. وعليه، فإنِّي أقدّم للقارئ الكريم مهما كان مشربه وعقيدته ومذهبه ما فتحه

الله جلّ شأنه على شخصي الضّعيف بما يتعلّق بهذا الموضوع الذي خصّصتُ له هذا الكتاب، الـذي لـم يكتب في موضوعه أحدٌ من قبلي، وعلى حدّ علمي الشّخصيّ، ذلك لأنّني لـم أجد لـهذا الموضـوع مراجع في تراثنا الإسلاميّ القديم بل وجدتُ على العكس من ذلك من طرح إشارات استفهام واعتراضات من جوانب مختلفة من النّاس. ولم يكن يدري أصحاب تلك الاستفهامات والاعتراضات أنَّ لهذا الكتاب السّماويّ الذي أطلق الله تعالى عليه اسم القرآن الكريم وأسماء وصفيّة أخرى أنّه أنزله المبدع العليم الأعظم، وهو يمتاز بخصائص ما عرفها الكُتّاب البشر منذ بدء الخليقة على سطح هذا الكوكب الأرضيّ.

والحقيقة هي أنَّ أهل القرآن ما زالوا يقولون بإعجاز هذا القرآن العظيم منذ أربعة عشر قرن من الزّمان بداعي التّحدّيات الإلهيَّة الواردة ضمن آياته، لكنّهم عندما يتكلّمون عن نواحي إعجازه، فقد ذهبت أذهانهم قديماً إلى انحصاره في لسانه العربّي وصياغته البلاغيَّة. فهذا ما فهموه من التّحديات القرآنيَّة. حتَّى وإنَّهم لم يحيطوا علماً صحيحاً بما يتعلّق بأطر تلك التّحديات القرآنيَّة ودلالاتها. هذا؛ وإنَّ القارئ الذي طالع مُؤلَّفاتي المطبوعة حتَّى الآن يتبيّن له من خلالها أطر ودلالات تلك التّحديات القرآنيَّة الخمسة بشكل موضوعي. تلك المعلومات التي استدعت من جانبي الإعراض عن تكرارها في هذا المقام، وعلى النّحو الوارد في تلك المُؤلَّفات. أمَّا هذا العنوان الذي عنونتُ به هذا الكتاب، فالقصد منه تنبيه ذهن القارئ إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أعلن في سورة الإسراء عن ثلاثة أوجه من أوجه إعجاز هذا القرآن

الكريم، مشيراً من خلال الوجه الأوّل إلى إعجاز القرآن في صياغته اللُّغويَّة. ومشيراً من خلال الوجه الثّاني إعجاز القرآن فيما تضمّنه من مضامين وأحكام وعلوم ونبوءات، ومشيراً من خلال وجهه الثّالث إلى إعجاز هذا القرآن المجيد في موضوع الخصائص التي تمتّع بها هذا القرآن الكريم، وبما لم ولن يتمتّع به كتاب آخر من تأليف هذا الإنسان. علماً بأنَّ هذه الإشارات إلى هذه الأوجه الثّلاثة آنفة الذّكر قد وردت مصاغة صياغةً بلاغيَّة معجزة أيضاً.

ألا إنَّ الله عزَّ وجلَّ عندما قال في الآية التّاسعة من سورة الإسراء ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ فقد أشار بذلك إلى إعجاز القرآن الكريم في مضامينه المطروحة، إضافةً إلى إعجازه في صياغته اللُّغويَّة التي تحمل هذه المضامين، فلما فرغ من بيان تلك المضامين في نفس السّورة، راح تعالى يقول ابتداءً من الآية (86) ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

هذا؛ وإنَّ القارئ الذي كان قد طالع تفسير سورة الإسراء لابُدَّ وأنّه يكون قد لاحظ أنّي قلتُ على الصّفحة (167) أي أنَّه جلّ شأنه لم يَدَعْ بحثاً في السّياسة والطّبيعة والأخلاق والتّمدُّن والاقتصاد والاجتماع والأحكام

والعبادات والتّوحيد وعلم الكلام وغيرها من العلوم إلا وأتى بها مفصّلةً في هذا القرآن. فهذا هو معنى قوله تعالى هنا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾. فأنا كتبتُ ما كتبتُهُ هناك من باب تفسير هذه الآية الكريمة المذكورة. لكنّي لم أتعرّض هناك إلى توضيح خصائص هذا (التّصريف) المقصود في هذا المقام. بسبب أنَّ توضيح ذلك كان يحتاج من جانبي لبيانه إلى كتاب مستقلّ. وتركتُ بيان تلك الحقيقة إلى وقت كتابة هذا الكتاب الذي أضعه الآن بين أيدي الباحثين والقُرّاء.

وبكلمة موجزة أقول: إنَّ الله تعالى ما قصد من مضمون هذه الآية الكريمة التّنبيه إلى اشتمال هذا القرآن العظيم المعجز لغةً ومضموناً على المضامين المشار إليها مفصّلةً. فلو أراد ذلك لا يكون قد نبّه إلى شيء غير معروف، لكنَّ الذي شاء الله تعالى الإشارة إليه من وراء قوله المذكور هو أنَّ هذا القرآن الأقوم ما كان معجزاً في لغته وفي مضمونه فقط، بل وكان معجزاً في خصائصه التي تميّز بها، وهو يطرح ما طرحه تعالى فيه من مضامين. تلك الخصائص التي لم يأت بها كاتب أو أديب من الكُتّاب والأدباء أيضاً. فهذه الحقيقة التي نبّهتُ ذهن القارئ الكريم إليها آنفاً قد أشار إليها فعل (صَرَّفْنَا) الوارد في هذه الآية الكريمة من طرف خفيّ.

فالملاحظ هو أنَّ فعل (صَرَّفْنَا) قد وردت (الشّدّة) على رائه ليفيد معنى المبالغة، وإلا فقد كان يكفي أنْ يقول الله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا) (محيط المحيط)، ثمَّ إنَّ فعل (صرّف) يستعمل ليفيد عدَّة معانٍ؛ فإنْ قلتَ:

صرفتُ ما في جيبي من نقود، فمعناه أنَّكَ أنفقتَ جميع نقودك. وإنْ قلتَ: صرفتُ ما في جيبي من أوراق قطع نادر، فالمعنى استبدلتها بعملة محلِّيَّة. فإنْ وضعت الشّدّة على الرّاء، وقلتَ صرّفتُ أوراق القطع النّادر، فقد شئتَ بذلك المبالغة والقول إنَّك لم تبقِ عندك قطعاً نادرة بتاتاً. وعندما يقول الله تعالى صرّفنا الرّياح، فقد قصد أنَّه حوَّل وجهة الرّياح إلى وجهة جديدة، هذا؛ وإنَّ المعنى الأصليّ لقولك (صَرَّفْنَا) هو أنَّنا بيَّنَّا وبحثنا. وعليه؛ فإنَّ هذه المعاني مجتمعةً تفيد بأنَّ الله جلّ شأنه لم يقصد هنا في الآية المذكورة أنَّه تعالى قد بيّن في هذا القرآن الكريم مواضيع مختلفة، بل وإنَّه قد قام بالرّدّ على جميع ما وجَّهه الأعداء إلى هذا الكتاب من اعتراضات وأفحم - بالتّالي - هؤلاء المعترضين، وحقّق عمليَّة توجيه وجهة جميع اعتراضاتهم إلى غير ما قصدوه منها.

من هذا لابُدَّ أنْ يكون القارئ قد أدرك من خلال معطيات هذه الآيات الأربعة التي سبق لنا أنْ أوردناها، والواردة في سورة الإسراء بأنَّ الله تعالى قد أجمل فيها قوله بشأن معجزة محمد ﷺ الخالدة التي تمثَّلت في هذا (القرآن المجيد) هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله الصّادق الأمين محمّد ابن عبد الله ﷺ، ليبقى محفوظاً من الضّياع وخالداً على مدى الدّهر، وهو يحمل تحدياً دائماً من حيثُ صياغته ومن حيثُ الخصائص التي امتاز بها بيان تلك المضامين. فالله تعالى نبّه ذهن رسوله الكريم في الآيتين الأولى والثّانية إلى عظمة هذه المعجزة الخالدة التي اختصّ الله تعالى بها محمّداً خاتم النّبيّين ﷺ، وفي الآية الثّالثة نبّه إلى إعجاز هذا القرآن المجيد لغةً ومضموناً. وأمَّا في

الآية الرّابعة، فقد نبّه جلّ شأنه إلى خصائص هذا القرآن العظيم وإلى كيفيَّة ورودها بصورة معجزة أيضاً. ولقد استندتُ إلى هذا الفهم الذي فهّمني ربّي إيّاه بخصوص دلالات الآيات المذكورة، فخصصّتُ هذا الكتاب لبيان إعجاز خصائص هذا الكتاب المقدَّس الخالد. وداعياً الله تعالى أنْ يعينني على أداء هذه المهمّة التي تخدم مقاصد تعاليم هذا القرآن المجيد. اللّهم آمين.

هذا؛ وإنَّ كلّ قارئ ومطالع لما كتبه ويكتبه الكُتَّاب والأدباء يعلم أنَّ لمؤلَّفات كل أديب وكاتب مزاياها وخصائصها، فمن هذا الباب أقول: إنْ كان مَنْ يتدبَّر هذا الكتاب السّماوي المبارك ويتأمّل في صياغة آياته الكريمة تتراءى لعينيه أنَّ هذا الكتاب المقدّس قد صيغ بصياغة ذات خصائص امتاز بها على جميع ما عرفه العالم من خصائص تعود لأيّ كتاب كان. حتّى ولقد وردت هذه الخصائص القرآنيَّة معجزةً أيّما إعجاز، بل وحيّرت الكُتَّاب والباحثين أيضاً. فتارة يلاحظ قارئ هذا القرآن الكريم أنَّه أورد حرفاً واحداً منقَّطاً بعده، ليشعر أنَّ هذا الحرف يُشَكِّل آية واحدة بذاته وباستقلاليّته عمّا قبله وعمّا بعده. وتارة يورد حرفين لا أكثر ويفعل ما أشرنا إليه. وتارة يورد ثلاثة أحرف ويفعل ما ذكرناه، وتارة يأتي بعدّة جملٍ تشكّل بمجموعها آية مستقلّة. فهذا التّنوّع في الصّياغة وفي تحديد أطر الآيات القرآنيَّة عسُر فهمه على كثير من النّاس من المسلمين ومن غير المسلمين، ومن باب أنَّ الإنسان الذي لا يحيط علماً بخصائص هذا القرآن المجيد يعسر عليه تفسير ظاهرة آياته الكريمة التي أوردناها آنفاً. وعليه؛ فقد كانت إحاطة قارئ القرآن

الكريم واطّلاعه على هذه الخصائص القرآنيَّة التي تمتاز بها آيات كتاب الله العزيز تفيد في دعم منهجيَّة القرآن وأصول تفسيره. واستناداً إلى هذه الحقيقة التي أتيت على بيانها، فقد توجّهتُ إلى كتابة هذا المُؤلَّف الذي عنونتُهُ بهذا العنوان الذي تصدّر هذا الكتاب وهو (إعجاز القرآن الكريم فيما تضمّنه من خصائص تميّز بها على سائر كتب الأوَّلين والآخرين). وعليه؛ يعود القارئ وبعد الذي أطلعته عليه يتساءل بإلحاح أنْ أبيّن ما فتحه الله ربّي عليه من خصائص امتازت بها صياغة آيات هذا القرآن الذي تحدّى به الله الذي أنزله الإنس والجنّ على أنْ يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

سليم الجابي

الخصوصيَّة القرآنيَّة الأولى:

عناصر الموضوع الواحد موزّعة فيه بإعجازٍ ظاهر

إنَّ كلّ قارئ يلاحظ بأنَّ الكاتب القدير الموضوعيّ يخصص كتابه ليبحث فيه موضوعاً واحداً، ويخصّصه ليبحث فيه هذا الموضوع الذي عزم على كتابته من جميع جوانبه وبترتيب موضوعي أيضاً. فيعرض منطلقات بحثه، ويوضح أهميته، ويقسّمه إلى أبواب وفصول يشرحها أوّل بأوّل، ويقدّم له بمقدّمة، وينهيه بخاتمة.

لكنَّ هذا القارئ نفسه يلاحظ بأنَّ هذه المعالم لا تبدو جليَّةً في هذا القرآن الكريم الذي أنزله الله عزَّ وجلَّ، وتحدّى به الإنس والجنّ، بل الذي يلاحظه للوهلة الأولى هو أنَّ آيات هذا الكتاب العزيز لا تسير وفق المنهجيَّة المعروفة التي تعارف عليها الكُتَّاب والأدباء، فلم يبحث موضوعاً واحداً، بل تناول بحث عشرات المواضيع ليس بالتّرتيب وبنفس المنهجيَّة المعروفة، ولكنْ؛ بأسلوب توزيع عناصر الموضوع الواحد على مختلَف سور القرآن الكريم، وعلى صورة لا تُخلّ بتسلسل السّورة الموضوعيّ. فكيف أمكن لهذا القرآن الكريم بحث جميع تلك المواضيع وعلى صورة استوفى من

خلالها عناصرها أيضاً تلك العناصر التي إنْ حاول الكاتب جمعها وترتيبها لا يجد بينها أيّ تناقض في معطياتها، ولا تترك أيَّة ناحيةٍ من نواحي الموضوع إلا وتكون قد تناولته؟

ثمَّ إنَّنا لو دقّقنا نظرنا في ترتيب تلاوة سور هذا القرآن المجيد وكما هو بين أيدينا فلا نلاحظ أنَّ كلّ سورةٍ من سوره قد اختصَّت بشرح موضوع بعينه ومن دون تداخل عناصر مواضيع أخرى ضمن آياتها، بل الذي نلاحظه هو تداخل جميع تلك المواضيع في السّورة الواحدة وفي وقت تُؤدِّي فيه تلك السّورة ذاتها أغراضاً معينة. وإنَّ ظاهرة التّداخل هذه تلفت الأنظار من جهة، وتبدو بعد التّدقيق وإمعان النّظر فيها بأنَّها تشكّل في حقيقة أمرها ظاهرة خصوصيَّة إعجاز قرآنيّ. ويتساءل القارئ هنا: هل بالإمكان أنْ تشرح لنا حقيقة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة التي تعرّضت لذكرها؟

فأستجيب لهذا السّائل وأقول: لقد تبيّن لي - يا عزيزي القارئ - بأنَّ الله عزَّ وجلَّ عندما يطرح موضوعاً ويشاء شرحه بشكل علميٍّ وموضوعيٍّ اختطّ لنفسه منهجيَّةً واضحة؛ وهي أنَّه يقسّم هذا الموضوع إلى عناصره الأوَّليَّة، ومن ثمَّ يقوم بتوزيع تلك العناصر العائدة للموضوع الواحد على أكثر من سورة من سور كتابه العزيز. فيورد كل عنصر من تلك العناصر في سورة يتناسب موضوعها العام وهذا العنصر الذي يورده فيها، ولكنْ؛ يورده ضمن تسلسل الآيات الموضوعي، وبحيثُ يشعر القارئ بأنَّ هذا العنصر هو جزءٌ لا يُجتزأ من السّورة الواردة فيها، وعلى صورة يعود من المستحيل إمكانيَّة فصل العنصر المذكور من مكانه الوارد فيه.

والملاحظ أيضاً ـ يا عزيزي السّائل ـ هو أنَّ هذا العنصر العائد إلى موضوع بعينه والوارد في سورة بذاتها قد جُعِل يؤدي مهمّتين: فالمهمّة الأولى تتعلّق بالسّورة نفسها الوارد فيها هذا العنصر، وعلى صورةٍ يفيد مضمونه في دعم التّسلسل الموضوعي للسّورة نفسها. وأمَّا المهمة الثّانية التي يؤدّيها هذا العنصر المشار إليه، فهي تشكيله العنصر الذي يتطلّبه موضوع آخر غير موضوع السّورة نفسها، ويكون خارجاً في الأصل عن موضوع السّورة الوارد فيها هذا العنصر المشار إليه.

والسّؤال الأهمّ هنا الذي ينبغي أنْ تُدركه يا عزيزي القارئ هو أنْ تُدرك كيفيَّة إمكان توزيع عناصر عشرات المواضيع على عشّرات السّور الواردة فيها تلك العناصر، مع محافظة تلك السّور على توازنها الموسيقي الذي اختصّت آياتها بنغماته، وهذا من باب أنَّ هذه العمليَّة المشار إليها وعلى هذه الصّورة التي وضّحناها إنَّما هي عمليَّة إعجازٍ إلهيّ يستحيل أنْ يؤدّيها أيّ إنسان مهما أوتي من قدرات بشريَّة ومهما كان عالماً وعبقريّاً.

مثال أوّل يثبت وجود هذه الخصوصية:

وبعد أنْ فرغتُ من إعطاء القارئ فكرةً واضحةً عن هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة، أرى من واجبي إثبات ذلك بمثال موضوعي. ولنفرض أنّا نريد الكلام عن موضوع هذا الكون من حولنا. فالمفكّر يتساءل تساؤلات عديدة تدور جميعها في فلك هذا الموضوع. فمن جملة ما يتساءل: هل أنَّ المادَّة أزليَّة الوجود هذه التي تُرى في كل مكانٍ من جوانب هذا الكون؟

ويتساءل أيضاً: فإنْ كانت المادّة مخلوقة، فَمَن هو خالق هذه المادَّة؟ وما دليلنا على وجوده إنْ كان موجوداً؟ ويتساءل هذا المفكّر عمّا يملكه هذا الخالق من قدرات وما يتّصف به من صفات؟ وهل أنَّه خلق ما خلقه بإرادةٍ وتصميم ولتحقيق مقصدٍ معيّن أيضاً؟ كما يتساءل عن مصير هذا الكون، وعمّا سيؤول إليه في نهاية المطاف.

فهذه أسئلة تدور في خَلَدِ هذا الإنسان ليس في أيّامنا هذه، ولكنْ؛ منذ أنْ وَعى هذا الإنسان ما حوله من أشياء. وإنَّها لأسئلةٌ هامَّةٌ جداً في نظر المفكّرين، وتتطلّب الإجابة عنها إجابات علميَّة متّزنة.

ثمَّ إنَّ هذا الإنسان يعود بذاكرته إلى نقطة بدء هذا الكون، فيتساءل كيف بدأت؟ وما هي الأدوار التي مرّت بها من بعد، حتَّى وصل هذا الكون إلى ما هو عليه الآن؟ ولا يكتفي بهذه الأسئلة، بل يسأل عن نشأة الإنسان نفسه، فإنْ كان مخلوقاً فهل أنَّ خالقه قد حدّد لخلق هذا الإنسان مقصداً؟ كما يتساءل عن المصير الذي سيصير إليه هذا الإنسان بعد موته. وأمثال هذه التّساؤلات الهامَّة التي إنْ أمكن الإجابة عنها جميعها بأسلوب علمي مدلّل ومبرهن عليه ومدعّم بالحجج والبينات تعود هذه اللّبنات تساعده على تأليف كتاب يضيف من خلاله إلى المعارف والعلوم المعروفة لبنةً جديدة شيّقة. وهنا يأتي بيت القصيد الذي نسعى إليه؛ وهو أنَّنا كمفكّرين وباحثين نرجع إلى كتاب الله العزيز المحفوظ إلى يوم الدِّين، محاولين معرفة ما أجابت به آيات هذا القرآن الكريم عن جميع تلك التّساؤلات التي أوردناها آنفاً، ومدى ما قدّمت هذه الآيات الكريمة لنا من أجوبة مقنعة. وهنا يأتي دور هذه

الخصوصيَّة الأولى التي نتكلّم عنها في هذا المجال، لذلك ينبغي علينا أيضاً أنْ نأخذ بعين اعتبارنا وجود هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الأولى التي كلّمت القارئ عنها، وأنَّ أجوبة تلك التّساؤلات التي نطرحها لن ترد أجوبتها ضمن آيات سورة واحدة من سور القرآن الكريم، ولكنّها سترد ضمن سورٍ عديدة، ويكون كلّ عنصر من عناصرها وارداً في موضعٍ يتناسب والتّسلسل الموضوعيّ لتلك السّورة الوارد فيها ذاك العنصر، وبصياغة تتناسب أيضاً وصياغة آيات تلك السّورة، ولا تخلّ باتّزان موسيقيَّة تلاوتها. لذلك يندفع الباحث المفكّر يبحث عن عناصر أجوبة تلك الأسئلة وضمن سورة بعد سورةٍ، ومن هذا المنظار نفسه الذي أوردناه، وباحثاً عمّا أجاب الله جلّ شأنه به على عناصر المواضيع التي ذكرناها وأوردناها في هذا المجال. وهنا أتدخّل شخصيّاً لأوفّر على هذا الباحث المفكّر عناء البحث، فآخذ بيده لأدلّه على جواب أوَّل سؤالٍ وجَّهه إلى نفسه، وراح يبحث عمّا أجاب به عنه هذا القرآن العظيم والموضع الوارد فيه.

فالسّؤال الأوَّل دار حول الذّرّة المادّيَّة أهي أزليَّة أم مخلوقة؟ وقبل أنْ أدلّه على ما أجاب به الله الخالق على سؤاله المذكور وعلى الآية ومكانها من إحدى سور القرآن المجيد أرجو من هذا الباحث المفكّر أنْ يضع في حسابه أنَّه لا يطالع كتاباً عادياً من وضع أديب معروف، بل يطالع آيات كتاب معجزٍ له أسلوبه في طرح السّؤال وفي الإجابة عليه، وأنَّه معجزٌ أيّما إعجاز في صياغة ما شاء طرحه وما شاء الإجابة عليه وبصياغة بيانيَّة معجزة أيضاً، فهذا هو حال هذا القرآن العظيم الذي اشتمل على جميع أسئلتنا وعلى أجوبتها أيضاً.

وبعد هذا التّقديم، أختصر لهذا الباحث المفكّر الطّريق وأدلّه على ما استهلّ الله جلّ شأنه به سورة الأنعام من آيات كريمة قال تعالى فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

أقول: أفلا ترى يا عزيزي كيف أنّي دللتُكَ على آياتٍ استهلّ الله تعالى بها سورة بعينها هي سورة الأنعام؟ وأعلم أيضاً بأنَّ هذه الآيات قد تضمّنت عنصراً من عناصر المواضيع التي تسأل عن حقيقتها. فمن واجبك الآن أنْ تتساءل: كيف يستهلّ الله تعالى هذه السّورة بعنصر من عناصر موضوع نتقصّى عناصره؟ وكيف بالإمكان التّوفيق ما بين موضوع سورة الأنعام وما بين الإجابة عن السّؤال الذي طرحناه؟ أقول من جديد: لا تعجب - يا عزيزي -، فسأحلّ لك هذه الأحجية التي هي من قبيل الإعجاز القرآني.

فتعال نتدبّر معاً مضمون الآية الأولى من هذه الآيات بعناية وحذر شديدين، ووفق منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. فالملاحظ هو أنَّ هذه الآية قد استُهلَّت بالحمد لله الذي يعني بألفاظ أخرى أنَّ هناك إلهاً خالقاً، هو ما تسمّيه لغة الضّاد (الله) وأنَّ الله المشار إليه مستحقٌّ لجميع أنواع الحمد. هذا المعنى دلّ عليه لام الاستحقاق الواقعة بين معنى وذات. فالسّؤال هنا: لماذا نُسبَ إلى ذات الله تعالى هنا هذا الاستحقاق؟ والسّبب في استحقاق الذّات الإلهيَّة للحمد كلّه هو أنَّه خلق هذا الكون المادّي من حولنا، وأنَّ هذا الخالق أبدع هذا النّظام السّماوي وهذا النّظام الشّمسي

الذي تدور الأرض في فلكه وعلى صورة يتعاقب عليها الظّلام والنّور، وقد أخضع هذا الخالق تطوُّر هذا الكون لقانون التّطوُّر والارتقاء؛ أيْ أخضعه لكونه (الربّ) الذي يطوّر الشّيء حالاً بعد حال، حتّى يصل به إلى مرتبة التّمام. وبذلك؛ فقد استحقّ هذا الخالق المبدع جميع أنواع الحمد من هذا المخلوق الإنسان الذي سخّر الله عزَّ وجلَّ من أجل صالحه جميع ما أبدعه في هذا الكون وجعله في خدمته. ثمَّ إنَّ الحمد يدلّ على المخلوق الحامد لخالقه، هذا الإنسان الكائن على سطح هذه الكرة الأرضيَّة المخلوقة هي بدورها من مادَّة أيضاً. وإنّه قد ثبت ـ بصورة علميَّة وعلى حسب ما بيّنت في بقيَّة مؤلَّفاتي ـ أنَّ الله تعالى قد قدّر على هذا الإنسان أنْ يلد في هذه الدّنيا، فيعيش فيها عمراً، ومن ثمَّ يموت، وتكون له بعد موته نشأةٌ أخرى.

وأقول: أ فلاحظتَ ـ يا عزيزي القارئ ـ كيف أنَّ هذه المعلومات كلها قد تضمنتها الفقرة الأولى من هاتين الآيتين التي استهلّ الله تعالى بهما سورة الأنعام وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؟ ويكون الله تعالى قد أجاب من خلال ذلك عن السّؤال المطروح، وهو هل أنَّ المادَّة أزليَّة أم مخلوقة؟ فنبّه الله جلّ شأنه أذهاننا إلى أنَّ هذه المادَّة الكونيَّة هي مادّة مخلوقة وما هي بمادّة أزليَّة. ولذلك لاحظنا ـ يا عزيزي ـ القارئ كيف أنَّ الله تعالى أتى بالآية الثّانية تنبيهاً لأذهاننا إلى هذه الحقيقة آنفة الذّكر وقال بعد أنْ أتى بضمير الشّأن (هُوَ) قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ فأشار إلى المادّة التي بها تحقّق خلق هذا العالم وما فيه من مخلوق،

وأنَّ هذا المخلوق يعيش عمراً ويموت ، وأنَّ لهذا الكون نهاية فله (أَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ) وهي حقيقة قد أثبتت صحّتها معطيات نظريَّة الانفجار العظيم .

لا شكّ أنَّ ما تضمّنته هاتان الآيتان اللّتان قد أجاب الله تعالى - من خلال مضمونهما - عن هذا السّؤال المطروح الذي ذكرناه . والعالم لا يدلي بحقيقة إلاّ ويدلي بعدها بدليل مصداقيّتها . هذا ؛ وإنَّ الآيتين اللّتين استهلّ الله تعالى بهما سورة الأنعام قد أتيتا بحقائق هي بحاجة لإثبات مصداقيّتها . فهل فعل الله تعالى ما يفعله العلماء وأدلى بدليل مصداقيَّة ما ادّعاه كيلا يظلّ الجواب ناقصاً إذا لم يقترن بالدّليل على مصداقيته؟ فهل دلّنا الله تعالى على الدّليل الذي يثبت صحّة هذا الادّعاء الكبير؟ وأين سنعثر على هذا الدّليل؟

أقول : يا عزيزي القارئ إنْ أنتَ كنتَ قد طالعتَ كتابي (منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره) تلك المنهجيَّة والأصول التي فتحها الله عزَّ وجلَّ على شخصي الضّعيف تكون قد لاحظتَ كيف أنَّ من جملة تلك الأصول أصلٌ يقول بأنَّ من عظمة الله تعالى أنَّه لا يدّعي ادّعاء إلا ويتبعه بدليل مصداقيته . وهذا الأصل في التّفسير يقتضي منا - بالتّالي - أنْ نتدبر الآية التي تأتي بعد هاتين الآيتين مباشرةً ، لنعثر من خلال معطياتها على الدّليل المطلوب .

لذلك ؛ توجّه - يا عزيزي القارئ - لتلاوة الآية الثّالثة والّتي تلاحظ كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال فيها : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ، فلو أنَّنا تدبرنا هذه الآية الكريمة بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره ، وأنعمنا نظرنا فيما تضمّنته هذه الآية الكريمة من معلومات ، لتبيّن لنا أنَّها اشتملت على دليل مصداقيَّة الادّعاء سالف

الذّكر الذي كانت قد تضمّنته الآيتان اللّتان استهلّ الله تعالى بهما سورة الأنعام، فتسألني - حينئذ - عن معالم هذا الدّليل المشار إليه؟ فأقول:

لقد تألّف هذا الدّليل من حلقات ثلاث: فالحلقة الأولى تضمّنها قول ربّنا عزّ وجلّ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والحلقة الثانية تضمّنها قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾، والحلقة الثالثة تضمّنها قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾.

وأتناول الحلقة الأولى أوّلاً والتي تضمّنها قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهذه الحلقة أشارت ونبّهت أذهاننا صراحةً إلى أنّ القوانين النّاظمة لهذا النّظام الشّمسي الذي تدور الأرض في فلكه، والدّالة على الخالق المُنظِّم هي القوانين نفسها التي تُنظِّم كل شيء في هذه السّماوات من كواكب إلى مجرّات وغيرها، بمعنى أنّ القوانين النّاظمة لجميع ما في هذا الكون هي واحدةٌ، وأنّه لا يوجد في هذا الكون نوعان من القوانين طبيعيّة. وإنّ هذه الحقيقة التي تضمّنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قد صدّقتها العلوم الحديثة، على حين أنّ هذه الحقيقة التي طرحتها هذه الآية الكريمة كانت قد طرحتها قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، وأنّه مادامت تلك القوانين النّاظمة للسّماوات والنّاظمة للأرض ونظامها الشّمسي واحدة فيُستدلّ من ذلك على أنّ خالق السّماوات و خالق هذه الأرض وما فيها مبدعٌ واحد لا إله إلا هو الذي لا إله غيره، وأنّ هذا المبدع له من القدرات والصّفات ما ساعده على تحقيق هذا الإنجاز العظيم، ويكون تعالى - بذلك - قد أشار من خلال تقديم هذا القسم الأوّل من الدّليل الإشارة إلى الأسماء

الحسنى التي يتّصف بها مبدع هذا الكون العجيب. فهذه المعلومات كلها عبَّر الله تعالى عنها من خلال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ثمَّ إنَّ الحلقة الثّانية التي تكوّن منها دليل مصداقيَّة الادّعاء العظيم الذي تضمّنته الآيتان الأولى والثّانية فقد عبّر عنها قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ والمعنى أنَّ الله الذي أبدع هذا الكون سماء وأرضاً فهو أبدع هذا الإنسان له جهره وهو جسده التّرابيّ، وله سرّه وهو نفسه سجينة هذا الجسد التّرابيّ. ومادام الله هو مبدع الإنسان على هاتين الحقيقتين فمن البديهيّ أنّه لا تخفى على الله تعالى خافية من جسد هذا الإنسان ولا من تكوينه الفطريّ الباطنيّ. وأنَّ الله الذي خلق الإنسان من نفسٍ وجسد، قد خلقه على تلك الصّورة، وهو يملك من التّقنيات ما يساعده على الإحاطة بسرّ هذا الإنسان وبما يجهر به. فهذا ما أفادتنا به هذه الحلقة الثّانية من هذا الدّليل المعبّر عنها بقوله تعالى ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾.

وأمَّا الحلقة الثّالثة من هذا الدّليل، فقد عبّر عنها قول الله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ وقد نبّهت هذه الفقرة الثّالثة أذهاننا إلى أنَّ حياة الإنسان قد قامت على فلسفةٍ معيّنة، وأنَّ هذه الفلسفة التي قامت عليها حياة الإنسان في هذه الحياة الدّنيا قد قامت على أساس الكسب والعمل، وما ينتج عنهما من آثارٍ خفيَّةٍ نابعةٍ ممَّا يُسرّه هذا الإنسان، وما يعلنه، وما يقدمُ عليه من عمل. وإنَّ هذه الحقيقة أيّدتها مُعطيات عقيدة القضاء والقدر.

والآن فإنْ نحن جمعنا معطيات هذه الحلقات الثّلاث التي تضمّنتها هذه الآية الثّالثة من آيات سورة الأنعام بعضها إلى بعضها الآخر تتجلّى

لأعيننا معالم هذا الدّليل المطلوب تقديمه، والذي يثبت من خلاله مصداقيَّة الادّعاء المشار إليه في الآيتين الأولى والثّانية من سورة الأنعام. وبألفاظ أخرى يكون الله عزَّ وجلَّ قد قدّم دليلاً مكوّناً من نقاط أساسيَّة ثلاثة أثبت العلم الحديث مصداقيتها، وتشكّل بمجموعها دليلاً متعدّد العناصر:
فالعنصر الأوَّل يتلخّص في أنَّ القوانين الطّبيعيَّة التي تُنظِّم الكون كلّه واحدة، فيها كلّ الدّلالة على أنَّ مبدع السّماء والأرض أحد لا شريك له في هذا الملك، وأنَّ هذا المبدع خلق هذا الإنسان من جسد وروح وبيده مفاتيح معرفة سرّ هذا الإنسان وجهره، وأنَّ هذا الخالق المبدع قد جعل لخلق الإنسان مقصداً، وهو أنْ يبتليه ويمتحنه فيما سخّره من أجله ولصالحه في هذا الكون على نطاق كسبه وعمله، وأنَّ هذا الكون وهذا الإنسان مؤلَّفون من ذرّات مادِّيَّة، والإنسان خاصَّة مخلوق من (طين) أي من ماء وتراب، وأنَّ التّعاليم السّماويَّة ركّزت على فلسفة الكسب والعمل وعلى النّتائج المترتبة عنه.

أمَّا لماذا أتى الله تعالى هنا بدليل مُؤلَّف من هذه العناصر والحلقات الثّلاث؟ فالجواب هو أنَّ اجتماع ثلاثة أمور لا يعقل أنْ تحدث مصادفة، بل إنَّ اجتماع أكثر من عنصرين في أمر من الأمور يستحيل أنْ يحدث من باب المصادفة، بل يدلّ على الذي جمع ما بين هذه العناصر الثّلاثة في أمر واحد. وإنَّ دليل تعدّد العناصر هو الذي يأخذ به علماء أوروبة في القرن الأخير. وعلى هذه الصّورة يكون الله تعالى قد طرح ادّعاء كبيراً وأثبت مصداقيّته بواسطة هذا الدّليل العظيم الذي قدّمه في الآية الثّالثة وبعد الادّعاء مباشرة.

فبهذا الأسلوب من الإجابة عن سؤالنا الذي طرحناه، وبهذا الأسلوب من إثبات مصداقيته ومن خلال هذه الصّياغة البلاغيَّة المعجزة، وبهذا التّرتيل الموسيقي المؤثر يكون الله عزَّ وجلَّ قد استخدم هذه الآيات الثّلاثة الأوائل من آيات سورة الأنعام والتي حملت عنصراً من عناصر موضوع المادّة وكونها غير أزليَّة قد استخدمه كمدخلٍ إلى موضوع سورة الأنعام و ليستمر بعد ذلك يقول ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مع الملاحظة بأنَّ الملاحظ هو أنَّ سور النّساء والمائدة والأنعام لم يستهلها الله تعالى بأحرف مقطّعات، لذلك تعتبر كلّ واحدة منها تشكّل فصلاً تابعاً لمضمون سورة آل عمران المستهلّة بقوله تعالى ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وكما أثبتّ ذلك في مُؤلَّفي (فن الاختزال في القرآن الكريم).

وعليه؛ نكون قد أثبتنا ـ واستناداً إلى ما بيّنَّاه ـ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد شكّل من هذا الادّعاء ومن دليل مصداقيته مدخلاً إلى الكلام في موضوع سورة الأنعام، والذي يثبت منه في الوقت نفسه واسع علم الله تعالى، وكون الله تعالى هو الحي القيوم الذي لا إله غيره ولا شريك له في هذا الوجود.

وبعد هذا المثال الذي بيّنته ووضّحته: هل يعود لدى القارئ الكريم أيّ شكّ في وجود هذه الخصوصيَّة الأولى التي بيّنتها وفي حقيقة عظمتها وهي هذه الخصوصيَّة التي امتاز بها هذا القرآن العظيم وعلى صورة معجزةٍ يستحيل على أيّ كاتب أو عالم أو أديب أنْ يقوم بما يضارع هذا القرآن فيها بأي شكل من الأشكال: لا صياغةً، ولا أسلوباً في الطّرح، ولا في الصّياغة

البلاغيَّة في التّعبير، ولا في ربط عنصر هذا موضوع المادَّة وكونها مخلوقة محاولة ربطه بموضوع هذه السّورة الوارد فيها العنصر من العناصر التي خطرت ببال الباحث المفكر فيما يتعلّق بموضوع هذا الكون الذي يعيش فيه.

بل هل شعرَ القارئ - وهو يتلو هذه الآيات من سورة الأنعام - أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استهلها بعنصرٍ تابعٍ لموضوع آخر غير موضوع السّورة نفسها، وأنَّ موسيقيّته تختلف عن موسيقيَّة آيات سورة الأنعام؟ أم أنَّه لولا أنِّي قد لفتُّ نظره إلى ما ذكرته له حتَّى الآن فما كان ليشعر بأي شعور يستشمّ منه أنَّ مضامين الآيات الثّلاث الأوائل تشكّل عنصراً تابعاً لموضوعٍ مغايرٍ لموضوع سورة الأنعام؟

وعليه؛ أكون قد قدّمت للقارئ الكريم أوّل نموذج يثبت من خلاله صحّة ما ذهب إليه قول ربّنا عزَّ وجلَّ في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فالفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة استهلت بفاء الاستئناف، وقال الله تعالى فيها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ والمعنى أنَّ الشّرك والتّقليد الأعمى الغالب على حال أكثريَّة النّاس هو السّبب في الحيلولة بينهم وبين الإحاطة بنواحي الإعجاز التي تضمّنتها خصائص هذا القرآن المجيد.

نتساءل: ما هي نوعيَّة هذا الدّليل الذي قدّمه الله عزَّ وجلَّ لإثبات مصداقيَّة ما ادّعاه في الآيتين الأوّليتين من سورة الأنعام؟ فالمعلوم أنَّ الأدلّة أنواع، منها الدّليل المستمدّ من المنطق، ويسمّى دليلاً منطقياً، ومنها الدّليل

المستمدّ من العقل، ويسمّى دليلاً عقلياً، ومنها الدّليل الذي يستمدّ من الأحكام الشّرعيَّة، ويسمى دليلاً فقهياً.

أقول: إنَّ الدّليل الذي أورده الله تعالى هو نوع جديد من الأدلّة استحدثه علماء الغرب في القرن العشرين. وسمّوه دليل تعدُّد العناصر. وبألفاظٍ أخرى، فقد أعرض الله تعالى عن تقديم أيّ نوعٍ من الأدلّة السّابقة المعروفة قديماً. وأتى بدليله المذكور بما يتناسب مع معطيات العصر الذي نعيش فيه وليعرضه جلّ شأنه علاّم الغيوب في وجوه تلك الأقوام التي راحت تتباهى بهذا النّوع الجديد من الأدلّة، وليثبت الله تعالى من خلال تقديمه هذا النّوع من الأدلّة بأنَّ هذا القرآن الكريم قد أنزله تعالى ليصلح للعمل على تعاليمه في كل مكان وزمان.

نتساءل ثانية: فمن أين انطلق علماء الغرب حتَّى توصّلوا إلى هذا النّوع الجديد من الأدلّة؟ أقول: لقد كان علماء أوروبا في القرن التّاسع عشر ينظرون بعد اختراعهم للآلة وبدء نهضتهم الصّناعيَّة المعروفة، كانوا ينظرون إلى العالم من حولهم على أنَّه مادّة بمادّة، ودفعهم لينظروا هذه النّظرة المذكورة ملاحظتهم أنَّ هذا الدِّين المسيحي الذي توارثوه وأنَّ رجال كنائسهم إنَّما يحملون في رؤوسهم أفكاراً وعقائد خرافيَّة تتنافى ومعطيات العلم، بل وإنَّهم يحاربون العلم أيضاً، وأنَّ الواقع الذي كانوا يُعانون منه دفعهم لينظروا هذه النّظرة المادِّيَّة التي اضطرتهم أيضاً ليفسّروا خضوع كل شيء من أشياء هذا العالم في وجوده لقانون النّشوء والارتقاء النّابع من سببين رئيسيين

هما: المصادفة والضّرورة. لذلك أنكروا وجود خالق لهذا الكون، وأنكروا كذلك أنْ يكون لأيّ شيء مقصداً من وجوده.

فهذه ظاهرة غلبت على عقول مشاهير علماء القرن التّاسع عشر في أوروبة أمثال نيوتن، وبيكون، وديكارت، وفرويد العالم النّفساني الذي اشتهر بقوله: (إنَّ أديان البشر يجب أنْ تصنّف باعتبارها وهماً من أوهام الجماهير)، وقوله: (إنَّ الأفكار الدِّينيَّة نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قُوَّة الطّبيعة المتفوّقة والسّاحقة) حتَّى إنَّ فرويد تنبّأ بشأن مصير الدِّين فقال: (هذه الطّفوليَّة **infantilism** مقدّر لها أنْ يتجاوزها النّاس بالتّأكيد).

لكنَّ علوم القرن العشرين في أوروبة أحدثت تبديلاً في هذه النّظرة التي كان ينظرها أسلافهم المذكورين، فقد ظهرت نظريَّة أنشتاين، واكتشفت بنية الذّرة المادِّيَّة وأجهزة القياس المُتطوِّر إلى جانب ظهور غيرها من العلوم والنّظريات، ومنها نظريَّة الانفجار العظيم. وعليه، فما عاد علماء القرن العشرين يكتفون بتفسير الأشياء بداعي سببي المصادفة والضّرورة، بل ولاحظوا وجود أشياء لا تفسرها المصادفة والضّرورة، بل وتدل على وجود عنصر ثالث داخل في تكوين وجود تلك الأشياء وإشارة إلى تدخّل قُوَّة خارجيَّة في موضوع تكوين الأشياء المادِّيَّة. فالسّكّين على سبيل المثال أوجدتها الضّرورة لقطع اللّحم وغيره ولتشريحه، فإنْ كان مقبض هذه السّكّين مزخرفاً بزخارف مختلفة، فلا تكون هذه الزّخرفة داخلةً في موضوع الضّرورة، ولا تكون قد حدثت مصادفةً أيضاً، وتشير هذه الزّخرفة إلى

وجود صانع فنّان عبّر عن فنّه بزخرفة مقبض السّكّين التي صنعها لداعي الحاجة إليها. وعليه فلا تكفي المصادفة والضّرورة لتفسير ظواهر الأشياء المادِّيَّة، فدفعهم هذا الإدراك الجديد إلى التّمرّد على آراء علماء القرن التّاسع عشر، ومن هنا نشأ دليل تعدّد العناصر الذي أشرتُ إليه، والذي قدّم الله عزَّ وجلَّ دليله المذكور بمعياره. ذلك أنَّ اختلاف ألوان الزّهور، وتنوّع الفراشات التي تحمل زخارف في أجنحتها وتركيبة الذّرّة المادِّيَّة نفسها وغيرها من الظّواهر التي يستحيل تفسيرها بمجرد المصادفة والضّرورة استدعت وبداعي تعدّد العناصر في الأشياء إلى طرح دليل تعدّد العناصر الدّالّ على الصّانع الأعظم لهذا الكون. فلما أعلن العالم غاموف نظريته المسماة نظريَّة الانفجار العظيم والمنطلقة من أنَّ هذا الكون نشأ عن تمدّد مادَّة أوَّليَّة تسبَّب بها انفجار عظيم وقع لها، وبعد أنْ استفاد العلماء من أجهزة القياس الحديثة المُتطوِّرة وقاسوا بها هذه المادَّة، فقد تبيّن لهم أنَّ هذا الانفجار قد حدث قبل 12 ـ 20 ـ مليار عام. وبذلك سلّموا بأنَّ الكون مخلوق، ويوجد خالق لهذا العالم أيضاً.

وعليه؛ فلو أنَّ الله عزَّ وجلَّ كان قد عمد لإثبات ما طرحه في مستهلّ سورة الأنعام من ادّعاء إلى تقديم دليلٍ من أنواع الأدلّة المتداولة قديماً، فقدّم دليلاً منطقياً أو دليلاً عقلياً أو سواه من الأدلّة الأخرى غير دليل تعدّد العناصر، فما كان ليعطي هذا الدّليل في زماننا هذا روح المعاصرة المطلوبة. أمَّا وقد قدّم دليل تعدّد العناصر، فقد أثبت تعالى من خلاله أنَّه جلّ شأنه يخاطب علماء القرن العشرين من خلال هذا الدّليل الذي استحدثوه، وتميزوا به من

أسلافهم عن علماء القرن التّاسع عشر، الذين نظروا إلى هذا الكون على أنَّه مادَّة بمادَّة، وليس فيه روح، وأنَّ ما نشاهده في هذا الكون من أشياء قد تطوَّرت وفق قانون النّشوء والتّطوُّر ولداعي المصادفة والضّرورة فقط ليس إلاّ.

فهذه هي الحقيقة الكامنة وراء تقديم دليل مُؤلَّف من حلقات ثلاث، تشتمل كل حلقة منها على عناصر عديدة، وتشكّل بمجملها دليل مصداقيَّة محتوى العنصر الأوَّل الكوني الذي استهلّ الله تعالى به آيات سورة الأنعام. وعليه؛ فإنَّ هذا العنصر الأوَّل المذكور لا يأتي إعجازه من كونه معبّراً عن خصوصيَّة إعجازٍ قرآنيَّة وحسب، بل ويأتي إعجازه من اقترانه بدليلٍ معاصر أيضاً.

ومادامت قد كررت الإشارة إلى النّظريَّة المعاصرة وهي نظريَّة الانفجار العظيم، فسأحاول أنْ أدلّ القارئ على الآية القرآنيَّة التي أشارت وقبل أربّعة عشرة قرناً إلى ظهور نظريَّة الانفجار العظيم على أيدي علماء القرن العشرين، وأدلّه أيضاً على دليل مصداقيَّة هذا الطّرح، وكيف أنَّه تعالى أتى هناك أيضاً بدليل تعدّد العناصر الذي استحدثه علماء الغربّ من أهل التّثليث، ولتثبت معاصرة ذاك الدّليل المشار إليه أيضاً.

فالعنصر الأوَّل لموضوع السّؤال عن حقيقة المادّة أورده الله تعالى في مستهلّ سورة الأنعام، وأمَّا العنصر الثّاني، فقد أورده تعالى في الثّلث الأوَّل من سورة الأنبياء وليس في مستهلّها، وقد أورد الله تعالى العنصر الثّاني المذكور موجّهاً إلى أهل عقيدة التّثليث بصورة خاصَّة؛ حيثُ قال تعالى في الآيات 26 وإلى الآية 35 من سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ

سُبۡحَـٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ .

فليلاحظ القارئ هذا الأسلوب الإلهي في طرحه لمعتقد أصحاب عقيدة التّثليث وفي مناقشته إيّاها وفي الاستدلال على بطلانها، وذلك من خلال معطيات كتبهم من جهة، ومن جهة ما توصّل إليه علمهم في وقتنا الحاضر من جهة ثانية، وبنفس دليل تعدّد العناصر الذي استحدثوه. وليلزمهم بهذا النّوع من الأدلّة الذي تبنّوه.

فالله جلّ شأنه حين قال في الآية الأولى ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ يكون قد لخّص معتقد هؤلاء وأتى بالمعتقد الحق في آن واحد. وإنّه جلّ شأنه عندما قال ﴿ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ

﴿ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . فقد لخّص الله جلّ شأنه من خلال ذلك معطيات ما ورد في العهد القديم الذي يعتقدون به . إذ تبين منه أنَّ جميع الذين أرسلهم الله تعالى قبل المسيح النّاصري عليه السّلام كانوا أنبياء تنطبق عليهم هذه الصّفات التي تضمّنتها هذه الآيات الثّلاث ، إشارة إلى أنَّ أصحاب هذه العقيدة ابتدعوا عقيدة تخالف ما ورد في هذه الآيات الثّلاث . وإشارةً إلى أنَّ أصحاب هذه العقيدة ابتدعوا عقيدةً لا أساس يدعمها ويماثلها في تاريخ أمتهم الذي تكلّم عنه وتضمّنه هذا العهد القديم .

ومن ثمَّ ؛ فقد راح الله جلّ شأنه يقدّم دليل مصداقيته كونه تعالى هو الرّحمن الذي لا يحتاج إلى ولد يساعده في خلقه لهذا الكون ولتسيير دفته . فهو تعالى استعمل فعل (اتَّخذ) ومعناه صيّر واستكان . وليوحي من خلاله أنَّ ادعاء هؤلاء بأنَّ الرّحمن اتَّخذ ولداً هو في الأصل ادّعاء متناقض مع نفسه ، فالرّحمن هو الإله الذي يملك قدرات لا تُحدّ مكنّته من خلق كل شيءٍ في هذا الكون والقيام بهدايته إلى المقصد من وجوده ، وبدون مقابل من مخلوقيه . فهذا هو معنى صفة (الرّحمن) لغوياً .

فلما فرغ الله عزَّ وجلَّ من هذا الأسلوب الذي طرح من خلاله عقيدة المسلم في مواجهة عقيدة المسيحي ، وبعد أنْ ألزمه بمعطيات العهد القديم الذي يعتبره كتابه المقدّس ، فقد توجه الله عزَّ وجلَّ لتقديم دليله القاطع على مصداقيَّة كون الله (الرّحمن) . فمن أين ابتدأ؟ وأي نوعٍ من الأدلّة قدّم؟

لقد انطلق الله عزَّ وجلَّ من مكتشفات أصحاب هذه العقيدة المعاصرين ، وقدم لهم دليل تعدّد العناصر الذي استحدثوه . وليثبت جلّ

شأنه كون هـذا القـرآن قد نـزل ليصلـح لكـل زمـانٍ ومكـان . فكيـف أدركنـا ذلك؟ أدركنا ذلك من خلال مـا استهلّ الله تعـالى بـه دليلـه المتعـدّد العنـاصر المشار إليـه . فـهو تعـالى قـال ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ . فقوله (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) هو الذي تضمن ما ذكرناه . فهذا الأسلوب في الاستفهام (أَوَلَمْ يَرَ) معناه أولم يرتأ ويطرح هؤلاء نظريتهم الخاصّة بهم . وقوله (ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) فقد حذف مضاف كفروا ، فلـم يوضـح أيّ شـيء كفـر بـه هـؤلاء . وليتركنـا الله تعـالى نسـتنبط هـذا الشّـيء المحذوف من أنفسنا . فالمسيحيون حين نسبوا لله تعالى اتخاذ الولد فقد كفـروا بكون الله (رحماناً) . وتناقضوا مع أنفسهم بسبب هذا الزّعم الذي أخذوا بـه كما تناقضوا مع معطيات كتابهم الذي يسمّونه العهد القديم .

والسّؤال هنا : ما هي النّظريّة والرّأي الذي ارتؤوه وسلّموا به؟ الجواب هو إنّه هذه النّظريّة التـي يسـمّونها (نظريّـة الانفجـار العظيـم) ، هـذه النّظريّـة التـي تعنـي بألفـاظ قرآنيّـة أنّ هـذه السّـموات والأرض كانتـا رتقـاً ففتقـها الله تعالى أي كانت عبارة عن مادّة واحدة ، ففجرها الله تعالى ، وتركـها تتمـدّد ، وتشكّل هذا الكون العظيم . فبهذه الكلمات قد عبّر الله جـلّ شـأنه عـن هـذه النّظريّة التي قال بها الذين اتّخذوا للرّحمن ولداً هم أنفسهم . ولـم يقل بـهذه النّظريّة أحد من المسلمين . فهذا أوّل عنصرٍ من عنـاصر دليـل مصداقيّـة كـون الله تعالى (رحماناً) .

وأضاف جلّ شأنه عنصراً ثانياً وقال ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أنّه ثبت لدى هؤلاء الكافرين أيضـاً مصداقيّـة هذه الحقيقـة

التي أعلن عنها القرآن المجيد قبل أربعة عشرة قرن من الزّمان. فقد ثبت لهؤلاء الكافرين أنَّ الماء مُؤلَّف من عنصري الأوكسجين والهيدروجين، وهو أساس تركيب كل شيءٍ حي في هذا الوجود. (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟) أي أ فلا يكفيهم كشف هذه الحقائق التي بيّناها قبل أربعة عشر قرن من الزّمان، ليؤمنوا نتيجة لذلك ببطلان عقيدتهم، وهي أنَّ الله تعالى قد اتَّخذ ولداً ؟

وقد أضاف الله عزَّ وجلَّ عنصراً ثالثاً يثبت منه تدخّل الخالق الرّحمن. وقد عبّر تعالى عنه بقوله ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بمعنى أنَّ مفكّري هؤلاء الكافرين وعلمائهم قد توصّلوا إلى معرفة قيمة وجود هذه الجبال الرّواسي التي هي كخزائن للمياه التي تتفجّر منها الأنهار والينابيع، والتي لولاها لانعدمت الحياة من على سطح الأرض، وأنَّ هذه الجبال لم تظهر كسدود تسدّ ما بين قطعة من الأرض وأخرى، بل وجدت على شكلٍ ترك ما بينها (فِجَاجًا سُبُلًا) ليتنقل أهل الأرض ما بين بقعة وأخرى من بقاع الأرض. يقول تعالى وندلّهم ليلاحظوا هذه الظّاهرة التي تشكّل عنصراً ثالثاً من عناصر الدّليل الذي يثبت منه كون الله (رحماناً) لعلّهم يهتدون؛ أي لعلَّهم إذا أعطوا هذه الملاحظة عظمتها يهتدون إلى كون الله رحماناً.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بما ذكر هؤلاء الذين كفروا به من عناصر مصداقيَّة دليله المعاصر متعدّد العناصر، بل وأضاف عنصراً رابعاً عبّر تعالى عنه وقال ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وقد أشار جلّ شأنه من خلال قوله هذا إلى طبقة الأوزون التي اكتشف وجودها

علماء الغرب. تلك الطّبقة الغازيَّة التي تمتص أشعة الشّمس فوق البنفسجيَّة وتحول دونها ودون وصولها إلى سطح الكرة الأرضيَّة، والتي لولا وجودها ولولا أداؤها هذه المهمة الحيويَّة لكان أصيب كلّ مَنْ يتعرّض جسمه لأشعة الشّمس بسرطان الجلد على أقل تقدير.

فكيف تشكّلت هذه الطّبقة الأوزونيَّة لولا تدخّل هذا الخالق المبدع وإنَّ وجودها يعتبر آيةً من الآيات الدّالّة على كونه تعالى هو (الرّحمن). ولذلك أنَّهى جلّ شأنه الآية الكريمة التي اشتملت على هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ بمعنى أنَّ هؤلاء الذين زعموا بأنَّ الرّحمن اتَّخذ ولداً وكفروا بكونه (الرّحمن) فما هو بحاجة إلى ولد يساعده أو يرثه من أجل أنْ تتراءى لأعينهم معالم هذه الآية السّماويَّة، ومن ثمَّ يعرضون عن دلالاتها، أي يصدون ولا يحاولون فهم دلالاتها على أنَّها تثبت كون الخالق موجد هذا النّظام الشّمسي قد حفظ الإنسان من آثاره السّلبيَّة بدون أنْ يكون له ولد.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بلفت نظر هؤلاء الكفار إلى هذه العناصر الأربعة المذكورة، بل أضاف ولفت نظرهم إلى عنصر خامس وقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بمعنى أنَّ هذا النّظام الشّمسي الذي أبدعه الله الخالق والذي يتناوب فيه الليل والنّهار وفي وقت يُلاحظ فيه أنَّ الشّمس والقمر اللّذين يتناوبان القيام بهذه المهمة كل منهما يسبح في فلكٍ، أي في مسارٍ مخصص له في هذا الفضاء الفسيح وعلى صورة

لم يختل توازن أيّ منهما منذ وجودها أيضاً. فمن أوجد هذا النّظام الشّمسي المدهش إلاّ أنْ يكون الله المتّصف بكونه الرّحمن مبدع هذا النّظام الشّمسي.

وعليه؛ يكون الله عزَّ وجلَّ قد خاطب هؤلاء الذين زعموا أنَّ الرّحمن اتَّخذ ولداً، فقدّم لهم هذا الدّليل المتعدّد العناصر وبميزان الدّليل الذي ابتدعوه، وعادوا يفتخرون بإيجادهم إيّاه. وقد شكّل الله عزَّ وجلَّ دليله المذكور مُؤلّفاً من خمسة عناصر وكلّ عنصر فيه مشتمل على كثير من العناصر أيضاً، قدّمه جلَّ شأنه ليثبت من خلال كونه جلّ شأنه المتصف بصفة (الرّحمن) أي المبدع كل شيء دون مقابل وبغير مساعدة أحد دونه، قدّم هذا الدّليل الذي هو على مستوى معطيات عصرنا، على حين أنَّ القرآن الكريم قد أنزل ربّنا آياته الكريمة منذ أربعة عشر قرن من الزّمان. ولم يكتف الله تعالى بتقديم هذا الدّليل المذكور، بل أضاف يقول مدعّماً إيّاه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ بمعنى أنَّ أناجيلكم تعترف بأنَّ المسيح كان يأكل ويشرب فهو إذن بشر، ويستحيل أنْ يبقى المسيح حياً في السّماء مُدَّة ألفي عام، وهي مُدَّة طويلة تدخل في مفهوم الخلد، فصرّح الله جلّ شأنه من خلال ذلك القول بموت المسيح البشر، وعلى شاكلة موت جميع أنبياء الله الذين توفّاهم ربّهم قبل بعثة محمد بن عبد الله ﷺ. ونبّه في الوقت نفسه إلى أنَّ هؤلاء الذين يزعمون ما يعتقدونه هم بشر أيضاً، وسيموتون أيضاً. لماذا؟ أجاب تعالى وقال ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

والآن ليسأل القارئ نفسه: هل شعر من خلال هذه الآيات التي أوردتُها له من سورة الأنبياء إلا أنَّها داخلة في صلب موضوع سورة الأنبياء الأصلي؟ وكيف أنَّها منسجمة أيضاً مع موسيقيَّة الآيات التي وردت قبلها والتي بعدها تلاوةً؟ وإنِّي لعلى يقين بأنَّ هذا القارئ سيجيب بأنَّ هذه الآيات لا تشعر القارئ بشيءٍ غريب، وما دام قد سلّم بهذه الحقيقة، على حين قد أجابه الله تعالى من خلالها على ما يوازي مضمون نظريَّة الانفجار العظيم الذي تكرر على مسامعه من قبل، وتاقت نفسه للاطلاع على الآية الكريمة الدّالّة على مصداقيَّة هذه النّظريَّة الكونيَّة المعاصرة، بل وإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل الكلام عن هذه النّظريَّة مدخلاً ملزماً لأصحابها أيضاً.

وعلى هذه الصّورة يكون الله جلَّ شأنه قد أورد هذا العنصر الثّاني من عناصر موضوع يتحدّث عن هذا الكون من حولنا: عن أصله وعن تطوُّره وعن الأدوار الزّمنيَّة التي مر بها وغيرها من العناصر أقول: لقد أورد الله تعالى هذا العنصر ضمن سورة الأنبياء، وبما يتفق مع تسلسل آياتها، وبما يجانس موسيقتها. فهل بإمكان أيّ كاتب أو أديب أنْ يتصدى لمنازلة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة المعجزة صياغةً وأسلوباً في الطّرح وبلاغةً في التّعبير وربّطاً موضوعياً مع السّورة الوارد فيها هذا العنصر المُتعلّق بموضوع خارجٍ عن موضوع هذه السّورة التي هي سورة الأنبياء؟ وعليه؛ أكون قد قدمت ثاني نموذجٍ يثبت من خلاله صحة قول ربّنا عزَّ وجلَّ في سورة الإسراء ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

وأكون قد أثبتُّ أنَّ من خصوصيَّة هذا القرآن الكريم أنَّه يوزع عناصر الموضوع الواحد على سورٍ كثيرة من سوره، وعلى صورة تبدو معها هذه

العناصر منسجمةً مع سياق الآيات وسياقها، وعلى صورة معجزة تحدى الله جلّ شأنه بها الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنْ تكون له هذه الخصوصيَّة المعجزة أيضاً. فالقرآن المجيد هو معجز ليس في صياغته البلاغيَّة ولا في مضامينه وحسب، بل وإنَّه معجز أيضاً فيما اشتمل عليه أسلوبه الإنشائي من خصوصيات، من جملتها هذه الخصوصيَّة التي قدمنا حتَّى الآن مثالين يُثبتان مصداقيتّها.

ولن أكتفي بتقديم المثالين سالفي الذّكر. بل أرى أنْ أقدم للقارئ مثالاً قرآنيّا ثالثاً يتعلّق بالموضوع نفسه الذي يبحث في الأمور الكونيَّة. بسبب أنَّ هذا البحث لم يسبق أنْ بحثه كتاب سماوي قبل إنزال هذا القرآن الكريم. وتعتبر الحقائق التي كشف عنها هذا القرآن في السّنوات الأولى من الدّعوة الإسلاميَّة آيةً صريحةً تؤكد مصداقيَّة كونه منزلاً من لدن الله مُبدع هذه السّماوات والأرض وما بينهما، خصوصاً وأنَّ الاكتشافات العظيمة التي حدثت في القرن العشرين أكدت صحّة تلك الحقائق القرآنيَّة.

وهذا المثال أستقيه من آيات سورة (فُصّلت) التي تتضمّن هذا الأنموذج الثّالث الذي شئتُ تقديمه توضيحاً للخصوصيَّة القرآنيَّة الأولى التي لفتُّ نظر القارئ إليها، والتي تتجلّى من خلال توزيع القرآن الكريم عناصر الموضوع الواحد على العديد من سوره.

فالمعلوم من كتب التّاريخ والتّفسير أنَّ سورة فصّلت قد أنزلها الله عزَّ وجلَّ في السّنوات الأولى في مكة المكرمة، أيام اشتداد حركات اضطهاد قريش لمحمد ﷺ وأصحابه. ففي تلك الفترة الحرجة من حياة الدّعوة

الإسلاميَّة، ما كانت توجد فرصة أصلاً للحديث عن مستقبل الإسلام غير المنظور، لكنَّ الآيات من سورة فصّلت تكلمت عن مستقبل الإسلام غير المنظور وذلك في مستهلّ هذه السّورة، فالله جلّ شأنه استهلّ سورة (فصّلت) بقوله ﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قد اشتملت على ما ذكرناه، ذلك أنَّ الله جلّ شأنه عندما قال لقوم (يعلمون) فلم يوضح ماذا يعلمون؟ فلماذا أتى بهذا الحذف البلاغي؟ إنَّ سبب هذا الحذف البلاغي هو أنَّه جلّ شأنه راح يقدم لهذا القوم مصداقيَّة ما ادّعاه من خلال مضمون قوله تعالى في الآية الثّانية ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فقد راح يقدم لهم دليل مصداقيَّة هذا الادعاء، وممَّا يعلمونه.

فهنا حقيقة غابت عن أذهان المفسرين القدماء رحمهم الله. فابن كثير رحمه الله على سبيل المثال فسّر قوله تعالى ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وقال (أي إنَّما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الرّاسخون) لكنّه لم يخطر بباله أنَّ هذه الآيات الكريمة عندما نزلت في مكة لم يكن قد آمن بالإسلام رجال كثيرون، وحتَّى صحابة رسول الله ﷺ ما كان يصح القول بحقّهم (علماء راسخون)، فقد كانوا ما يزالون يتلقّون علمهم على أيدي محمد رسول الله ﷺ. ممَّا يثبت أنَّ المقصود من ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ هو كلام مُتعلّق بقوم لم يكن لهم في تلك الفترة الزّمنيَّة من وجود.

ثمَّ إنَّ الله تعالى أورد كلمة (قوم). والقوم هم الجماعة المُؤلّفة من الرّجال والنّساء معاً أو من الرّجال خاصَّةً أو تدخله النّساء على تبعيَّة. وسمّوا كذلك لقيامهم بعظائم الأمور وعظائم المهمات. ولفظ القوم يُذكّر

كما يؤنّث أيضاً، فيقال قام القوم وقامت القوم (محيط المحيط). هذا وإنَّ اللام من قوله تعالى (لِقَوْمٍ) هي لام التّبليغ في هذا المقام لدخولها على فعل المضارع (يَعْلَمُونَ) وإنَّ ما يؤكّد أنَّ المراد من اللام هنا معنى التّبليغ هو قوله تعالى بعد ذلك مباشرةً ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أنَّ مضمون هذا الادّعاء موجّه إلى قوم يعلمون ما سنكشفه لهم من حقائق كونيَّة اختصّوا بالكشف عنها، ويُشَكِّل ادّعاؤنا ومصداقيته كونه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيراً لهم إذا سلّموا به وآمنوا بهذا الكتاب الذي تضمّنه، ونذيراً لهم إذا أعرضوا عنه، وكفروا بهذا القرآن، وسدّوا آذانهم عن سماع مصداقيته.

أمَّا صاحب التّفسير الكبير الفخر الرّازي رحمه الله على سبيل المثال أيضاً، فقد كتب يقول وهو يفسّر (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) قال: قوله (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) يعني إنَّما جعلناه عربيّاً لأجلّ أنْ يعلموا المراد منه، والقائلون بأنَّ أفعال الله معلّلة بالمصالح والحكم تمسَّكوا بهذه الآية وقالوا إنَّها تدلُّ على أنَّه جعله عربيّاً لهذه الحكمة. فهذا يدلّ على أنَّ تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز (المسألة السّابقة) قال قوم القرآن كله غير معلوم، بل فيه ما يعلم وفيه ما لا يعلم، وقال المتكلّمون لا يجوز أنْ يحصل فيه شيء غير معلوم، والدّليل عليه قوله تعالى ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

فالرّازي رحمه الله لم يقل مثل ما قاله ابن كثير. لكنه لم ينتبه أيضاً إلى تلك النّقاط التي أوردتُها في حينه والمُتعلّقة بمعنى كلمة (قوم) وبدلالة لام التّبليغ وبعدم اكتمال علم صحابة الرّسول ﷺ يوم نزلت الآيات من سورة فصّلت، وبالتّبشير والإنذار الموجّه إلى هذا القوم، وأنَّ دليل مصداقيَّة كون

الله (رحماناً ورحيماً) قد تضمّنته المعلومات التي اكتشفها رجال ونساء هذا القوم المشار إليه والمُتعلِّقة بالحقائق الكونيَّة. لذلك كان من واجب المؤمن الذي يقوم بتدبّر هذه الآيات التي ذكرناها أنْ يعرف مَنْ هم هؤلاء القوم الذين أشار إليهم الله عزَّ وجلَّ هنا من خلال قوله (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) وعلى وجه التّحديد أيضاً؟

أقول: لو صحّ رأي كلٍ من المفسّرين المذكورين، لكان ينبغي أنْ يقول تعالى (لعلهم يعلمون) وليس (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فالله جلّ شأنه قد قصد هنا قوماً معيناً لم يكن له في زمن نزول هذه الآيات من وجود. ولقد كشف الله تعالى اللِّثام عن القوم المقصود من خلال إنذاره إياهم بالويل والثّبور، وذلك ابتداءً من الآية التّاسعة التي قال تعالى فيها ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾. فالهمزة من قوله تعالى (أئنكم لتكفرون) تفيد هنا الطّلب من هذا القوم المذكور طلب الإيمان والتّصديق بكون الله هو (الرّحمن الرّحيم) الذي أُنزلت من لدنه آيات هذا الكتاب العزيز. ثمَّ إنَّ اللام من قوله تعالى: (لَتَكْفُرُونَ) استعملت هنا بمعنى التّعجب المجرد عن القسم. أمَّا قوله تعالى ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ ففعل تجعلون له معناه تشارطون عليه. وكلمة (أَندَادًا) جمع (ندّ) وقد استعملت هنا بمعنى الرّأي والنّظريَّة.

فاستناداً إلى هذه المعاني التي أوردناها فإنَّ الله عزَّ وجلَّ راح يكشف اللِّثام عن وجه هذا القوم المشار إليه في قوله تعالى (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) من أنَّه جلّ شأنه كان قد تكلم عن خلق هذه الكرة الأرضيَّة وأنَّ خلقها قد تمَّ في

دوريـن مسـتقلين مـن الزّمـان ، وأنّـه يعجـب مـن هـذا القـوم الـذي تبينـت لـه مصداقيّـة الحقيقـة التـي أوردهـا القـرآن الكريـم قبـل أنْ تـدلّ الأبحـاث العلميّة هذا القوم على مصداقيّة تلك الحقيقة بأربعة عشرة قـرن مـن الزّمـان . فيعجب الله تعالى من تجاهل هذا القوم لهذا الدّليل القرآنـي ، وفي وقـت كـان ينبغـي فيه عليـهم أنْ يؤمنـوا بـهذا الكتـاب العزيـز ، وأنْ يصدّقـوا تعاليمـه ، لكنّـهم يعرضـون عـن الإيمـان بـهذا القـرآن العظيـم ، وينحـون منحـىً آخـر ، ويسيرون وراء آراءٍ أخرى غير ما ارتآه هذا القـرآن العظيـم الـذي دلّـهم علـى ربّ العالمين .

فمن خلال معطيات هذه الآية نـدرك حكمـة أنّـه جـلّ شـأنه ، وبعـد أنْ كان قـد قـال في مقدمـة الآيـة الرّابعـة ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ فقـد أتـى تعـالى بفـاء الاستئناف وأنبـأ عمّـا سـيقفه هـذا القـوم المقصـود حـين يكتشـفون تلـك المكتشفات العلميّة وقال : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ . وإنَّ هـذه الكلمـات تكـون قـد صـوّرت هـذا القـوم الذي يعاصرنا بأدقّ تصوير . فقـد اغـترّ علمـاء هـذا العصـر بتفوّقـهم العلمـي وبإنجازاتهم ، وما بقي عند أكثرهم أي استعداد لتقبـل هـذا الكتـاب المقـدس الذي مضى على تنزيله أربعة عشر قرن من الزّمان .

وليلاحظ القـارئ كيـف أنَّ الله تعـالى ، وبعـد أنْ كشـف عـن الدّوريـن الزّمنيين اللّذين مرّ من خلالهما خلق الأرض ، كشف عن حقائق كونيَّة أخـرى ولتشكّل بمجموعها دليل مصداقيَّة كون هذا القرآن الكريم ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ﴾ ، ومن ثمَّ توجّه ليُنذر هذا القوم المخاطب في هذه الآيات الكريمة بالعاقبة المحزنة التي تنتظرهم لإعراضهم عن تصديق هذا القرآن العظيم. لذلك فقد أتى تعالى في مستهلّ الآية الثّالثة عشرة بفاء الاستئناف وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. وأضاف تعالى يوضح لهذا القارئ أحوال هؤلاء، فأضاف يقول: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ومن ثمَّ أتى الله جلّ شأنه في الآية السّادسة والعشرين بعلامة بارزة من علامات هذا القوم المشار إليه؛ حيثُ قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي إنَّ من علاماتهم أنَّهم عوضاً عن أنْ يؤمنوا بهذا القرآن الذي أنبأهم عن جميع تلك الحقائق العلميَّة التي تبيّنت لهم صحتها فقد، خطّطوا لإبعاد المؤمنين عن هذا القرآن العظيم، محاولين تصغير شأنه في أعينهم، وذلك من خلال طروحات يطرحونها، وفي وقت يكون فيه أتباع هذا القرآن متخلّفين علمياً وأخلاقياً أيضاً. ولذلك أضاف تعالى بعد تلك الآية يقول ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ومن ثمَّ قال الله تعالى وهو يشير إلى هؤلاء الذين كفروا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ والملاحظ هنا أنَّه جلّ شأنه حذف خبر (إنَّ) من قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ

لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لنفهم هذا الجواب من معطيات الآية التـي قبلـها. والتّقديـر إنَّ الذين كفروا بالذّكر يجازون بفكرهم ويلقون في النّار. ونبّه هؤلاء إلى أنّهم لـن يفلحوا فيما يسعون إليه، فهذا الكتاب عزيزٌ، أي منيعٌ لا يستطيع أحد أنْ ينالـه بسوء، ولن يثبت بطلان مضامينه لا في زمن نزوله ولا في زمن ظهور هذا القوم الكافر المشار إليه. وعاد السّؤال هنا: ما هو سرّ مناعـة هـذا الكتـاب؟ ومـا هـو مصدرها؟ أجاب تعالى على هذا السّؤال وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي لأنَّ الله الذي أنزل هذا الكتاب العزيز يتصف بصفة الحكمة، فالحكيم هو العالم صاحب الحكمة والمتقن للأمور ويجمع ما بين العلـم والعمـل (محيـط المحيط). وهو يتصف بصفة (الحميد) أيضاً، فهو المحمود في كل ما يفعله.

وقد عمد الله جلّ شأنه إلى إفهامنا بأنَّ القوم الذي تكلم عنـه لـم يكـن معاصراً لزمن البعثة الإسلاميَّة الثّانية. ولذلـك يلاحـظ القـارئ أنَّ الله تعـالى راح يقول في الآية الحادية والخمسين: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾. وبعـد أنْ نبّـه إلـى هـذه الحقيقـة التي يتصف بها هذا الإنسان أمر رسوله وكلّ إنسان اتّبعه وقـال ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي يا أفراد هذا القوم الذين أشركوا ولم يلبّـوا هـذا الصّـوت السّـماوي، والذيـن سيشاققون هـذا الدِّيـن جيـلاً بعـد جيـل إلـى أنْ يظـهر مـن بينـهم زمـن البعثـة الإسلاميَّة الثّانية هؤلاء الذين يعلمون هذه الحقائق الكونيَّة، فلن يكـون هنـاك من هو أضل منكـم. وأضـاف تعـالى وقـال ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ فبهاتين الآيتين أنّهى الله تعالى سورة (فصّلت) لذلك كان من واجبنا الإحاطة بدلالات هاتين الآيتين الكريمتين.

إنَّ كلمة (أفق) تعني النّاحية كما تعني آخر وقت مغرب الشّمس أو ما ظهر من نواحي الفلك (محيط المحيط). وعليه؛ فإنَّ الله تعالى الذي أنبأ عن هذا القوم بأنّهم سيعرضون عن الإيمان بهذا الكتاب، ولا يؤمنون به، وسيستمرون في معاداتهم لأهله، وسيسعون في زمن تطوُّرهم العلمي أنْ يبعدوا المسلمين المتخلّفين عن هذا القرآن الكريم، فقد قال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم بمعنى سنلقي عليهم حجّتنا كاملةً، فتتجلّى لأعينهم علامات مصداقيَّة هذا القرآن الكريم علامةً بعد علامة، حتَّى وأنَّهم سيتلمّسون تلك العلامات في أنفسهم من خلال خذلانهم في جميع ما يخطّطون له، ويتآمرون به ضدّ هذا الكتاب. سعياً للقضاء عليه، إلى أنْ يتبيّن لهم في سرّهم أنَّه الحق، أي أنَّ هذا القرآن الكريم يمثل الصّدق والعدل والقول الثّابت. وهنا توجه الله تعالى بخطابه نحو رسوله الكريم وقال ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي أنَّه لا يغربّ عن نظر ربّك شيء يا رسولنا الصّادق الأمين. ويكفيك أنّنا نراقب جميع تحركاتهم وما يدبرون ضدّ هذا الكتاب من مؤامرات. وبعد ذلك أتى الله جلّ شأنه بحرف التّنبيه (أَلَآ) وقال ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾. وإنَّ كلمة (مِرۡيَةٖ) تعني الشّك والجدل. فالله يقول أنبّه وأقول منذ هذه اللحظات التي أنزلت فيها هذه السّورة المُتعلِّقة بإنذار هذا القوم المشار إليه هو أنَّ هذا القوم سيظل بحيثيته الجماعيَّة وحتّى البعثة الثّانية للإسلام في شكٍّ مستمرّ من موضوع

صدق هذا الكتاب العظيم، وسيظل أفراد هذا القوم يجادلون المسلمين لإثبات بطلانه، والسّبب في ذلك أنَّهم سيظلّون [في شك من لقاء ربّهم] علماً بأنَّ لهذه الفقرة معنيان: فالمعنى الأوَّل هو أنَّ عقيدة التّثليث رسخت في قلوبهم إلى درجة ما عادوا معها يرجون أنْ تفيدهم تعاليم الإسلام لترقيتهم روحياً، والمعنى الثّاني أتى من دلالة كلمة (لِّقَآءِ) نفسها فهي تحمل معنى الحرب. والمعنى أنَّ هذا القرآن قد أنذر هذا القوم بعذابٍ ينزل بهم كصاعقة عاد وثمود، بمعنى أنَّه أنذرهم بالهلاك. لكنَّ إمهال الله تعالى إيّاهم مدّة طويلة لعلَّهم يهتدون أورثت الشّكَّ في أنفسهم، فما عادوا يتصوّرون أنْ يُقدم الله على محاربتهم وعلى معاقبتهم على كفرهم وعلى ما يفعلونه.

وليلاحظ القارئ كيف أنَّ الله تعالى شاء أنْ يؤكِّد ما ينتظر هؤلاء من عذاب، فأتى بحرف التّنبيه للمرَّة الثّانية وقال ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءٍ مُّحِيطُۢ ﴾ فكلمة محيط اشتقّت من قولك حاط به العذاب، بمعنى حاق به ونزل. وقولك أحاط بالشّيء معناه أحدق. وقولك أحيط بالقوم معناه هلكوا جميعهم. والمحيط اسم فاعل من الإحاطة. ولهذا يقال للخط المستدير محيط الدّائرة (محيط المحيط).

وعليه؛ فكأنَّ الله عزَّ وجلَّ ومن خلال قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءٍ مُّحِيطُۢ ﴾ فإنَّه جلّ شأنه قد نبّه هذا القوم وأنذره بأنَّه تعالى سيقضي على جميع الأشياء التي يعدونها للقضاء على هذا الكتاب العزيز، وما داموا هم أنفسهم يُشَكِّلون في الوقت نفسه (أشياء) من جملة تلك الأشياء، فقد كان أمر القضاء عليهم أمراً محتوماً لا مفرّ منه، فلابُدَّ أنْ يُحدق بهم

العذاب المقدر لإهلاكهم في يوم من الأيام ومصداقاً لما أنبأ عنه هذا الكتاب العزيز نفسه .

وألخّص جميع ما ذكرته حتّى الآن ، فأقول لقد تبيّن للقارئ الكريم أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خصّص الآيات من سورة فصّلت ليتوجّه بخطابه تعالى إلى هذه الأمم الغربيَّة المعاصرة التي ترقّت في مجالات مختلف العلوم ومنها علم الفلك وعلم طبقات الأرض رقياً مدهشاً ، وهم المقصودون من قوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . وعلى حين كان تعالى قد نقض عقائد هؤلاء من خلال معطيات مفهوم صفته الرّحمان وما تولد عنها في هذا الكون ، فإنَّه جلّ شأنه أفحم الأمم المذكورة من معطيات صفتيه (الرّحمن والرّحيم) فبشّرهم بالإسلام ، ودعاهم للإيمان بهذا الكتاب العزيز . وأنذرهم في الوقت نفسه بالويل والهلاك في نهاية المطاف ، وعلى شاكلة ما أهلك الله تعالى به قومي عاد وثمود إنْ هم أعرضوا عن قبول هذا الدِّين المتين . فهذا الإنذار والتّبشير قد نزلت به الآيات في مكة المكرمة يوم كانت الأفكار متوجهة نحو قريش وحركاتها الاستفزازيَّة ضدّ أوائل الذين آمنوا بمحمد ﷺ سيِّد المرسلين . وقد لاحظ القارئ كيف أنَّ مضمون هذه السّورة لا ينطبق على قريش التي آمن أهلها بالإسلام بعد فتح مكة المكرمة .

والمدهش حقّاً هو أنَّ الله جلّ شأنه قد أورد في سورة فصّلت عدّة حقائق كونيَّة وشكّلت بمجموعها دليلاً متعدّد العناصر في مواجهة هذا القوم المذكور ، والتي يثبت منها كون الله عزَّ وجلَّ يتصف بصفتي (الرّحمن والرّحيم) .

فلاحظ ـ يا عزيزي القارئ ـ كيف أنَّ هذه الحقائق الكونيَّة تعود أصلاً إلى موضوع مستقلّ عن موضوع سورة فصّلت، ومع ذلك، وانطلاقاً من اختصاص القرآن العظيم بتوزيع عناصر الموضوع الواحد على العديد من سوره فإنَّه جلّ شأنه أتى بهذه الحقائق الكونيَّة مجتمعة في أربعة آيات متتالية وعلى صورة دليلٍ متعدّد العناصر في مواجهة القوم الذين باتوا محيطين بالحقائق الكونيَّة التي أوردتها آيات هذه السّورة. وقد حدث هذا في السّنوات الأولى لظهور الدِّين الإسلامي، وليزيد ذلك في عظمة الإنباء عن تلك الحقائق الكونيَّة وعن هول الدّمار الذي ينتظر هذا القوم المنذر في هذه السّورة والذين يعلمونها.

ولقد ابتدأ الله عزَّ وجلَّ بسرد الحقائق الكونيَّة المذكورة ابتداءً من الآية التّاسعة فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وتعلم ـ يا عزيزي القارئ ـ أنِّي كنت قد فسّرتُ الآية الأولى على حينه والمُتعلّقة بخلق الله تعالى لهذه الأرض في دورين زمنيين متمايزين. وأمَّا في الآية الثّانية، فقد نبّه الله جلّ شأنه إلى أنَّ الجبال الرّواسي تشكّل خزّاناتٍ للمياه ولا شكَّ ولكنَّ الله تعالى لم يكتفِ بجعل هذه الرّواسي فوق الأرض، بل وأحدث تغييرات جيولوجيَّة ومناخيَّة خلال أربّعة أدوار زمنيَّة؛

بحيثُ أفضت إلى ظهور بركات هذه الرّواسي وفعلت فعلها في الأرض، وعلى صورة قدر الله تعالى من خلال ذلك في هذه الأرض أقواتها أيضاً، وهذا كله ما كان ليحدث بدون تخطيط وتدخل الله (الرّحمن الرّحيم).

فالباحث الذي يدقّق فيما حدث تتراءى لعينيه معالم تدخل صفة الله الرّحمانيَّة ذات العطاء دون مقابل، إلى جانب تدخل صفته تعالى الرّحيميَّة في كل شيء مخلوق وقد أضاف الله تعالى ونبّه إلى أنَّه جلّ شأنه قد حقّق الإنجازات المذكورة خلال أربّعة أدوار زمنيَّة أيضاً. وقد حقّق ذلك كله ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ بمعنى أنَّ الله تعالى لم يحصر تلك العطاءات بفئات المؤمنين بذاته عزَّ وجلّ وحدهم، بل أشاع تلك العطاءات على جميع بني نوع الإنسان.

وهكذا؛ ومن خلال هذه الأمثلة الثّلاثة التي قدّمتُها لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الأولى المعجزة التي امتاز بها هذا القرآن العظيم فإنَّ بإمكان القارئ تقصي بقيَّة العناصر التي تكوّن النّظريَّة القرآنيَّة الكونيَّة تلك العناصر التي ذكرتها في مُؤلَّفي (النّظريَّة القرآنيَّة الكونيَّة حول خلق العالم). وستلاحظ - يا عزيزي القارئ - في الوقت نفسه كيف أنَّ الله تعالى قد وضّح للقوم المُنذر في هذه السّورة المصير الذي سيؤول إليه عالمه في مكان آخر من السّورة بعينها. كما وضّح له ما سيحدث بعد زوال هذا العالم، ولماذا اختصّت الأرض بالحياة، وكيف بدأت نشأة الإنسان، و المقصد من خلقه، والفرق بينه وبين بقيَّة الكائنات الحيَّة الثّديَّة وأمثالها من العناصر الموزّعة هنا وهناك. فإنْ لم تشكّل عمليَّة توزيع عناصر موضوع ضخم كهذا الموضوع

على كثير من السّور القرآنيَّة وبما يناسب تسلسل موضوعات تلك السّور وموسيقيَّة آياتها إعجازاً إنشائياً فماذا يكون الإعجاز؟

مثال ثاني يثبت وجود هذه الخصوصيَّة:

ثمَّ إنَّ هذا القرآن العظيم قد أتى على ذكر قصص كثير من أنبياء الله عزَّ وجلَّ. وهو تعالى قد عمد في موضوع القصص القرآني إلى الخصوصيَّة نفسها، فوزّع عناصر القصة الواحدة على العديد من السّور القرآنيَّة. ولا بأس إذا اقتبست للقارئ مثالاً من القصص القرآني يثبت منه مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة أيضاً. وليكن هذا المثال من قصة آدم المتداولة على الألسن في كل مكان خطأ بتأثير قصة سفر التّكوين التّوارتيَّة.

ولكنْ؛ قبل أنْ أتناول موضوع هذه القصة أدعو القارئ ليستعيد في ذهنه معالم الزّمن الذي أنزل الله تعالى فيه هذا القرآن متضمناً قصة آدم عليه السّلام. فقد أنزله تعالى على أمَّةٍ عربيَّة يغلب على أفرادها طابع الأميَّة البعيد أهلها عن الكتابة والحساب، والتي ما عرفت بعثة نبي مرسل منذ عشرات القرون الزّمنيَّة على العرب الأميين الذين خالطهم يهود ومسيحيون وهم أهل كتاب هو (العهد القديم) وقد اشتمل السّفر الأوَّل منه على قصة آدم وحواء على أنَّهما أوَّل بشر مخلوق. خلقهما الله بأسلوب نحت التّماثيل، وأوصاهما ألا يقربا شجرة معينة. فأغوت حيَّةٌ حوّاءَ لتأكل من تلك الشّجرة، فأكلت حوّاء منها، وبدأت تظهر ظواهر معصية الله تعالى بادية على آدم وحواء، وأخذا يخصفان عليهما من شجرة الجنة ليسترا عورتيهما أمام الله الذي نحت آدم من طين ونفخ في أنفه نسمة حياة.

فالعربّ الأميون حين أنزل الله تعالى هذا القرآن المجيد كانت أذهانهم تُصغي إلى اليهود والمسيحيين وهم يروون لهم هذه القصة التّوراتيَّة المسلّية والتي هي أقربّ إلى الأساطير. فلتتساءل في نفسك: هل طرح القرآن المجيد قصة آدم على صورة صدمت أهل تلك البيئة العربيَّة التي ذكرناها؟ وهل طرح الله تعالى حقيقة تلك القصّة طرحاً يخالف صراحةً قصة آدم التّوارتيَّة؟ وما دام هذا القرآن قد نزل يتحدى العربّ الذين كانوا يتلهّون بنظم أشعار بهذه اللُّغة العربيَّة والتّفنن بالأشعار مصاغةً صياغةً بلاغيَّة، فهل صاغ الله تعالى قصة آدم بصياغةٍ لم تراع مضمون هذا التّحدي القرآني؟ وكيف كان سيوزع الله تعالى عناصر هذه القصة على سورٍ عديدةٍ وعلى شاكلة توزيعه مختلف المواضيع؟ فهذه الأسئلة جميعها لابُدَّ من أخذها بعين الاعتبار حين يورد الله تعالى قصة آدم المذكورة.

ليس هذا وحسب، بل كان ينبغي أنْ تأتي قصة آدم أوَّلاً مصحّحة لأفكار القصة التّوراتيَّة، وأنْ توضح حقيقة هذه القصة ثانياً، وأنْ تبيّن بأنَّ آدم لم يكن أوَّل إنسان مخلوق ثالثاً، بل كان أوَّل نبي مرسل من قبل الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه سيأتي من بعده أنبياء لإصلاح النّاس ولتهذيبهم وتطوير حياتهم رابعاً. وأنَّ الله تعالى كان قد أنطق آدم بأحرف هجاء لغةٍ علميَّةٍ لتتطوَّر وتبلغ أوج كمالها، ولينزل بها هذا القرآن العظيم خامساً. وكان ينبغي بيان تاريخ البشر قبل بعثة آدم مادام لم يكن أوَّل بشرٍ مخلوق سادساً. وأنَّ بعثة آدم قد أحدثت في تاريخ هذا الإنسان منعطفاً تاريخياً سابعاً. وأنْ يوضح هذا القرآن

التّعاليم المنزلة على آدم ثامناً. وأنْ يبيّن نوعيَّة تلك التّعاليم تاسعاً. وأنْ يوضّح تعالى مصير الذين آمنوا بآدم ومصير الكافرين به عاشراً.

فلو أورد الله عزَّ وجلَّ قصة آدم القرآنيَّة غير مستوفيةٍ هذه البنود العشرة التي أسلفتُ ذكرها، فتأتي ناقصة، وعليه؛ فلتنظر - يا عزيزي القارئ - كيف أورد القرآن الكريم قصة آدم عليه السّلام مستوفية جميع تلك البنود العشرة التي ذكرناها، وكيف راعى سبحانه وتعالى في الوقت نفسه البيئة العربيَّة التي عاصرت إنزال هذا القرآن المعجز، وكيف أنَّه تعالى أوردها مصاغةً بصياغةٍ تبادر منها لأذهان اليهود والمسيحيين وحتَّى للعربِ الأميّن أنَّ مضمون قصة آدم القرآنيَّة هو مضمونها الوارد في التّوراة نفسه على حين أنَّها تختلف عنها موضوعيّاً. ولتأتي الأيام بإنسان عاجز كمثلي يتدبّر صياغة هذه القصة تدبُّراً موافقاً لمنهجيَّة القرآن وأصول تفسيره، فتبدو له هذه القصة بالتّالي على حقيقتها وبوجهها الحقيقي، وليثبت بالتّالي صدق كلام ربّنا الوارد في محكم التّنزيل قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ فهيّا - يا عزيزي القارئ - تابع معي استيفاء قصة آدم القرآنيَّة لجميع ما ذكرته من أمور. وكيف وزّع تعالى هذه المقاصد العشرة على سبع سورٍ من سور هذا القرآن العظيم، وعلى صورة أخذها القارئ بعين اعتباره، وكيف أورد تعالى جميع عناصر قصّة آدم عليه السّلام على السّور السّبعة المشار إليها. وليعود بين يديه قصة آدم الذي غابت حقيقتها عن أذهان حتَّى المفسّرين القدماء بفعل تأثير القصة التّوراتيَّة المشوهة على أذهانهم والتي هي الأقربّ إلى الأساطير. وليثبت للقارئ من خلال ذلك كله وجود إعجاز حين طرح هذه القصة ما بعده من إعجاز بالإمكان مضارعته وتقليده.

ألا إنَّه كان من المنطقي جداً أنْ يدعو القرآن الكريم بني إسرائيل للإيمان بهذا الدِّين الحنيف لكونه مصداق ما أنبأ تعالى عنه في العهد القديم الذي يقدسونه. فكيف ابتدأ هذا التّوجه؟ ومن أين كان الابتداء؟ فالذي يتدبّر الآيات الأوائل من سورة البقرة، يتبيّن له أنَّ الله جلّ شأنه قد جعل قصة آدم مدخلاً لتوجُّهه المذكور، وقد نبّه في الوقت نفسه إلى أنَّه جلّ شأنه لن يورد هذه القصة مصاغةً بالمعاني الحقيقيَّة للألفاظ، بل سيوردها بصيغة المجاز والاستعارات ولسان الحال مراعاةً للبنود العشرة التي ذكرناها، ومراعاةً للشّائع منها بين الجماهير، فطرح الله تعالى هذه القصة هناك على صورةٍ يثبت منها خطأ ما تضمّنته قصة آدم التّوراتيَّة، ولكنْ؛ على صورة وضّحت حقيقة قصّة آدم عليه السّلام، وأنَّ آدم المذكور ما كان أوَّل إنسان مخلوق، بل كان أوَّل نبيٍّ بعثه الله ربّ العالمين إلى البشر بشيراً ونذيراً، وليُشَكِّل أوَّل حلقةٍ من حلقات سلسلةٍ من الأنبياء المبعوثين من بعده، وأنَّ الله تعالى كان قد أنطق آدم أيضاً بأحرف هجاء اللُّغة التي نزل بها كتاب الله العزيز، وقد صيغ ذلك كله بصياغةٍ يتبادر منها، غير المقصود منها ولا يفهَمُ مضمونها إلا الذي يتدبّرها وفق منهجيَّة وأصول تفسير آيات هذا القرآن العظيم.

وتعال معي الآن - يا عزيزي - القارئ لتصغي السّمع لتلك الآيات التي استوفت تلك الشّروط. فلقد قال الله تعالى ابتداء من الآية الثّلاثين من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ

أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ علماً بأنّي كنتُ قد شرحتُ هذه الآيات الكريمة في مُؤلّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره) وأضيف هنا فأقول:

لقد تسبَّب طغيان الأفكار التّوراتيَّة التي كانت مسيطرة على عقول العربّ الأميين ألا يدركوا للوهلة الأولى من خلال نصّ هذه الآيات الكريمة مخالفة مضامينها للموروث من قصة آدم التّوراتيَّة. فلم يتبادر منها لأذهانهم مباشرة أنَّ مضامين هذه الآيات قد سفّهت في حقيقة أمرها قصة آدم الموروثة، ووضحت حقيقة شخصيَّة آدم عليه السّلام، ونبهت في الوقت نفسه إلى أنَّ آدم كان أوَّل نبي مرسلٍ من الله تعالى، وأنَّه سيبعث الله تعالى بعده أنبياء على شاكلته لتهذيب هذا الإنسان ولتطويره. كذلك لم ينتبهوا إلى أنَّ هذه الآيات

الكريمة نبّهت أذهانهم إلى أنَّ آدم لم يكن ينطق بلغة معيّنة ، وأنَّ الله تعالى أنطق آدم بأحرف هجاء اللُّغة التي أنزل الله تعالى بها هذا القرآن المجيد زمن بعثة محمّد خاتم النّبيّين ﷺ. ومن خلال معطيات هذه الآيات الكريمة يكون الله عزَّ وجلَّ قد بيّن مَعلماً من معالم قصة آدم في هذا المقام من سورة البقرة ، وقد بيّنه على صورة تدعم في الوقت نفسه الموضوع الأساسي الذي بحثته سورة البقرة ، ويكون الله تعالى قد أبرز من خلال ما فعله معالم إعجاز هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة التي اختص بها كتابه العزيز وهو هذا القرآن الكريم.

وجاء دور سورة الأعراف بترتيب تلاوتها تدعو كل إنسان لاعتناق هذا الدِّين الحنيف الذي جاء به سيِّد المرسلين هذه التي استهلّها الله عزَّ وجلَّ شأنه بالأحرف المقطعة ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ المختزلة من أنا الله العليم الصّادق ، والتي نبّهت في الوقت نفسه إلى العاقبة التي تنتظر الكافرين بهذا الدِّين المتين ، فأدخل تعالى ضمن آياتها عنصراً جديداً من عناصر قصّة آدم عليه السّلام وبما يتناسب مع التّسلسل الموضوعيّ لسورة الأعراف ، وبما لا ينافي موسيقيَّة آياتها ، وقال ابتداء من الآية الحادية عشرة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

فلاحظ هنا ـ يا عزيزي القارئ ـ كيف أدخل الله تعالى عنصراً ثانياً من عناصر قصة آدم القرآنيَّة ضمن آيات سورة الأعراف هذه، وذلك ابتداءً من الآية العاشرة، وليوضّح من خلال ذلك لهذا الإنسان كيف أنَّ البشر خلال تاريخه الطّويل قد خضع لعمليّات تطوير كبيرة قبل بعثة آدم عليه السّلام. فقد خضع تاريخ هذا البشر لدور مرّ منه مكنه خالقه خلاله من التّعايش مع هذه الأرض وما فيها ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . ولدورٍ نمت فيه قوى هذا البشر التي كانت كامنةً فيه والتي كانت أساس تميزه من بقيَّة الكائنات الحيَّة ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ . وكيف أنَّ أفراد البشر الذين كانت طبيعتهم ليّنةً كالطّين استجابوا لآدم عليه السّلام، وكيف أنَّ أفراد البشر الذين كانت طبيعتهم ناريَّةً استكبروا ولم يستجيبوا لآدم ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ . وعليه؛ فإنَّ أصحاب الطّبيعة الطّينيَّة هم المؤهّلون لتقبّل تعاليم الدِّين، على حين أنَّ صاحب الطّبيعة النّاريَّة سيكونون من الكافرين. وأنَّ الكافر سيسعى لمحاربّة الفريق الأوَّل بجميع ما أوتي من قُوَّة وأسباب وهي دلالة قول إبليس ﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ .

وكان الله عزَّ وجلَّ يورد هذه الحقائق التّاريخيَّة بمعانٍ مجازيَّة وبلسان الحال. وقرينة ذلك أنَّه لا يعقل أنْ يفسح الله تعالى لكافرٍ مجال التّشرف بلقائه ومحاورته كما فعل مع إبليس. وعلى هذه الصّورة يكون الله عزَّ وجلَّ قد أفلح في إدخال العنصر الثّاني من عناصر قصة آدم ضمن آيات سورة

الأعراف وفي المكان الذي دعّم بواسطته تسلسلها الموضوعي، وحقق بذلك هذه الخصوصيَّة التي اختصَّ بها كتابه العزيز، وقد فعل ذلك كلّه بإعجاز ما بعده من إعجاز.

وبما أنَّه كان في علم الله الغيبي أنَّ علم المستحاثات مقدرٌ له أنْ يظهر على أيدي أعداء هذا الدِّين الحنيف، فقد راح الله جلّ شأنه يتوسع في عنصر ثالث من عناصر قصة آدم القرآنيَّة، وذلك بما يتناسب وتسلسل موضوع سورة الحجر، فأدخل فيها هذا العنصر الثّالث وذلك ابتداءً من الآية السّادسة والعشرين، وبما يتناسب مع التّسلسل الموضوعيّ لسورة الحجر هذه، وبما لا يُخلّ بموسيقيَّة آياتها أيضاً، فقسّم هناك تاريخ هذا الإنسان بنفس التّقسيم الذي قسمه به علماء علم المستحاثات، وذلك من خلال قوله تعالى هناك ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. كما قسّم حياة هذا الإنسان إلى بشرٍ قديم عاش طيلة ملايين السّنين في الكهوف، فسمّاه الجان وقال ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ كما قسّم البشر إلى إنسانٍ تهذّب على أيدي آدم الذي أخرج البشر من كهوفهم ونقلهم نقلةً نوعيَّةً تاريخيَّةً ومعبّراً عن ذلك بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. وقد أورد الله جلّ شأنه كل ذلك بصيغٍ مجازيَّةٍ وبلسان الحال أيضاً، وذلك بقرينة هذا الحوار الوارد في هذه الآيات الكريمة ما بين الله تعالى وما بين أبليس. هذا الحوار الذي يستحيل حدوثه على بساط الواقع. فإبليس ملعونٌ، والملعون معناه أنّه مبعدٌ عن خالقه ومحرومٌ من لقاء ربّه ومن محاورته، ثمَّ إنَّه بلسان الحال نفسه قد أنبأ الله تعالى في سورة الحجر هذه عن عاقبة الذين لا يقبلون هذا الدِّين ويقومون بمحاربته. ومن خلال

هذه الآية الأخيرة من آيات قصة آدم والتي قال فيها ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وبما تضمّنته من حقائق أثبت مصداقيّتها منطق تاريخ الأديان أنّهى الله جلّ شأنه العنصر الثّالث من عناصر قصة آدم القرآنيّة الذي أورده في سورة الحجر، هذا العنصر الذي أكمل بواسطته مضمون العنصر السّابق الوارد في سورة الأعراف، وحقّق تعالى بذلك إعجازاً ثالثاً امتازت به خصوصيَّة كتابه العزيز هذا القرآن الكريم.

وبعد أنْ ألقى الله تعالى حجّته على قوم اليهود والنّصارى، وذلك بأنَّ أبرز التّعاليم الإسلاميَّة في مقابل تعاليمهم التي نسخها القرآن المجيد، فقد خصص الله تعالى سورة الإسراء التي استعرض فيها تاريخ اليهوديَّة وأدوارهم التي مروا فيها، وسمىّ شجرة نسب اليهود بالشّجرة الملعونة، وذلك وفق معطيات مضمون سورة الإسراء الآية 60 التي قال فيها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ - تفسير في ظلال تفسير سورة الإسراء - وقبل أنْ ينبئ الله تعالى عن مصير اليهود الأخير المحتوم، فقد راح تعالى يذكّرهم بعنصر جديد من عناصر قصة آدم، لتعلّق هذا العنصر بهذا المصير الذي ينتظر اليهود والنّصارى معاً، وقال جلّ شأنه في سورة الإسراء هذه ابتداءً من الآية (61): ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً

مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ فبهذه الصّياغة البلاغيَّة، وبهذا الأسلوب المجازي وبلسان الحال بقرينة أنَّ الله تعالى لا يشرّف إبليس بلقائه ولا بالحوار معه، فقد توعّد الله تعالى هؤلاء اليهود بإهلاكهم ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مشيراً بواسطته إلى الواقعة التي ستقع وتشبه أحداثها أحداث يوم القيامة، وهذا ما دعا الله تعالى ليقول في الآية **104** وقبل أنْ يُنهي سورة الإسراء: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ فأشار من خلال مضمون هذه الآية الكريمة إلى ما يجري من أحداث في هذه الأيام. وبذلك يكون الله تعالى قد أتى بهذا العنصر من عناصر قصة آدم بإعجازٍ ما بعده من إعجاز، وبهذه الخصوصيَّة التي امتاز بها كتابه العزيز، وهو هذا القرآن العظيم.

ومن ثمَّ أتى الله جلّ شأنه بسورة الكهف، فتناول فيها موضوع إنذاره الموجّه إلى المسيحيين، فألقى ضوءاً من خلال هذه السّورة على تاريخ المسيحيين، وعلى الأطوار التي مرّوا بها، حتَّى إذا وصل عند الآية الخمسين، فقد راح جلّ شأنه يذكّر هؤلاء المسيحيين بقصة آدم، وكيف أنَّهم سيمثّلون دور ذريَّة إبليس زمن نهضتهم الأخيرة التي نعاصرها في زماننا هذا في أوروبة وأمريكة، علماً بأنَّ مسيحيي الشّرق البعيدين عن تلك الحضارة الغربيَّة التي تتنافى أسسَّها مع ما يلتزم به المسيحيّون في الشّرق من مبادئ وقيم مسيحيَّة نابعة من الأناجيل المعاصرة قد أثبتوا بصورة عمليَّة أنَّهم عربٌ قوميّون،

ويُشَكِّلون جُزءاً لا يُجتزأ من هذا المخاض الذي تخوضه الأمَّة العربيَّة . وقال الله تعالى هناك : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ وقد نبّه الله تعالى المسيحيّين الغربيّين أصحاب هذه الحضارة الغربيَّة المعاصرة التي لا تمتّ للتّعاليم المسيحيَّة الحقيقيَّة إلا بالاسم والتي لا يقبلها مسيحيّوا الشّرق ، أقول بأنَّ الله تعالى نبّه أولئك في كتابه العزيز ومن خلال معطيات هذا العنصر الجديد من عناصر قصة آدم إلى أنَّ هؤلاء المسيحيين الغربيّين سيمثلون في نهضتهم الأخيرة المعاصرة ذريَّة إبليس الذي كان قد فسق عن أمر ربّه ، وأنّهم سيلتهون بشغفٍ كبير بالبحث عن سر خلق السّموات والأرض وخلق هذا الإنسان . فأنبأ تعالى هناك وبصيغة الماضي التي تفيد معنى الجزم بأنّهم لن يفلحوا في بحوثهم المذكورة بشكلٍ قاطع ، سيكتفوا بوضع نظريات ليس إلا . وأخبر الله تعالى بأنّه ما كان من شأنه أنْ يعضد المضلين وقال ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ . وبذلك يكون الله جلّ شأنه قد أتى بهذا العنصر من قصة آدم بالصّياغة نفسها ، وبالأسلوب نفسه ، وفي المكان المناسب لها والمتلائم مع تسلسل آيات سورة الكهف الموضوعي ، وبإعجازٍ ظاهرٍ ما بعده من إعجاز .

وبما أنَّ هؤلاء المسيحيين وخلال نهضتهم الأخيرة سيحاولون المستحيل للقضاء على الإسلام ، فقد خصص الله جلّ شأنه سورة (طه) ، وذلك ليطمئن رسوله الكريم ، فخاطبه في مستهلّ هذه السّورة بكلمة اشتهر

العرب باستعمالها وهي كلمة (طـه) والتي تعني أيها السَّيِّد العظيم الطّاهر والهادي وقال ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ إلـى أنْ قـال ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ ومن ثمَّ قال ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ وقد راح الله تعالى يتوسع في موضوع قصة موسى الذي تنتسب إليه هذه الأقوام المسيحيَّة الغربيَّة ، إلى أنْ أنبأ عن الزّمن الذي سيقضي الله تعالى فيه عليهم وقال ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ومن ثمَّ وبعد أنْ أعطى الله تعالى هذا القارئ علامات تتعلّق باليوم المذكور أورد هناك عنصراً جديداً من عناصر قصة آدم عليه السّلام ذكرّ الله تعالى من خلاله هؤلاء المسيحيّين بالحقوق الأساسيَّة للإنسان والتي أتت بها شريعة آدم . من خلال آيتين فقط (118 ـ 119) قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ ونبّه بعد ذلك بأنَّ وسوسة الشّيطان هي التي أبعدت آدم عن العمل على هذه الحقوق ، وبصياغة بلاغيَّة وبعبارات مجازيَّة الدّلالات وبلسان الحال ، فأتى سبحانه بفاء الاستئناف وقال ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ وهكذا يكون الله تعالى قد أورد هنا هذا العنصر الجديد من عناصر قصة آدم عليه السّلام وتطميناً من جانبه تعالى رسوله الكريم بأنَّ التّاريخ يعيد نفسه ، لذلك نلاحظ كيف أنّهى الله تعالى سورة (طه) بقوله

تعـــالى: ﴿قُلۡ كُلٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ وبذلك يكون الله تعالى قد أورد هـذا العنصـر بما يتناسب وتسلسل السّورة الموضوعي وبإعجاز ما بعده من إعجاز.

وليلاحظ القارئ كيف أنَّ الله جلّ شأنه أتى بعد ذلك بسورة ص والتي أقسم في بدايتها وقال: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ والمعنى أنَّ الله عزَّ وجلَّ صادق فيما يوجّهه إليكم من خطاب ويقول لكم: يكفيكم يا من زعمتم أنَّ الله تعالى اتَّخذ ولداً أنْ تروا بأنَّ هذا الوحي النّازل على محمد ﷺ في مكة سيتخذ شكل كتاب مقروءٍ في كل مكان، وتساعد تعاليمه هذه الأمَّة العربيَّة الأميَّة على النّهوض من تخلفها، ويكتب لها العزَّة والشّرف في العالم بأسره. وأنَّكم يا مَنْ تكذبون هذا الكتاب العزيز ستراتاحون ما بين عزةٍ وما بين شقاق. ومن ثمَّ ذكرهم بنبيهم داود وبالله الذي استخلفه واستخلف من بعده سليمان. ومن ثمَّ لفت أذهانهم وقال ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ۝٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وبعد أنْ أمر الله عزَّ وجلَّ رسوله الكريم وقال ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ ونقض تعالى من خلال إيتائه بصفة (الغفار) عقيدة الكفارة التي ابتدعها المسيحيّون. وراح بعدها يأتي بنبأ عظيم يتعلّق بهؤلاء الذين اتَّخذوا لله ولداً، وقد مهّد لهذا النّبأ العظيم بإيراد العنصر الأخير لقصة آدم عليه السّلام. هذا العنصر المترتب على قول إبليس

وبلسان حاله ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ والذي قال تعالى رداً عليه وبلسان الحال أيضاً ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فأتى الله جلّ شأنه بما أقسم عليه إبليس وبلسان حاله؛ حيثُ قال ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فأقر إبليس بلسان حاله أنّه وذريته سيناصبون رسل الله تعالى والمؤمنين بهم العداء باستمرار وعلى الدّوام. واستثنى الله تعالى وبلسان حال إبليس العباد المؤمنين الذين آمنوا واتقوا وكتب لهم ربّهم الخلاص من نزغ هذا الشّيطان.

وبعد أنْ أدخل الله عزّ وجلّ هذا العنصر الأخير من قصة آدم عليه السّلام في هذا الموضع المناسب من هذه السّورة المستهلّة بالحرف المقطّع ص والذي يعني (إنَّ الله تعالى صادق فيما أنبأ به عن هذا القوم الذي اتّخذ أفراده لله تعالى ولداً). فقد راح تعالى يبيّن مضمون هذا النّبأ المشار إليه في الآيات الأواخر من هذه السّورة وقال: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وبذلك يكون الله تعالى قد أنبأنا عن عاقبة هذا المسيح الدّجال وعن عاقبة جميع من اتبعه من أفراد وجماعات الأمم الأخرى. وهو تعالى حين نبّه من خلال الآية الأخيرة وقال ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾، فقد أشار إلى أنَّ هذا النّبأ العظيم لا يتعلّق بأهل البعثة الأولى للإسلام وأعدائها. بل يتعلّق بأهل البعثة الثّانية للإسلام وأعدائها. أي بما يتعلّق بما يحدث في هذا الزّمان.

وأخيراً؛ أرى أنْ أكتفي ببيان هذين المثالين التي حاولتُ من خلالهما إثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الأولى التي اختصّ الله تعالى بها صياغة هذا القرآن العظيم، الذي قام تعالى فيه بتوزيع عناصر الموضوع الواحد الذي شاء أنْ يبيّنه على سورٍ عديدة منه، وبإعجازٍ يستحيل على أحد من الإنس والجن مضارعته والقيام بمثل هذا التّوزيع الذي يحقّق غرضين اثنين: **الغرض الأوَّل** هو عدم الإخلال بالتّسلسل الموضوعي للسّورة التي ورد فيها العنصر المطلوب بيانه فيها، **والغرض الثّاني** أنَّه جلّ شأنه يدفع بهذا المؤمن ليتدبر آيات كتاب الله العزيز وهو يتقصّى عناصر الموضوع الذي يريد الكتابة فيه، وليقوم بجمع هذه العناصر وبترتيبها موضوعيّاً، وليخرج منها بكتاب مستقلّ وعلى شاكلة ما أفعله أنا شخصيّاً في هذه الأيّام؛ حيثُ أتقصّى عناصر الموضوع الذي أريد الكتابة حوله تلك العناصر التي كانت متداخلة بين آيات مختلف سور هذا القرآن وبشكل معجزٍ ما بعده من إعجاز.

هذا العمل الذي يزيد من هذا الإعجاز الذي تضمّنته هذه الخصوصيَّة الأولى إعجازاً على إعجازها. هذا علماً بأنَّ الله تعالى حين يورد العنصر العائد لأي موضوع كان يصيغه بصياغةٍ تتناسب وصياغة الآيات من حوله. وعلى صورة لا تخلّ بترتيل تلك الآيات، ولا تخلّ بوقع موسيقاها في الآذان والأفئدة.

الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّانية:

ما يتعلّق بتشكيل القرآن المجيد

وبأسلوب الملاحظة العلمي نفسه الذي عمدنا إليه للإحاطة علماً بالخصوصيَّة الأولى من خصائص هذا القرآن الكريم المعجزة، فإنَّنا نلاحظ أنَّ لهذا الكتاب المقدس خصوصيَّة ثانية لها صفة الشّكليَّة، وتقوم على أربعة أركان أُسِّست عليها تقسيمات هذا القرآن الكريم إلى آيات وتنقيط ما بينها.

ولا أزيد المؤمن علماً إذا ذكّرته بأنَّ هذا القرآن المجيد قد اشتمل على 114 سورة ما بين سورة طويلة وسورة قصيرة، وأنَّ كل سورة تشتمل على عدد متفاوتٍ من الآيات الكريمة، ويفصل بين الآية والآية نقطةٌ يرسمها طابعوه على شكل نجمة وعلى صورة تصبح ألفاظ آياته مهجّاةً وعليها علامات وقفٍ وغيرها من العلامات.

هذا؛ وإنَّ كلامي في موضوع الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّانية يعود أصلاً إلى هذه الشّكليات التي وردت متميزةً عن شكليات مُؤلَّفات الكُتَّاب والأدباء، وتتّصف أيضاً بصفة الإعجاز. فما هي معالم هذه الخصوصيَّة الثّانية؟ وأين نواحي إعجازها؟

الأدلة الضمنية التي تثبت حقيقة الشكليات:

ألا إنَّ الإنسان الذي يطالع ما كتبه ويكتبه ممثلو أتباع موسى وعيسى عليهما السّلام من تعليقات بشأن هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة، ويطالع معها آراء المستشرقين بشأنها، يلاحظ بأنَّ الفريق الأوَّل ينسب ظاهرة الشّكليَّة هذه إلى تأثرها بشكليات العهد القديم. أمَّا المستشرقون فلهم وجهات نظرٍ أخرى، وأنا لست بصدد إيراد ما يرتؤونه في هذا المقام. ذلك لأنّي أنطلق في موضوع فهم هذه الشّكليَّة القرآنيَّة من منطلق أدلّة ضمنيَّة اشتملت عليها آيات هذا القرآن الكريم نفسه، وبذلك تكون قد شكّلتُ للباحث ووضعتُ في يديه أدلَّة تسمّى (أدلّة ضمنيَّة).

الدليل الضمني الأول: وعلى سبيل المثال؛ فالمعلوم تاريخياً أنَّ الإسلام في المرحلة المكِّيَّة لم تكن معالمه قد اكتملت بعد وهو في السّنوات الأولى من تلك المرحلة الحرجة، وإنَّ ما كان يُشَكِّل جزءاً من إيمان أصحاب رسول الله ﷺ هو ما كان قد أنزله الله جلّ شأنه فيما أنزل من سورٍ قرآنيَّة. فمن جملة تلك السّور التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ في تلك المرحلة المكِّيَّة سورة الحجر وسورة القيامة.

فإنَّ دقق الباحث نظره فيما اشتملت عليه سورة الحجر من آيات تمرّ من تحت عينيه الآية الثّامنة والتّاسعة التي قال تعالى فيهما: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ وتعني هاتان الآيتان بألفاظ أخرى أنَّ القرآن الكريم هو (الحق) الذي كانت تتنزّل به ملائكة الله تعالى في مكة المكرّمة وفي المدينة المنوّرة. وقد وصف الله تعالى آيات هذا القرآن الكريم الواردة في هاتين الآيتين بكلمة (ذكراً) أي أنَّ

جميع ما اشتملت عليه تعاليم هذا القرآن الكريم ستُؤدِّي لرفعة الذين يؤمنون به ويعملون على تعاليمه. وفي الآية الثّانية فقد أعلن الله جلّ شأنه بألفاظٍ صريحة أنَّه يعد رسوله الكريم بالمحافظةِ على هذا الوحي القرآني. وعلى هذه الصّورة تكون هاتان الآيتان قد أوردتا أوَّل دليل ضمني تضمّنته الآيات من سورة الحجر تلك التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ في أحلك الأيام العصيبة التي مرّ بها محمّد ﷺ وأصحابه في مكة المكرمة يوم كان كل ما يكتبه كتّاب الوحي من رقاع الوحي القرآني معرضاً للضّياع إذا ما هاجم رعاعُ قريش البيت الذي كانت تكدّس فيه تلك الرّقاع.

والذي حدث بعد إنزال تلك الآيات التي تضمّنت الدّليل الضّمني المشار إليه هو أنَّ جميع الصّحابة هاجروا من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، وبما فيهم رسول الله ﷺ نفسه، ومع ذلك فقد ظلّت رقاع القرآن التي دوّنت عليها آيات السّور المكِّيَّة في أمان مِصداقاً لمضموني هاتين الآيتين المذكورتين من سورة الحجر.

الدليل الضمني الثاني: ونتوجّه إلى سورة القيامة التي كان قد أنزلها الله تعالى في تلك السّنوات الحالكة في مكة المكرمة أيضاً، فنقوم بتدقيق ما ورد ضمن آياتها الكريمة، فنلاحظ بأنَّ الله تعالى قد أعلن في الآيات (16 ـ 17 ـ 18 ـ 19) منها وبألفاظ صريحة أيضاً وعداً وعد بواسطته رسوله الكريم محمّداً ﷺ وقال ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فإنْ نحن تدبّرنا مضامين هذه الآيات الأربعة سالفة الذّكر يتبيّن لنا اشتمالها على

وعدين إلهيّين: الأوَّل أعلن أنَّ عمليَّة جمع رقاع الآيات القرآنيَّة وإعطاءها ترتيب تلاوتها الذي هو بين أيدينا كان قد ورد وعداً إلهياً صريحاً في هذه الآيات من سورة القيامة التي أنزلها الله تعالى في مكة المكرمة وقبل وفاة رسول الله ﷺ بعقدٍ ونصف من الزّمان. وقد شكّل هذا الوعد المشار إليه (دليلاً ضمنياً ثانياً) يؤكّد مصداقيَّة ما قام الله عزَّ وجلَّ بتحقيقه على يدي الخليفة الثّالث عثمان بن عفان ﷺ، ومصداق ما وعد به من خلال قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ هذا الوعد الإلهيّ المؤكّد بحرف التّأكيد (إنَّ) الذي استهلّ به الوعد المذكور.

وليس هذا وحسب، بل إنَّ الله جلّ شأنه شرع يحقّق وعده الثّاني الوارد في هذه الآيات الأربعة، والذي تضمّنه قوله تعالى فيها قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أقول قد شرع هذا الوعد الثّاني يتحقّق، وذلك بواسطة هذه البعثة الإسلاميَّة الثّانية التي ابتدأت ببعثة المجدِّد الموعود ببعثته (آخر الزّمان). ذلك أنَّ الحرف (ثمَّ) الوارد في مستهلّ هذا الوعد الثّاني يفيد التّرتيب. وإنَّ قوله تعالى: (عَلَيْنَا) فيه مماثلة لقوله تعالى من قبل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وعليه؛ فكما أنَّ كلمة (عَلَيْنَا) الأولى قد تحقَّقت بما تمَّ من توفّر أسباب غيبيَّة على يدي عثمان بن عفان، فإنَّ كلمة (عَلَيْنَا) الثّانية تتحقّق بتوفّر هذه الأسباب على يدي مجدّد آخر الزّمان وأتباعه. فالأسباب الماضية كانت بتدبير غيبيٍّ حقَّق جمع القرآن وقرآنه. وهذا الذي يحدث في أيّامنا هذه هو تدبير غيبيٌّ أيضاً يتعلّق بتحقيق الوعد الثّاني المُتعلِّق ببيان المضامين الحقيقيَّة لآيات هذا القرآن المجيد. وعليه؛ فلا يهمّنا ما يقوله أتباع موسى من يهود

ومسيحيين، ولا تهمُّنا آراء المستشرقين أيضاً في هذا المجال، لكونها تخالف واقع هذا القرآن المجيد. ولأنَّنا ننطلق في نظرتنا وتدقيقنا إلى شكليَّة هذا القرآن المجيد الذي هو بين أيدينا ومن منطلق الدّليلين الضّمنيين اللّذين أتيت على ذكرهما، وهما دليلان لا ينفع في مواجهتهما تخمين ولا ظنّ مهما اتّصف بصفة المنطقيَّة والعقلانيَّة من حيثُ ظاهره.

أُطر وأركان الخصوصيَّة الثانية:

فهذه الحقيقة التي أتيتُ على ذكرها تخثني لأقدّم ظاهرة الشّكليَّة التي اتَّخذها هذا القرآن المقدس والمبارك وبأركانها الأربّعة التي سأحدّثكم عنها، أقدّمها بمثابة خصوصيَّة ثانية من خصوصيات هذا القرآن المجيد والصّالح كل ما تضمنه من تعاليم لكل زمانٍ ومكان، فما هي أطر هذه الخصوصيَّة الثّانية؟ وما هي أركانها الأربّع المعجزة التي قامت عليها؟ فهذا ما سأحدّث به قارئي العزيز في الإجابة عنه.

فليلاحظ القارئ بادئ ذي بدء ما كان يكتب على الصّفحة الأخيرة المطبوعة من نسخ هذا القرآن الكريم. كان يكتب (أُخذ هجاء هذا القرآن الكريم ممَّا رواه علماء الرّسم عن المصاحف التي بعث بها عثمان بن عفان إلى البصرة والكوفة والشّام ومكة، والمصحف الذي جعله لأهل المدينة، والمصحف الذي اختص به نفسه، وعن المصاحف المنتسخة عنها.) ويدلّ هذا الكلام على أنَّ هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا بتقسيماته وتهجيته وتنقيطه وبترتيب تلاوته هو نفسه وطبق الأصل عن المصحف الذي حقّق الله تعالى من خلاله عمليَّة (جمعه وقرآنه) على يدي الخليفة الثّالث عثمان بن

عفان ﷺ بمعنى أنَّ الله تعالى الذي وعد رسوله الصّادق الأمين محمداً ﷺ أنْ يحافظ عليه من غدر أعدائه وما يحيكونه ضدّه من مؤامرات والذي وعده بفتح مكة وإعادته إليها والذي قدّر على أياديه العديد من المعجزات ووفى بوعوده هذه جميعها معه. ووفّى بوعده القائل ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ ووعده القائل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فبركات تلك الوعود الإلهيَّة جميعها جسّمت في أعيننا هذا القرآن العظيم الذي هو بين أيدينا اليوم وعلى وجه الكمال والتّمام، فإنْ نحن استقرأنا شكلياته وما تبعها من أركان وبأسلوب علمي نكون قد انطلقنا في ذلك انطلاقة صحيحة.

ظواهر الخصوصيَة الثانية:

وبعد هذه المقدّمة التي قدّمتُها لبيان هذه الخصوصيَّة الثّانية، أدعو القارئ الكريم ليدقّق معي هذه الفوارق التي تميز بها هذا الكتاب المقدس عما هو معروف من مُؤلَّفات الأدباء والكُتَّاب. فعلى حين يلاحظ هذا القارئ أنَّ الكتّاب الأرضيّين يُعنونون كُتُبهم بعناوين كبيرة، ليكشفوا من خلال ذلك بها عن مضمون كل فصل من الفصول التي اشتملت عليها مُؤلَّفاتهم، فإنَّ هذه الظّاهرة مفقودة تماماً في هذا الكتاب المقدس الذي يحمل اسم (القرآن). كما يلاحظ القارئ أنَّ سور هذا القرآن قد استبدلت عناوين فصول كُتُب الأدباء (بأحرف مقطعات) تُستهَلُّ بها بعضُ السّور، ولا تستهلُّ بها سورٌ أخرى. فهذا هو أوَّل فارقٍ أو أوَّل ركنٍ من أركان شكليَّة هذا القرآن العظيم الذي يختلف به عن كُتُب الأدباء.

ثمَّ إنَّ للأديب أسلوبه الإنشائي الذي يعمد إليه، ولا يحيد عنه حتَّى نهاية مُؤلَّفه، على حين أنَّنا إذا دقّقنا في كل سورةٍ من سور هذا القرآن المجيد، نلاحظ ما يخالف هذه الظّاهرة. فقد عمد الله تعالى في السّورة الواحدة إلى أكثر من أسلوب إنشائي. وقد تعدّدت تلك الأساليب الإنشائيَّة هنا وهناك، حتَّى عاد القارئ يحار بين وقعها في نفسه ووقع موسيقتها في نفسه أيضاً. وهذا ثاني فارقٍ أو ثاني ركنٍ من أركان شكليَّة هذا القرآن العظيم.

كذلك فإنَّ الكاتب والأديب لا يهتمّ بتنقيط ألفاظ كتابه ولا يضع رموزاً وإشارات فوق ما يكتبه، على حين أنِّي نقلت للقارئ ما يكتب على الصّفحة الأخيرة من هذا الكتاب المقدس وهو (أُخذ هجاؤه ممَّا رواه علماء الرّسم عن المصاحف التي بعث بها عثمان بن عفان إلى البصرة والكوفة والشّام ومكة والمصحف الذي جعله لأهل المدينة والمصحف الذي اختص به نفسه وعن المصاحف المنتسخة منها) بمعنى أنَّ هذا القرآن الكريم كان مهجَّى ومنقّطاً من اللّحظة الأولى التي كان ينزل بها جبريل بآيات هذا القرآن المجيد على قلب محمد رسول الله ﷺ، وكان هذا التّنقيط يُرسَم على تلك الرّقاع التي كان يكتبها كُتَّاب الوحي العشرة المعروفون. فهذا هو ثالث فارقٍ أو ثالث ركنٍ من أركان شكليَّة هذا القرآن العظيم.

وقد تميز هذا القرآن بإشارات الوقف خاصَّةً التي يواجهها القارئ في السّورة الواحدة هنا وهناك، وتميّز بها عن مُؤلَّفات الكُتَّاب والأدباء، تلك المُؤلَّفات التي تخلو من مثل هذه الظّاهرة. فهذا هو رابع فارقٍ أو رابع ركنٍ من أركان شكليَّة هذا القرآن العظيم.

الخصوصيَة الثانية وظواهر إعجاز أركانها:

والآن، وبعد أنْ استعرضتُ لقارئي الكريم تلك الأركان الأربعة التي قامت عليها هذه الخصوصيَّة الثّانية من خصوصيات القرآن المجيد. تراني أتناول واحدةً تلو أخرى من تلك الأركان، وملفتاً نظر القارئ إلى ناحية الإعجاز التي تميزت بها تلك الأركان الأربعة التي لفتُّ نظره إليها آنفاً.

وقد سبق لي أنْ قلتُ إنَّ الله عزَّ وجلَّ بدلاً من أنْ يورد لكلّ فصل من فصول كتابه العزيز عناوين كبيرة، فقد خالف هذا المتعارف عليه بين الكُتَّاب والأدباء، فأتى بأحرف مقطعات بدلاً عنها. فأدهش بذلك جميع الأدباء والكُتَّاب، وتركهم في حيرة منه، وحتَّى مَنْ جاء من المفسّرين القدماء الذين لم يفهموا هذه الأحرف المقطّعة على حقيقتها، فاختلفوا في أمرها، ولينتهي كلّ واحد منهم، وبعد أنْ يُدلي برأيه في موضوع أحرف المقطّعات، فيقول (والله أعلم بمراده).

وهذه الحقيقة وضَّحتُ أبعادها في مُؤلَّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) الذي استندتُ فيه إلى أقوالٍ وصلتنا عن رسول الله ﷺ نفسه، واستنادا إلى تاريخ فنّ الاختزال نفسه الذي كان الشّعراء يتغنّون به، ويفتخرون في اللُّغة العربيَّة من أنَّ هذه المقطعات ما هي إلا تمثُّل فنّ الاختزال المشار إليه، وأنَّ لهذا الفنّ قواعد لاختزال كل حرفٍ من حروف كلمة من الكلمات. وأثبتُّ في المُؤلَّف المذكور مصداقيَّة وعد ربّنا عزَّ وجلَّ القائل ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ . هذا الوعد الذي أنبأ عن أنَّه تعالى سيهيئ من الأسباب في يومٍ من الأيام ما يساعد على حل هذه الأحرف المقطّعة (راجع ص 42)

والتي عسر فهمها على المتدبّرين القدماء. وهل عاد كلّ مَنْ طالع (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) يتساءل في نفسه عن حقيقة مضامين هذه المقطعات بعد قراءته ومطالعته للمُؤلَّف المشار إليه؟

ظاهرة الركن الأول:

وبألفاظٍ أخرى؛ فإنَّ هذا الرّكن الأوَّل لشكليَّة هذا القرآن الكريم قد اعتمد على اختزال أحرفٍ أو على اختزال حرفٍ واحدٍ من عنوان الفصل أو عنوان السّورة التي يوردها. ومتحدياً في الوقت نفسه شعراء الجاهليَّة الذين كانوا يتفاخرون بفنّ الاختزال نفسه في أشعارهم. وقد أتى الله تعالى بهذا الفنّ على مستوى يعجز الإتيان بمثله أي شاعر أو أديب. وبدليل أنَّ هؤلاء جميعهم عجزوا عن فهم هذه المقطعات. وبذلك يكون هذا الرّكن الأوَّل من أركان شكليَّة هذا الكتاب المقدس قد أتى على صيغة معجزةٍ في حدّ ذاته. وليثبت بالتّالي مصداقيَّة إعجاز خصوصيات هذا القرآن العظيم. وأترك للقارئ فرصة مطالعة (فنّ الاختزال) ليحيط علماً بصورةٍ جيّدة بما ذكرتُهُ له آنفاً.

ظاهرة الركن الثاني:

ونأتي صوب الرّكن الثّاني من أركان هذه الخصوصيَّة الثّانية، هذا الرّكن المُتعلّق بتنوع الأساليب الإنشائيَّة الواردة في هذا الكتاب المقدس، هذا القرآن الذي خالف الله جلّ شأنه من خلاله ما تعارف عليه الكُتَّاب والأدباء. فننظر في نواحي ما تضمّنته هذه الأساليب الإنشائيَّة من تنوّع معجز.

نتناول موضوع صياغة الدّساتير والقوانين الأرضيَّة ، فالمعروف هو أنَّ صياغة الدّساتير الأرضيَّة يقوم بها رجال مختصّون . فإذا صاغوا عدداً من تلك النّصوص يُدرجونها ؛ بعضها وراء البعض الآخر قائلين : (المادَّة الأولى) ، فالمادَّة الثّانية ، فالثّالثة ، وهكذا إلى نهايتها . ومع مضي الزّمن وتراكم التّجاربّ المستندة إلى تراكم الأخطاء التّطبيقيَّة ، ومع ظهور متغيرات زمنيَّة جديدة ، فإنَّ واضعي تلك الدّساتير يعدّلون في نصوصها وبما يتناسب والمستجدات الطّارئة عليها . فهذه ظاهرةٌ أرضيَّةٌ تلاحظ فيما يضعه الإنسان من دساتير وقوانين . فنسأل هنا : هل قسّم هذا القرآن المجيد آياته بهذا التّنوّع إلى آيات ذات معطيات دستوريَّة وإلى آيات ذات معطيات قانونيَّة؟

فأجيب أنا عن هذا السّؤال وأقول : إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخالف الكُتَّاب المختصّين على هذا الصّعيد ، فهو جلّ شأنه سنّ مواداً دستوريَّة لكلّ حُكْمٍ تطرَّق لبحثه ، وحتَّى إنَّه تعالى قد سنّ للعبادات وتعاليمها مواد دستوريَّة أيضاً ، ولكنه سنّ كلّ تلك المواد الدّستوريَّة بصياغةٍ اختلفت في إنشائيتها وبترتيبها عن إنشائيَّة الدّساتير الأرضيَّة ، فأوردها جلّ شأنه على تسلسلٍ إيقاعي غير معهود ، وبصياغةٍ لا تقبل التّغيير والتّبديل . وإلى القارئ ما سنّ الله جلّ شأنه من مواد دستوريَّة بشأن العبادات على سبيل المثال .

ففي الآيات الأولى من سورة البقرة يطالع القارئ قول ربّه عزَّ وجلَّ وهو يقول : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

فالذين طالعوا هذه الآيات الكريمة منذ أربعة عشر قرن من الزّمان لم نلحظ أنَّ أحداً منهم قد انتبه إلى أنَّ هذه الآيات الكريمة وردت مصاغةً بصياغةٍ دستوريَّة. والسّبب في ذلك يكمن في مخالفة شكلياتها لما تعارف عليه واضعو النّصوص الدّستوريَّة من شكليات. أمَّا الحقيقة، فهي أنَّ هذه الآيات الكريمة هي عبارة عن نصوص دستوريَّة تشمل جميع العبادات التي أتى بها هذا القرآن المجيد. وقد صيغت صياغةً إنشائيَّةً مغايرةً للصّيغ المعروفة من الدّساتير والمعروفة بترتيبها الإنشائي. وبذلك تكون نصوص هذه الآيات سالفة الذّكر قد وردت على مستوى الإعجاز القرآنيّ أيضاً، لذلك نتساءل في سرّنا عن معالم هذه الصّياغة الدّستوريَّة التي صيغت بها هذه الآيات سالفة الذّكر؟

أقول: إنَّ من مميزات هذه النّصوص القرآنيَّة الدّستوريَّة أنَّها صيغت بمعاني عامة الدّلالات وشاملة. فلم يرد فيها أيّ تخصيصٌ كالذي يرد في المواد القانونيَّة. فإنْ دقَّق القارئ الكريم نظره فيما أوردته له آنفاً من آيات كريمة، فسيلاحظ وجود هذه الحقيقة وهي عموميَّة دلالاتها وعدم تخصيصها. فالإيمان بالغيب يخلو من أيّ تخصيص بغيبٍ معين. وإنَّ قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نصٌّ دستوري أورد الصّلاة بمعناها اللُّغويّ الشّامل، وهو الدّعاء، وهو خال من التّخصيص. وقد وضّحتُ في مُؤلَّف (الله جلّ شأنه) كيف أنَّ الغرض من الصّلاة ومعها النّوافل والأدعية المسنونة

فيها أنَّ جميع ذلك نابعٌ من هذا النّصّ الدّستوري وهو قوله تعالى ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ . وبذلك يكون الله عزَّ وجلَّ - إنْ صحّ رأيي - قد استغنى عن الاصطلاح القائل : المادَّة الأولى والمادَّة الثّانية ، واستبدله بواو العطف الدّاخلة على الفعل المضارع والتي تفيد في هذه الحالة معنى الحال . وبذلك يكون الله جلّ شأنه قد أحدث بواسطة عمليَّة هذا الاستبدال إعجازاً إنشائياً في موضوع صياغته لهذه النّصوص الدّستوريَّة أدهش من خلاله المفكّرين الإسلاميين أنفسهم ، الذين راحوا يتنازعون الرّأي ، فمنهم مَنْ يدخل هذه الآيات في الآيات المحكمات ، ومنهم مَنْ يدخلها في الآيات المتشابهات . ولم ينتبه أحد منهم إلى أنَّ هذه الآيات الكريمة قد صيغت صياغةً دستوريَّة ، وبهذا الأسلوب الإنشائي المعجز . وبذلك يتحقّق وعد ربّنا عزَّ وجلَّ بعد اطلاعه إيّانا على هذه الحقيقة الذي تضمّنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

وعلى هذه الصّورة وبالأسلوب نفسه نتناول قوله تعالى بالتّدقيق وهو : ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ فهذا القول يُشَكِّل نصّاً دستوريّاً يشمل جميع التّعاليم المُتعلّقة بالزّكاة وبغيرها من أحكام النّفقات المفروضة على كل مسلم في هذا القرآن العظيم . وعلى هذا الأساس اعتبرتُ في نظري هذا الأسلوب الإنشائي الذي صيغت به هذه الآيات ذات المضمون الدّستوريّ تابعاً للرّكن الثّاني من أركان هذه الخصوصيَّة الثّانية المعجزة التي امتاز بها هذا القرآن العظيم .

وليلاحظ القارئ الكريم كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اصطلح للنّصوص القانونيَّة التي نصّت على عبادةٍ من العبادات المفروضة على المسلم والنّابعة

من تلك النّصوص الدّستوريَّة التي ذكرناها قد اصطلح لها صيغةً إنشائيَّةً متميزةً هي أيضاً عن الصّيغ القانونيَّة المتعارف عليها بين الحقوقيين، وبذلك يكون الله تعالى قد استغنى هناك أيضاً عن إيراد كلمات المادَّة الأولى والمادَّة الثّانية والثّالثة، واستعاض عنها بواوات العطف التي تفيد معنى الحال أيضاً، فأحدث الله جلّ شأنه من خلال هذا المصطلح وتلك النّصوص القانونيَّة التّابعة له إعجازاً إنشائياً ثانياً في صياغته لتلك النّصوص أدهش من خلاله المفكّرين الإسلاميين وغيرهم، فلم يتبينوا ذلك المصطلح القانوني وتوابعه.

مثال من فريضة الصّوم:

وأضرب هنا للقارئ الكريم مثالاً دالاً على ما ذكرتُهُ من فريضة الصّوم، تلك الفريضة التي استهلّها الله تعالى بمصطلحه المشار إليه، وهو ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ فنلاحظه سبحانه وقد قال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ وإلى آخر الآية الثّالثة عشرة من هذه الفريضة التي تكلّمتُ عنها في مُؤلَّفي (الصّوم في الإسلام) فليراجع القارئ مؤلَّفي «الصّيام في الإسلام».

تميّز صيغ حيثيات المواد الدستوريّة والقانونيّة:

والمهمُّ في الأمر هو أنّني أطلعتُ هذا القارئ على أسلوب إنشائي ثانٍ من الأساليب الإنشائيّة القرآنيّة، والذي ورد مغايراً في صياغته للأساليب الإنشائيّة المتبعة في صياغة الدستوريّة والمواد القانونيّة، مع الملاحظة أنّ الله تعالى لم يُهمل بيان حيثيّات هذه المواد ذات النّصوص القانونيّة أو الدّستوريّة، بل أرفق معها حيثياتها. فما هي تلك الحيثيات؟ وظاهرة اختلافها عن الوضعية؟ وليلاحظ القارئ الكريم ورود حيثيات الآية الأولى من سورة البقرة وذلك في آخر آية من تلك الآيات التي أوردتها من قبل مجتمعة، فقد قال تعالى هناك ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وأمّا في النّصّ الدّستوريّ الذي نصّ على فريضة الصّوم، فقد أتى تعالى بحيثيّاته وقال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقد تضمّن هذان النّصّان حيثيات النّصوص الدّستوريّة والنّصوص القانونيّة وبشكلٍ متميزٍ عن النّصوص الإنشائيّة المعروفة وبإعجازٍ أيضاً.

تميّز صياغة الأسلوب الإنشائي:

وتعال معي أيها القارئ الكريم لأدلك على أسلوب إنشائي ثالث من الأساليب الإنشائيّة التي طرقها الله عزّ وجلّ في هذا القرآن المجيد، وهو أسلوب إنشائي إخباري معجزٌ تميّز به أيضاً، فعلى سبيل المثال لا الحصر ألفتُ نظر القارئ إلى ما تضمّنته سورة الرّحمن من حقائق كونيّة استعمل الله جلّ شأنه للإخبار عنها هذا الأسلوب الإنشائي الإخباري المعجز الذي نورده له.

فأنا شرحتُ الآيات الأوائل من سورة الرّحمن في مُؤلَّفي : (نشوء الإنسان وتطوُّره) وبإمكان القارئ مراجعة شرح معاني تلك الآيات الكريمة هناك ومراجعة ما حملته من دلالات إخباريَّة ، لكنّي أنقل للقارئ الكريم بعض الآيات الأخرى المتحلّية بالأسلوب الإخباري الإنشائي المتميّز والمعجز نفسه أيضاً .

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ عوضاً عن أنْ يخاطب النّاس ويقول لهم لاحظوا كيف أنَّنا قسّمنا سطح هذه الكرة الأرضيَّة إلى مشرقين و إلى مغربّيين ، وليُشَكِّلا آيةً من آيات إبداعنا في هذه الأرض ، وهو الأسلوب التّقليدي المعروف الذي يتطرّق إليه الكُتّاب والأدباء . فهو جلّ شأنه اتّبع أسلوباً إنشائياً إخبارياً جديداً له مفعوله في النّفوس البشريَّة ، فقد راح يقول وبصياغة بلاغيَّة معجزةٍ أيضاً ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

كذلك فإنَّ الله عزَّ وجلَّ عوضاً عن أنْ يقول وهو يخبر النّاس أنْ هاكم انظروا فأنتم تلاحظون كيف أنَّ البحار الكبيرة يفصل بينها برزخٌ ترابي يحول دون التقاء مياهها ، وأنَّه سيأتي ذاك اليوم الذي أُلهم فيه أشخاصاً يفكّرون في حفر ترع تصل ما بين تلك البحار ، فأمزج مياهها بعضها ببعضها الآخر ، ولتشكّل آية من آيات إبداع هذه الكرة الأرضيَّة ، ومشيراً من خلال ذلك إلى حفر ترعة السّويس التي مزجت مياه البحر الأحمر بمياه البحر الأبيض المتوسط ، وإلى حفر ترعة بناما التي مزجت ما بين مياه المحيطين الهادي والأطلسي . فبدلاً من أنْ يعمد الله تعالى إلى هذا الأسلوب الإنشائي

الإخباري الذي تعارف عليه الكُتَّاب والأدباء. فإنَّه جلّ شأنه ابتدع أسلوباً إنشائياً إخبارياً جديداً له وقعه في النّفوس وقال ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وها أنَّ الأيام دارت وتحقّق ما أخبرت به هاتان الآيتان الكريمتان المصاغتان صياغة بلاغيَّة معجزة وبأسلوب إنشائيٍّ إخباري معجز.

وليلاحظ القارئ الكريم أسلوباً إنشائياً رابعاً من تلك الأساليب التي عمد الله جلّ شأنه إلى التّعبير بها عمّا كان يريد تدوينه في كتابه العزيز القرآن وليميّزه بذلك عن مُؤلَّفات الكُتَّاب والأدباء.

فلم يأخذ الله عزَّ وجلَّ بنسق الكُتَّاب الذين يريدون إفهامنا حقيقة الدّور الذي يلعبه الماء لإحياء الأرض الميتة. ومن حيثُ تهب رياح شديدة فتحرك الغيوم السّاكنة وتحولها إلى سحاب ممطر، ويدفع الهواء بتلك السّحاب لتسقي الأرض العطشى هنا وهناك ووفق مشيئة ربّها، وأنَّ هذا القانون نفسه يعمل على صعيد إحياء النّفوس الميتة روحياً، وأنَّ صحابة رسولنا الكريم سيخضعون إلى قانون روحي يشبه ذاك القانون الطّبيعيّ ليتراكضوا هنا وهناك يحملون خبر ظهور هذا الدِّين، وتستجيب لهم النّفوس العطشى إلى معرفة إلهها الحقيقي، وينتشر الإسلام في نهاية المطاف، فيثاب مَنْ يثاب، ويعاقب مَنْ يستحق العقاب.

فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يعمد - يا عزيزي القارئ - إلى بيان تلك الحقيقة المشار إليها بالأسلوب التّقليديّ الآنف الذّكر، بل أتى بواو القسم التي تفيد تقديم شهادةٍ، وراح يقول في سورة الذّاريات التي كان الله تعالى قد أنزلها في

أحلك الأيام العصيبة في مكة المكرمة وقال ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴾ وبهذا الأسلوب من التّعبير البلاغيّ المعجز والحامل نبوءات معجزة أيضاً يكون الله جلّ شأنه قد أخبر بما لا يستطيع الأديب الإخبار عنه بأضعاف ألفاظ هذه الآيات الكريمة من سورة الذّاريات . ولقد صدقت الأيام ما أنبأت به هذه الآيات الكريمة حرفاً بحرف .

وعلى هذه الصّورة فإنَّ الباحث يدهش لهذا التّجديد في أسلوب التّعبير الإنشائيّ المعجز الذي يؤدّي ما يؤدّيه الأسلوب التّقليديّ عن تلك المعلومات ، ولكنْ ؛ بهذا الإيجاز وبتلك الصّياغة البلاغيَّة المعجزة . وإنَّ ما يزيد في هذا الإعجاز عظمةً أنْ تكون سورة الذّاريات تُمثِّل فصلاً من فصول سورة (ق) التي كان الله تعالى قد خصّصها لبيان قدرات الله عزَّ وجلَّ . ومن منطلق أنَّ الحرف المقطّع (ق) مختزل من كلمة (قادر) وقد جاءت سورة الذّاريات التي أنزلها تعالى في أيام لم يكن مصير محمد وأصحابه معروفاً بعد ، قد أنبأت بهذا النّبأ العظيم وثبت من خلال تحققه أنَّ قدرات الله تعالى لا تُحدّ وتشمل علم غيب المستقبل أيضاً .

هذا ؛ وإنَّ القارئ الكريم إنْ قام بتدقيق جميع آيات هذا القرآن الكريم فإنَّه سيعثر على عدد زائد عن هذه الأساليب الإنشائيَّة المعجزة التي ذكرتُها له حتَّى الآن . فها هي سورة الطّور التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ هي بدورها في مكة المكرمة والتي حملت للمؤمنين أنباء جديدة وعلى شاكلة سورة الذّاريات . فقد أنزلها الله عزَّ وجلَّ بأسلوب إنشائي معجز مختلف عن أسلوب سورة

الذّاريات. وعوضاً عن أنْ يعمد الله تعالى إلى أسلوب الكُتَّاب الأرضيين ويقول: إنَّ وحينا هذا النّازل على قلب رسولنا الأمين سيعمدون إلى جمعه على شكل كتابٍ مسطور في رقٍّ منشور، وأنَّ رعاية البيت الحرام ستصير في أيدي المسلمين، وأنَّ منزلة محمد بن عبد الله ستحتل مكانةً رفيعةً في أعين قومه، وأنَّ هذا الوحي الذي أنزلناه عليه سيصلح لكل زمان ومكان، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يعمد إلى هذا الأسلوب الإنشائي المعروف للتّعبير عمّا ذكرتُ، ولا إلى الأسلوب الجديد والذي أخذ الله تعالى به في سورة الذّاريات، بل جدَّد سبحانه وتعالى في أسلوب التّعبير الإنشائي وقال وهو يأتي في كل آية بواو القسم قال ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾. وبذلك ومن خلال هذا القَسم بالطّور قد وجَّه الله تعالى أذهاننا في الوقت نفسه إلى النّبوءة التي تنبأ فيها موسى عليه السّلام عن بعثة هذا الرّسول الكريم وعن دينه الإسلاميّ الحنيف.

فعلى هذا الشّكل فقد عمد الله جلّ شأنه إلى تنويع أساليبه الإنشائيَّة في التّعبير متحدّياً بذلك أئمّة حَمَلَة القلم من الأدباء والشّعراء من هذه الأمَّة العربيَّة، وأثبت بذلك أنَّ لهذا القرآن المجيد هذه الخصوصيَّة الثّانية المعجزة التي تحدّثنا عنها، ومن خلال ركنها الثّاني آنف الذّكر.

تميّز ركن الرموز والإشارات:

ولم تقتصر هذه الخصوصيَّة الثّانية على الرّكنين السّابقين، بل واستندت على ركنٍ ثالثٍ تَمثَّل في هذا التّشكيل وهذه الرّموز و الإشارات التي يلحظها

القارئ مدوّنةً فوق الآيات القرآنيَّة هنـا وهنـاك. كمـا يلحـظ تعـدّد القـراءات التي تفضي في الحقيقة إلى المعاني نفسها وبإفادات جديـدةٍ وبإشـارات الوقـف على وجه الخصـوص. وقـد جـاء ذلـك كلـه علـى مسـتوى الإعجـاز أيضـاً. وشكّل هذا كلّه بالتّالي مرجعاً لأكثر من علمٍ من علوم القرآن المجيد.

وأتناول الآن الحديث عن هذا الرّكـن الثّالث فمـن المعلـوم أنَّ الكـاتب والأديب لا يهتم عموماً بتشكيل كلمـات مُؤلَّفـه ولا يـدوّن رمـوزاً وإشـارات فوقها للإشارة إلى دلالات معينة. لكنَّ الله عـزَّ وجـلَّ قـد أنـزل كتابـه العزيـز هذا مخالفاً لهذا النّمط من الكتابة المتعارف عليه بين الكُتَّاب والأدباء، فـأنزل كتابه العزيز مشكّلةً كلمات آياتــه الكريمـة وفوقـها رمـوزٌ وإشـارات بـدلالات معينة، وحتّى بقراءات مختلفة لبعض الكلمات، ولتفيد معاني تؤكـد المعـاني الحقيقيَّة وتدعمها وخاصَّة منـها إشـارات الوقـف. هـذا وقـد أنـزل الله تعـالى آيات كتابه العزيز على هذه الحال التي ذكرناها من أوَّل يوم أنزل آياته الكريمـة فيه في مكّة المكرّمة، وبدليل ما ذكرتُهُ سابقاً من أنَّ الذين يطبعون هـذا القـرآن المجيد يقومون بالالتزام بقواعد تشكيله وتنقيطه ويراعيها قُـرَّاء القـرآن الكريـم حين يتلون هذه الآيات الكريمة على مسامع الجماهير.

لكنِّي أقول والحزن يعمر فؤادي بأنَّ الذين يطبعون هذا القـرآن الكريـم في أيامنا هذه، ليسـوا علـى مسـتوى تقدير أهمِّيَّـة هـذا الحقيقـة المُتعلِّقـة بـهذه الخصوصيَّة الثّانية التي ذكرتُـهَا، لذلـك نلاحظـهم مـا عـادوا يتقيّـدون برمـوز وإشارات آيات هذا القرآن المجيد بدقَّةٍ تامّة حـين يطبعونـه حـين يكـون المقصـد من ذلك توزيعه في المناسبات بأعدادٍ كبيرة. فهم عادوا يهملون وضع إشـارات

الوقف في أمكنتها الصّحيحة. فهل يفعلون ذلك عن قصد أو عن غير قصد؟ هذا متروك أمره لله العزيز الذي أنزل هذا القرآن العظيم. لكنّي أنظر إلى هذا الإهمال على أنَّه يمثّل بداية تحريف لهذا الكتاب العزيز أيضاً.

وهنا كان لابُدَّ أنْ يتساءل المرء عن أهميَّة إشارة الوقف المرقومة على آخر بعض كلمات القرآن الكريم. لذلك سأحاول الكلام عن مميّزات (إشارة الوقف) المشار إليها، ليدرك القارئ الكريم مدى أهمّيتها. فما هي الميزة البارزة بما يتعلّق فيما هو وارد من إشارات وقف فوق بعض كلمات آيات هذا القرآن العظيم؟

خلوّ القرآن من إشارات الاستفهام والتعجب:

لكنّه وقبل الإجابة عن هذا السّؤال أرى أنْ أُلفت نظر القارئ الكريم إلى ركن ثالث من أركان هذه الخصوصيَّة الثّانية فأقول: ألا ترى معي - يا قارئي العزيز - كيف أنَّ الكاتب أو الأديب يضع في نهايات بعض جمله إشارات استفهام وأحياناً إشارات تعجب؟ لكنكَ إذا دقَّقتَ نظركَ في هذا الكتاب المقدس القرآن من أوّله إلى آخره تلاحظه خالياً من إشارتي التّعجّب والاستفهام، لذلك فلا تلاحظ فيه أيَّة إشارة تعجب ولا أيَّة إشارة استفهام. وإنَّ هذه الظّاهرة ملفتةٌ للنّظر حقّاً. فيتساءل الباحث عن السّبب وفي وقت يلاحظ فيه ورود صيغ استفهام عديدة بين الآيات القرآنيَّة الكريمة.

وتبيانا لهذه الحقيقة أقول: إنَّ إشارة الاستفهام تحمل أصلاً معنى لا يتناسب مع واسع علم الله العليم. فالكاتب أو الأديب يكون محتاجاً

للتّساؤل في بعض الأحايين. أمَّا الله العليم فلا يكون كمثل هذا الكاتب البشر، هذا لكون علم الله تعالى يشمل كل شيء في هذا الوجود، ومن باب أنَّه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السّماء، ومع وجود هذه الحقيقة فإنَّ من واجبنا تفسير صيغ الاستفهام الواردة في كتاب الله العزيز على صورة مقنعة.

أقول: لئن دقّقتَ نظركَ أيها الباحث في تلك الصّيغ القرآنيَّة الواردة على شكل صيغ الاستفهام، فستدهش عندما يتبيَّن لك بأنَّ من الصّيغ ما هو وارد بمعنى الاستخبار، وأنَّ من تلك الصّيغ ما هو وارد بمعنى الاستفهام الاستنكاري الذي ينكر على المخاطب اعتقاده وسلوكه الشّخصي. وبهذه المناسبة أقدّم لهذا الباحث مثالاً قرآنياً يدعم قولي هذا ويشرحه. فالمؤمن الذي يكون قد طالع سورة الإنسان يلاحظ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استهلّها بأداة الاستفهام (هل) وقال فيها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فإنْ دقّق هذا المؤمن في دلالة حرف (هل) في هذا المقام يتبيَّن له أنَّ الله تعالى قد استعمل حرف (هل) هنا في هذه الآية الكريمة بمعنى الاستخبار وليس بمعنى الاستفهام المعروف المتداول، وليستخبر من علماء المستحاثات المختصّين بتاريخ نشوء الإنسان عن تاريخ نشوء هذا الإنسان، وعن حاله في هذا الزّمان ليؤيّدوه فيما طرحه تعالى من حقيقة. والسّبب في أخذ هذا المعنى للحرف (هل) في هذه الآية الكريمة هو ورود صيغة الماضي بعدها والتي تحول معنى الاستفهام إلى معنى الاستخبار (محيط المحيط). وليصبح معنى هذه الآية الكريمة أنّكم إذا استخبرتم من علماء المستحاثات عن تاريخ وحال نشوء هذا الإنسان فسيتبيّن لكم أنَّ البشر قد مرّ بفترةٍ زمنيَّة

لم تكن فيها للإنسان أية علامةٍ تميّزه من باقي الكائنات الحيَّة من حوله. فقد كان أقربّ للتّوحش منه للإنسان، لذلك فلم يكن شيئاً مذكوراً. لأنَّ عقله لم يكن قد نضج بعد ليمتاز به ممَّن سواه من المخلوقات. فهذا المثال يُعدّ واحداً من الأمثلة الدّالة على مصداقيَّة ما ذكرت. وقيسوا عليه الآيات القرآنيَّة الواردة بصيغ الاستفهام جميعها.

ثمَّ إنَّ الكاتب والأديب يضع أحياناً إشارة تعجب إظهاراً لعظمة ما بيَّنه من مضمون. لكنَّ هذا القرآن المجيد يخلو من إشارات التّعجب المذكورة، والسّبب في ذلك أنَّه لا يوجد ما يدهش الله تعالى منه، ولا ما يعجب منه بمعنى العجب الذي يتملَّك الكُتَّاب والأدباء. فالذي يتقصَّى صيغ التّعجب الواردة في هذا القرآن المجيد ومن منطلق ما ذكرتُهُ من منظار، يدرك سبب خلو آياته من إشارات التّعجب هذه التي يستعملها الكُتَّاب والأدباء. والذي يهمُّنا بيانه هنا هو التّنبيه إلى حكمة خلوّ علامات وإشارات هذا القرآن المجيد من علامتي الاستفهام و التّعجب تدليلاً على خطَّة الله تعالى هذه التي اختطّها في كتابه العزيز حين أمر تعالى بتشكيل كلمات كتابه العزيز وتنقيطه ووضع إشارات عليه. فهذه هي أيضاً ظاهرة إعجاز تبرز حقيقة ظاهرة هذا الرّكن الثّالث من أركان هذه الخصوصيَّة الثّانية لهذا الكتاب المقدس والمبارك والمتصف بالكمال والنّماء.

و لا بأس إنْ أنا قمتُ بتوضيح أهمِّيَّة علامةٍ من تلك العلامات الواردة فوق الآيات القرآنيَّة. فأتناول حرف الطّاء (ط) على سبيل المثال فإشارة الطّاء تملي على مُرتِّل الآية أنْ يتوقَّف عند هذا الحرف، ومن ثمَّ يستمرُّ بعد

ذلك في تلاوته للآية المشار إليها. وآخذ بيد القارئ إلى الآيات الواردة في سورة طه على سبيل المثال والتي ورد فيها على لسان موسى عليه السّلام مناجاة مع ربّه عزَّ وجلَّ و هو يرجوه أنْ يدعّمه بأخيه هارون. فقد ورد هناك قوله ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَـٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾. فقد وضعت إشارة الطّاء على آخر الآية الكريمة التي قال موسى فيها ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ أمَّا الآيات التي قبلها فقد وضع على آخر كل آية منها إشارة (لا) والتي تعني عدم الوقف على تلك الآيات الكريمة أثناء ترتيلها. فما هي دلالة ذلك؟

دلالة ذلك هو قوله تعالى في مقام آخر ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فالإكثار من الذّكر الإلهي يجذب توجه الله تعالى نحو عبده الذي يدعوه. ولذلك وجدت إشارة الطّاء على آخر هذه الآية الكريمة تذكرة بهذه الوسيلة التي تجذب محبة الله نحو عبده الذي يدعوه، وليستجيب له دعاءه على حين أنَّ الآيات التي أوردتها قبلها والتي وضع على آخر كل واحدةٍ منها إشارة (لا) فهي تشكل بمجموعها مضمون هذا الدّعاء الذي دعا به موسى عليه السّلام بين يدي ربّه، فهي كلٌ لا ينبغي تجزئته حين ترتيل هذه الآيات الكريمة. فهل يخطر ببال كاتب أو أديب أنْ يعمد إلى وضع مثل هذه الإشارات وفي الأمكنة المناسبة لها ولتوحي بهذه الدّلالات؟ فالجواب المستمدّ من واقع الأدباء قبل الإسلام وبعده هو أنَّه من العسير جداً أنْ يقوم الكاتب بما قام به الله تعالى به في كتابه العزيز. لذلك صحّ وحقّ لنا أنْ نقول إنَّ تكرار وجود حرف الطّاء على آيات هذا القرآن المجيد من أوَّله إلى آخره وفي الأمكنة التي

توحي بهذه الدّلالة هو من قبيل إعجاز الرّكن الثّالث من أركان هذه الخصوصيّة الثّانية من خصائص هذا القرآن العظيم.

أهمّيّة إشارة الوقف ودلالتها:

وأتوجّه الآن لأوضح للقارئ معالم الرّكن الرّابع من أركان هذه الخصوصيّة فأقول: إنَّ أهم هذه العلامات التي ترد فوق آيات هذا القرآن الكريم هي علامةٌ مُؤلَّفة من حرفين اثنين وليس من حرفٍ واحد. وهي كلمة (قف). فالسّؤال الذي يطرح نفسه هو: من أين أتت أهمّيّة إشارة (قف) هذه التي شكلت هذا الرّكن الرّابع هذه الخصوصيّة القرآنيّة الثّانية؟

أقول: أتت أهمّيّة هذه الإشارة (قف) من جهة دلالاتها الهامّة أيضاً. فهي تطالب هذا القارئ أنْ يتوقّف ويتفكّر ملياً في مضمون الفقرة الوارد فوقها إشارة التّوقّف. ولا مفرّ والحال هذه من تقديم مثالٍ واقعي من صلب آيات هذا القرآن العظيم يثبت مصداقيّة ما أقول. وأبدأ في بيان هذه الحقيقة من حيثُ بدأ بها الله عزَّ وجلَّ نفسه. فالله جلّ شأنه قد جعل على ثماني آياتٍ من آيات سورة البقرة إشارات الوقف (قف) وإلى القارئ موضع أوّل إشارة من هذه الإشارات الثّمانية المشار إليها.

ألا إنَّ كل مَنْ يتلو آيات سورة البقرة يلاحظ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خاطب أوَّل مَنْ خاطب من الأقوام فيها، فقد خاطب بني إسرائيل وقال لهم ﴿**وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ**﴾ وقد راح الله جلّ شأنه يذكّرهم في الآية **(83)** بميثاقه مع نبيّه موسى عليه السّلام وقال ﴿**وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا**

تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ فالملاحظ بأنّ الله تعالى وضع إشارة (قف) على آخر قوله تعالى (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ) كما وضع إشارة الطّاء آخر قوله تعالى (وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ) ولم يضع جلّ شانه أيّة إشارة على بقيّة فقرات هاتين الآيتين الكريمتين.

فإشارة الطّاء سبق لي أنْ وضّحتُ للقارئ دلالاتها وقدّمتُ له مثالاً عليها من سورة (طه). وقد كان القصد منها هنا في هذا الموضع الذي ذكرتُهُ أنْ يتوقّف مُرتّل القرآن عن قوله تعالى ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ليقارن بين حال اليهود زمن موسى وفي زمنه. وليدرك كيف عاد المال وجمعه هو معبود هؤلاء اليهود.

أمّا إشارة (قف) آخر قوله تعالى (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ) فإنّ القصد منه أنْ يتوقّف المُرتّل للآيات عن التّلاوة وليتفكّر ويقارن ما بين التّوحيد الذي علم موسى قومه إياه، والذي أخذ الله تعالى عليه ميثاقه مع بني إسرائيل. وما بين حال هذا الموت الرّوحاني الذي أُصيب به اليهود والذي يدفعهم إلى استبدالهم مناجاة ربّهم والذي هو المعبود الحقيقي باحتضان المنجّمين والمشعوذين من رجال معابدهم وغيرهم من الرّجال، وذلك لانقطاع وحي ربّهم عنهم بعد بعثة محمد ﷺ سيّد النّبيين أجمعين، ولكونهم قد باءوا بغضبٍ من الله جلّ شأنه من جرّاء إعراضهم عنه وتكذيبهم إيّاه.

والذي نلاحظه هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ كان يقول على ألسنة رسله وهم يدعون أقوامهم ، يقول ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أو ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لكنَّه تعالى قال هنا (لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ) فأتى بحرف (لا) بمعنى إفادة النّفي ، وليس بمعنى الجزم ؛ لأنّه لو كانت (لا) هنا جازمة لكانت جزمت فعل المضارع (تعبدون) ، وما دامت لم تجزمه فهي نافية ، وليصبح المعنى بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لقد أظهر الله تعالى الكثير من الآيات الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى على أيدي موسى وهارون ، وأفادكم بالبينات الكثيرة الدّالّة على وحدانيَّة الله تعالى على أيدي موسى وهارون ، وأفادكم بالبينات الكثيرة الدّالّة على وحدانيَّة سبحانه ، وإلى درجة ما عاد بإمكان إسرائيلي عاصر موسى أنْ يفكر بغير هذا التّفكير . فقوله تعالى (لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ) أي لا تستطيعون بعد ذلك كله أنْ تجرُؤوا على عبادة غير الله تعالى . فهذه الدّلالات التي كانت مرجوَّة من إشارة الوقف التي وُضعت في هذا الموضع ، والتي طُولب المؤمن الذي جلّس يتلو هذه الآيات الكريمة أنْ يتوقَّف هنا ثوانٍ معدودات ، ليستعيد هذه المعلومات في ذهنه قبل أنْ يواصل التّلاوة ، وليتساءل بعد ذلك : وهل خالف بنو إسرائيل هذا الميثاق المُتعلِّق بعبادة الله الذي لا إله سواه؟ فقد وردت إشارة الوقف هذه لتهيّئ هذا المؤمن ذهنياً وهو يتلوا هذه الآيات ، تهيّئه إلى ما ستخبره به الآيات بعد إشارة القف هذه .

فلاحظ يا عزيزي القارئ بعد ذلك كيف أنَّ الله تعالى راح يقول بعد أنْ فرغ ممَّا كان قد أخذه من مواثيق على بني إسرائيل راح يقول : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

. ومن ثمَّ وبعد آيتين راح الله تعالى يذكّر هذا المُرتِّل الذي طُولب بالوقوف والتّفكير بعد قوله تعالى (لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ). راح تعالى يخبره بحال هؤلاء اليهود، وما صدر عنهم في زمن موسى نفسه حين صعد جبل الطّور لتلقّي الوصايا العشر. راح تعالى يخبر بذلك ويقول في الآية (92) ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾.

فمن خلال كلمة (البيّنات) وردت الإشارة إلى الميثاق وإلى تعليمهم عقيدة التّوحيد، وإلى ما رافقها من ظهور آيات على يدَيْ موسى عليه السّلام. وقد أتى تعالى بالحرف (ثمَّ) الذي يفيد التّرتيب وقال ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ بمعنى أنَّ ما ظهر من آيات وما علّمكم من بيّنات عقيدة التّوحيد، سبق زمن ظهورها وحدوثها زمن اتخاذ هؤلاء اليهود العجلَ معبوداً لهم بعد أنْ أغواهم السّامري لم تفدهم في شيء.

وعليه؛ فكم هي عظيمةٌ دلالات إشارة (قف) هذه التي وردت في هذه الآية التي ذكرناها! وكم أدَّت من خدمةٍ جلّيلةٍ للرّبط ما بين مضامين هذه الآيات الكريمة! فلو طبع الذين يطبعون هذا القرآن الكريم هذه الآية بالذّات وأسقطوا منها إشارة الوقف هذه. فأنّى للقارئ أنْ يتمهّل ويربّط ويقارن ما بين حال اليهود زمن موسى وبعده وليتوصل إلى هذه النّتائج التي ذكرناها؟.

والآن إنْ راجع القارئ نسخة من القرآن مطبوعة في بيروت لبنان. طبعتها مُؤسَّسة دار الرّيحاني للطّباعة والنّشر عقيل دكرون وشركاه، والتي تطلق على نفسها (مُؤسَّسة الكتاب) والتي طبعت هذه النّسخة القرآنيَّة بعدّة ألوان أيضاً، ولصالح أحد تجّار هذا القرآن الكريم، ومن غير أنْ نذكر

اسمه، والذي يتعامل مع (مُؤسَّسة الكتاب) المسيحيَّة المذكورة، والتي تطلب هذه النّسخة القرآنيَّة، منها والتي يملكها التّاجر المشار إليه، تلاحظ إسقاط إشارة الوقف في هذا الموضع بالذّات، مع أنَّ التّاجر المشار إليه يزعم أنَّه يتعامل مع كل شيء إسلامي. على حين أنَّه يستورد هذه النّسخة القرآنيَّة المشار إليها ليستفيد من نسبةٍ من أربّاح طباعتها بعد أنْ يشجّع المسلمين على اقتناء أعدادٍ كثيرة منها لتوزيعها كهدايا في مناسبات الزّواج وغيرها من الاحتفالات. وبدون أنْ يطالب (مُؤسَّسة الكتاب) المسيحيَّة بتخصيص صفحة أخيرة تحمل هذه الإشارات. والمؤسف أكثر أنَّ هذا لا يُدقّق فيما طُبع من تلك الإشارات. وها إنَّ إشارة الوقف التي كلّمتُ القارئ عنها لا وجود لها على الموضع من الآية (83) من السّورة المذكورة ولا وجود أيضاً لإشارة الطّاء آخر ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

فهذا تحريفٌ يقوم به هذان الطّرفان المتعاملان في أيامنا هذه لهذا القرآن المجيد، وبدهاءٍ ما بعده دهاء. ويساهم فيه المسلمون الذين شابهوا اليهود في حبّهم للمال. والغاية القصوى لهؤلاء وهؤلاء هو أنْ يطمسوا معالم هذا الرّكن الرّابع وغيره من أركان هذه الخصوصيَّة المعجزة التي امتاز بها هذا القرآن الذي تحدّى الله تعالى بها الإنس والجان عن قصد أو عن غير قصد.

ونظراً لأهمِّيَّة هذا الرّكن الرّابع من هذه الخصوصيَّة الثّانية أرى أنْ أورد أمثلةً أخرى مماثلة. فقد سبق لي أنْ ذكرتُ بأنَّه وردت إشارة الوقف في سورة البقرة ثماني مرات (83 ـ 102 ـ 155 ـ 213 ـ 242 ـ 250 ـ 253 ـ 280). وتكلّمتُ عن الأولى آنفاً. وأتكلّم الآن عن الثّانية الواردة على الآية (102).

قال تعالى يوضح لنا بداية انحراف بني إسرائيل عن التّوحيد الحقيقي وأنّه شرع ذلك منذ عهد سليمان عليه السّلام؛ حيثُ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ قف وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. أي أنَّ بداية إصغاء اليهود زمن موسى لهؤلاء النّاس البعيدين عن ربّهم والذين اهتموا بالسّحر عوضاً أنْ يربطوا أنفسهم بربّهم وخلافاً لما كان موسى قد حذّرهم منه من قبل. فقد انقطعت ثمار الآخرة الرّوحيَّة عنهم، لذلك وضع تعالى إشارة وقف آخر قوله ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾، ومن ثمَّ قال بعد ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ليتذكّر القارئ طريق الهداية والنّجاة.

كذلك نلاحظ بأنَّ الله تعالى راح يقول في الآية (155) من سورة البقرة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۖ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ قف وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فقد وردت إشارة (لا) آخر الآية الأولى تأمر بعدم التّوقُّف. كما وردت إشارة الطّاء آخر قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ لتعلّم المؤمن ما ينبغي أنْ يجري على لسانه بعد أنْ تحلّ به أيّة مصيبة. كما وردت إشارة الوقف آخر قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ﴾ والقصد منها تبشير هذا المؤمن إنْ هو ارتضى بما ابتُلي به من مصيبة به، بأنَّ ربّه يُعوّض عليه بعدها ما ابتلاه به إكراماً لصبره ورضاه، ويتحفه بالبركة والرّحمة التي يثبت لها من خلالها أنَّ ما حل به من مصيبة كان مجرد ابتلاء لإيمانه، وإنَّ هذا من قِبَل ربّه عزَّ وجلَّ. ولذلك أنَّهى الله تعالى الآية بقوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

كذلك فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قال في الآية (213) من السّورة نفسها ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾. فالغرض من علامة الوقف آخر الفقرة الأولى وهي ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الإشارة إلى ما سبق لي أنْ وضّحته في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره) من أنَّ بعثة آدم قد قسمت البشر إلى فئتين من النّاس، فابتدأ بها موضوع الكفر والإيمان، وإلا فإنَّ البشر حينما كانوا يقطنون الكهوف فما كانوا يدرون شيئاً عن ذلك. وأمَّا الغرض من وضع الطّاء آخر قوله تعالى ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ فللدّلالة على أنَّ الهداية بيد الله تعالى وحده يهدي مَنْ يستحق الهداية ويضلّ مَنْ يستحقُّ الإضلال.

كذلك قال الله تعالى في الآية 243 من السّورة نفسها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ ﴿قف﴾ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

فالغرض من إشارة (قف) آخر الفقرة الأولى وبعد قوله تعالى (موتوا) كان ليعلّم الله عزَّ وجلَّ هذا المؤمن بأنَّ طاعة الله تعالى قد تتطلّب منه التّضحية بنفسه. وأمَّا الغرض من الطّاء آخر قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ فليتفكّر المؤمن بأنَّ عاقبة كلّ شيء فبيد خالقه عزَّ وجلَّ.

كذلك فإنَّ الله عزَّ وجلَّ عندما قال في الآية (250) من السّورة نفسها حكايةً عن معركة النّبي داود مع عدوه جالوت ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿ط﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴿قف﴾ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ ﴿ط﴾ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾. فلقد وضع تعالى حرف الطّاء آخر دعاء النّبي داود وجيشه، ليحفظ المؤمن هذا الدّعاء عند منازلته لعدوه، ووضع إشارة الوقف آخر قوله تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ليؤكّد الله تعالى أنَّه كتب لهم النّصر إنْ فعلوا ذلك.

كذلك فإنَّ الله تعالى راح يقول في الآية (253) من السّورة نفسها ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم

مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ قف وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

فنبّه تعالى من خلال حرف الطّاء آخر قوله ﴿ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ إلى أنَّ الذي يكفر بعد أنْ تأتيه بيّنة من ربّه لا يفلت من العقاب. كما نبّه تعالى من خلال إشارة (قف) آخر قوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ إلى أنَّه تعالى هو مُسبِّب الأسباب، وها أنَّه قد عذّب الكافرين بأيدي المؤمنين من خلال ما وقع بين هؤلاء وهؤلاء من اقتتال.

وللمرَّة الثّامنة فقد أورد الله جلّ شأنه إشارة (قف) على فقرة من فقرات قوله تعالى في الآية (280 ـ 281) من سورة البقرة نفسها؛ حيثُ قال ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ ط وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قف ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وإنَّ هذه الآية الكريمة قد وردت بصدد الكلام عن تحريم التّعامل بالرّبا. و ليستبدل المؤمن الرّبا بالاقتراض. وقد نبّه الله تعالى المقرض ألا يقسو على الذي أقرضه، وتعذّر عليه الوفاء بدينه. فهذه دلالة الطّاء. ومن ثمَّ حَثَّ تعالى المؤمن على التّصدُّق بهذا الدِّين إنْ أمكن ذلك طلباً لثواب الآخرة، وهذه هي دلالة إشارة الوقف. وعلى هذه الصّورة أكون قد استكملتُ الكلام عن الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّانية المعجزة، لذلك أنتقل منها للكلام عن الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّالثة المعجزة التي يتميّز بها هذا القرآن، الكريم وتتصف هي أيضاً بالإعجاز.

الخصوصيَّة القرآنيَّة الثَّانية:

المعنى المتبادر يكون غير المعنى الحقيقي

هذا وإنَّ القارئ الذي يتابع مطالعة مُؤلَّفاتي يلاحظ أنِّي أشرتُ فيها إلى أنَّ المفسِّرين القدماء رحمهم الله كانوا يأخذون لبعض الآيات الكريمة ما كان يتبادر منها من معنى لأذهانهم، ولا يتدبّرون تلك الآيات بمنهجيَّة وأصول. فكنتُ أشير إلى ذلك من باب أنَّ القرآن الكريم يمتاز بخصوصيَّة ثالثة، وهي أنَّ من الآيات ما ترد مصاغةً صياغةً بلاغيَّة معجزةً؛ وبحيثُ يتبادر لذهن قارئها معنى يخالف معناها الحقيقي الذي لا يتوصل المرء إليه إلا إذا تدبّر تلك الآيات بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

وينبغي أنْ يلاحظ القارئ الكريم بأنَّ معطيات هذه الخصوصيَّة الثّالثة لا تشمل آيات هذا القرآن الكريم جميعها، بل تنحصر في الآيات التي تدور مضامينها حول مواضيع معينة، لأنَّه لا يعقل أنْ يورد الله تعالى حكماً شرعياً أو نصّاً دستورياً أو قانونياً من خلال نصّ غير واضح ولا صريح الدّلالة. ولذلك فإنَّ الأحكام الشّرعيَّة تستثنى من ذلك الأصل في التّفسير، إذ إنَّ الآيات القرآنيَّة جميعها بحاجة لتدبُّرها بباعث قوله تعالى في الآية (29) من

سـورة : ص : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ . وإنَّ عمليَّة التّدبّر المطلوبة تأتي من كون الآيات القرآنيَّة جميعها قد صيغت صياغةً بلاغيَّة معجزةً، ولم ترد بصياغة عاديَّة . لكنَّ الآيات العائدة إلى هذه الخصوصيَّة الثّالثة يتبادر منها لذهن القارئ غير المقصود منها ، على حين أنَّ الآيات من الأنواع الأخرى يكثر فيها الحذف البلاغي . فإنَّ فهم القارئ المقصود من الحذف البلاغي الوارد هناك تتبيّن معاني الآيات تلك .

وإنَّ هذا الأمر الذي لفتُّ نظر القارئ إليه آنفاً ، لا يتّضح للقارئ بصورة جيّدة ما لم أضرب له أمثلة توضّح ذلك . فلنأخذ الآيات المصاغة صياغةً بلاغيَّة ولا تمتّ إلى هذه الخصوصيَّة الثّالثة . كالآيات ذوات النّصوص الدّستوريَّة . فلقد نبّهتُ القارئ من قبل وقلتُ إنَّ الآيات ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ قد تضمَّنت هذه الآيات الكريمة نصوصاً قرآنيَّة دستوريَّة ، وسبق لي أنْ بيّنتُ نواحي التّجديد في صياغتها ، وهذه النّصوص صريحةً لا تُفهم إلا بالمتبادر منها من معاني ودلالات . وقد نبّهتُ في مُؤلَّف (الصّوم في الإسلام) إلى أنَّ آيات فريضة الصّوم منها ما صيغ صياغة دستوريَّة ، ومنها ما صيغ صياغة قانونيَّة . وسبق لي أنْ وضّحتُ نواحي التّجديد في صياغة تلك النّصوص القرآنيَّة الدّستوريَّة والآيات القرآنيَّة ذات النّصوص القانونيَّة . فهذه جميعها ترد صريحة لا تُفهم إلاّ بالمتبادر منها من معاني ودلالات . لذلك ومن خلال هذه الأمثلة التي أشرت إليها نستنتج بأنَّ الآيات ذات الأحكام الشّرعيَّة جميعها والعائدة إلى

هذين النّوعين من الآيات لا تدخل في نطاق إطار هذه الخصوصيَّة الثّالثة التي نحن بصدد الكلام عنها.

مثال أوَّل يثبت وجود الخصوصيَّة الثانية:

والآن أقدّمُ للقارئ مثالاً من آيةٍ تدخل في إطار الخصوصيَّة الثّالثة التي نتكلّم عنها، لتساعد القارئ على الإحاطة بنوعيتها. وأستقي هذا المثال من الآيات الكريمة التي تكلّمتْ عن طوفان نوح عليه السّلام. فقد راح الله عزَّ وجلَّ يصف ما جرى لسفينة نوح بعد أنْ ابتدأت مياه الطّوفان تطغى على منطقته. فقال تعالى في الآية الثّانية والأربّعين من سورة هود: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلقد تبادر من هذا الوصف لذهن العلامة الفخر الرّازي المفسّر المشهور رحمه الله قوله: (فهذا يدلّ على أنَّه حصل في ذلك الوقت رياحٌ عاصفةٌ شديدةٌ، والمقصود منه بيان شدّة الهول والفزع... وهو أنْ تجري السّفينة داخل الموج، وذلك يوجب الغرق. فالمراد أنَّ الأمواج لما أحاطت بالسّفينة من الجوانب، شُبهت تلك السّفينة بما إذا جرت في داخل الأمواج.).

أي أنَّه قد تبادر لذهن الرّازي رحمه الله حدوث أمواج عاتية نتيجة هبوب عواصف ورياح شديدة، وأنَّ الله تعالى قد شبّه حال سفينة نوح وكأنَّها تجري داخل الأمواج العاتية. وهذا ما أفادته تصريحات الرّازي الآنفة الذّكر. والحقيقة هي أنَّ هذه الآية الكريمة قد وردت مصاغةً على صورةٍ

يتبادر لذهن كل مَنْ يقرأها هذا المعنى الذي ذهب إليه الرّازي وغيره من المفسّرين القدماء رحمهم الله. وهو المعنى الشّائع بين المسلمين أيضاً.

لكنّي أقول بأنَّ هذه الآية المذكورة وإنْ تبادر منها للأذهان ما ذكرناه، فلم يكن المقصود منها هذا المعنى المتبادر، وتدخل هذه الآية بذلك في إطار الآيات العائدة إلى الخصوصيَّة الثّالثة التي نتكلّم عنها. وهنا يطالبني القارئ بالدّليل على مصداقيَّة ما ذكرتُ.

أقول: أ فلم تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف ذهب ذهن الرّازي إلى أنَّ حرف الجر (في) من قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ يعني داخل موج كالجبال؟ وأولم يتبادر لذهنه رحمه الله من كلمة (موج) ما يطفو به الماء من أمواج؟ ثمَّ أولم نلاحظ كيف أنَّه رحمه الله أخذ بمعنى التّشبيه لحرف الكاف من قوله تعالى كالجبال؟ وهل لاحظ القارئ من خلال أقوال الرّازي رحمه الله أنَّه انتبه لوجود إشارة (الوقف) على آخر هذه الفقرة من الآية الكريمة؟ فهذه أربّعة نواحي قد غابت عن ذهن الرّازي معانيها الحقيقيَّة، لذلك صرح بما تبادر لذهنه من الآية، وبما نقلناه عنه.

أمَّا إنْ نحن قمنا بإعادة النّظر في هذه الأمور الأربّعة بداعي ما عرفناه من منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. فسينقلب المعنى المتبادر رأساً على عقب. فإشارة (قف) الموضوعة على آخر الفقرة ندرك منها أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قصد من وراء وضع هذه الإشارة هناك أنْ نتوقَّف، فلا نأخذ للفقرة تلك معناها المتبادر منها لأذهاننا، بل إنَّه تعالى طلب منا أنْ نتدبّرها بمنهجيَّة القرآن

وأصول تفسيره، وليدفعنا لأخذ المعاني المناسبة لألفاظ هذه الفقرة من الآية في هذا المقام، وهذا مثال جديدٌ يوضح لنا أهمِّيَّة الوقوف على إشارة (قف).

ثمَّ ننتقل إلى موضوع دلالة حرف الجر (في) فهو لم يُستعمل هنا بمعنى داخل، بل استُعمل بمعنى المصاحبة. وعلى شاكلة قولك: جاء الملك في موكبه بمعنى بصحبة حاشيته. وليصبح المعنى بأنَّ سفينة نوح راحت تجري بجهة مياه السّيل النّاتج عن الأمطار الغزيرة وبالاتجاه نفسه الذي كانت تتوجه نحوه أيضاً، أي تجري السّفينة بصحبة مياه الطّوفان.

وأمَّا كلمة (مَوْجٍ) الواردة في هذه الآية الكريمة، فقد استعملها الله تعالى بمعناها الحقيقي وبدلالتها على سطح البحر الذي تراه الأعين، وكما أورد أصحاب معاجم اللُّغة. فإنْ تناولنا حرف الكاف الذي اعتبره الرّازي حرف تشبيه من قوله تعالى (كَٱلۡجِبَالِ) فإنَّ هذه الكاف لم تُستعمل هنا للتّشبيه، إنَّما وردت اسميَّة وجارَّة لكلمة جبال ومرادفة لكلمة (مثل) وفي موضع رفع أيضاً. كقولك فلانٌ كالليث، ولا تقصد أنَّه يشبه الليث وإنَّما تقصد أنَّه مثل اللّيث في شجاعته (محيط المحيط).

واستناداً إلى المعاني التي أوردناها، وإطاعةً لأمر ربّنا أنْ نتوقَّف فلا نتسرع ولا نأخذ بالمعنى المتبادر لأذهاننا، يصبح معنى هذه الآية الكريمة: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، يصبح معناها أنَّ الأمطار الغزيرة وينابيع الأرض تسبَّبت في حدوث سيلٍ رفع السّفينة عن الأرض، وعادت تجري مع مياه السّيل، وباتجاه جريانه، وعلى سطحه، وهي عزيزةٌ

منيعةٌ، وبدون أي إزعاج لركابها. وهذه الحالة دفعت بنوح عليه السّلام لينادي ابنه الذي كان يقف بمعزلٍ عنه ويراقب مجريات الأمور والذي اعتبر ما كان يحدث شيئاً طبيعياً، ولم يتصوّر أنْ يرتفع مستوى مياه السّيل إلى حدٍّ يغرق معه كل شيء حوله. فابن نوح قد اعتاد رؤية هطول الأمطار في منطقته بغزارة، واعتاد رؤية مياه السّيول تزداد، ولكنْ؛ ليس إلى حدّ الطّوفان الذي ما فتئ نوح يحذّر قومه من حدوثه وقبل حدوثه. وبدليل أنَّه أجاب على أبيه وقال ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الأمر الدّالّ على أنَّ تلك المنطقة كانت منطقة جبليَّة، وإلا فلو كانت أرضهم سهليَّة فما كان ليجيب على أبيه بمثل هذا الجواب.

وهكذا يظهر لعينيّ القارئ معنيان: المعنى الأوَّل هو المعنى المتبادر من هذه الآية الكريمة لذهن قارئها الذي لم يُراع إشارة (قف) ولم يتدبّر الآية بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، والمعنى الثّاني رُوعيت فيه الإشارة المذكورة، وتدبّرناه بهذه المنهجيَّة وتلك الأصول. وعلى حين أوحى المعنى الأوَّل للقارئين أنَّ طوفان نوحٍ قد عمّ أغلب المعمورة، فإنَّ المعنى الثّاني نبّه أذهاننا إلى أنَّ طوفان نوح لم يتجاوز حدود المنطقة التي كان يقطنها قوم نوح عليه السّلام. فلماذا لم يتدبّر المفكّرون القدماء فيما صدر عنهم من تفسير؟ السّبب هو في شيوع أفكار هذه التّوراة المحرّفة والتي كان اليهود يُشيعونها بين أهل ذاك الزّمان، وعلى أنَّها مرجعٌ تاريخيٌّ سماويٌّ، وما كانوا يدرون أنَّها من كتابة كُتَّابٍ عاديين، ولم يستندوا فيما كتبوه إلى حقائق تاريخيَّة.

فإنْ أمعن القارئ نظره فيما قدّمتُهُ له من أمثلة وبتدقيق نظرٍ يكون قد فرّق بين نوعين من أنواع صياغة الآيات القرآنيَّة: النّوع الأوَّل والعائد إلى الأحكام الشّرعيَّة قد صيغ بمعانٍ واضحة الدّلالات، لكنَّها بلاغيَّة لكثرة ما فيها من حذوفٍ بلاغيَّة كالنّصوص القانونيَّة والنّصوص الدّستوريَّة وغيرها المشابهة. أمَّا النّوع الثّاني فهي هذه الآيات التي يتبادر منها لذهن القارئ معنى لا يكون هو المعنى المقصود منها، وإنَّ هذا النّوع الثّاني من الآيات هو الذي يُمثّل في حقيقة الأمر الخصوصيَّة الثّالثة المعجزة التي يمتاز بها هذا القرآن العظيم.

وينبغي أنْ نلاحظ بأنَّ هذه الخصوصيَّة استُعملت في المثال الآنف الذّكر عند الكلام عن حالة معيّنة، وليس عن حُكْم شرعي. وقد عبّر الله تعالى عن الحالة المذكورة بتعبير إنشائي متميّز يتبادر من ألفاظه لذهن القارئ معنى غير مقصود.

الخصوصيَّة الثانية لا تشمل آيات النبوءات:

وهنا يتبادر لذهن القارئ سؤال وهو: هل يصحّ أنْ نُدخل الآيات الكريمة التي تحمل نبوءات مستقبليَّة ضمن هذه الآيات المُتعلّقة بهذه الخصوصيَّة الثّالثة. أقول في الإجابة عن هذا السّؤال إنَّه لا يصحّ ذلك، فالآيات التي تتضمن نبوءات مستقبليَّة لا تأتي مضامينها صريحة كالآيات المُتعلّقة بالأحكام ولا شك، لكنها تتراوح إنشائياً ما بين الحقيقة والمجاز، فقد ترد بعض ألفاظ الآية من هذا النّوع بمعناها الحقيقي، وقد ترد بعض ألفاظها بمعناها المجازي،

لذلك لا يصلح أنْ تشكّل تلك الآيات الحاملة لنبوءات أحد أنواع الآيات العائدة إلى هذه الخصوصيَّة الثّالثة التي نحن بصدد الكلام عنها في هذا المجال.

وإلى القارئ مثالاً واضحاً يؤكّد حقيقة ما ذكرتُهُ له آنفاً. ففي سورة التّكوير على سبيل المثال، استهلّ الله تعالى السّورة بقوله في الآيات الثّلاثة الأولى ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ وما دامت هذه الآيات قد استُهلّت بحرف (إذا) وهو ظرف يتعلّق بالمستقبل، ويتضمّن معنى الشّرط لاختصاصه بالجمل الفعليَّة ومحله النّصب أبداً على الظّرفيَّة، فإنَّ هذا يدلّ على أنَّ هذه الآيات الثّلاثة تحمل نبوءات مستقبليَّة. فهل يصح أنْ نحمّل ألفاظها على معانيها الحقيقيَّة أم نحملها على معانيها المجازيَّة؟

إنَّ القارئ المطَّلع على باب القرائن في اللُّغة العربيَّة يستطيع أنْ يجيب عن السّؤال المطروح فيقول: إنَّ جميع ما في هذا الكون يخضع لقوانين طبيعيَّة قد سنّها الله الخالق لتسيير هذه الأشياء المادِّيَّة، فالشّمس والنّجوم تدور في أفلاكٍ ووفق قوانين تُنظِّم حركتها، فيستحيل أنْ تغيّر الشّمس والنّجوم شيئاً من ذلك وإلا يختل التّوازن الكوني. فلا الشّمس ستتكوّر، ولا النّجوم ستنكدر، ولا الجبال الأوتاد ستسير في يومٍ من الأيام. وإنَّ هذه الحقائق تشكّل في حقيقة أمرها قرائن عمليَّة تؤكّد أنَّ المتبادر للذّهن من هذه الآيات الثّلاثة من معنى لا يصحّ أنْ يكون هو المعنى الحقيقي المراد منها، بل المقصود هو المعاني المجازيَّة. فالملاحظ هو أنَّ الله تعالى سمّى محمداً ﷺ على سبيل المجاز [سراجاً منيراً]. وإنَّ محمداً ﷺ نفسه استعمل لعلماء أمته اسم

(نجوم) وعلى سبيل المجاز وقال: (علماء أمّتي كالنّجوم بأيـهم اقتديتُم اهتديتُم). ومعنى ذلك أنَّ كلمة (سراجاً منيراً) وردت على سبيل المجاز، وليس على سبيل الحقيقة. أمَّا كلمة جبال، فتطلق أيضاً بمعنى مجازي على سادة القوم وزعماؤهم. وعليه؛ فإنَّ هذه الآيات الثّلاثة قد أنبأت عن أمور مستقبليَّة وبلسان مجازي؛ حيثُ أنبأت أنَّه سيأتي زمان على الأمَّة الإسلاميَّة تنحطُّ فيه عقول أبنائها ويتخلّف المسلمون إلى درجة تغيبُ معها أشعة الشّمس المحمديَّة، وأنَّ علماء هذه الأمَّة لن يكونوا في الزّمان المشار إليه والمنبأ عنه علماءً حقيقيين يهتدي الإنسان على أيديهم، وأنَّ زعماء الإسلام السّياسيين لن يكونوا في الوقت المنبأ عنه زعماء مخلصين حقيقيين أيضاً.

وتأكيداً لهذا المعنى سالف الذّكر فقد أتى الله تعالى بعد هذه الآيات الثّلاثة بآيات تحمل نبوءات أيضاً، ولكنْ؛ بألفاظها الحقيقيَّة، ليقترن حدوث ما أنبأت عنه بأحداث النّبوءات الواردة بصياغة مجازيَّة، لذلك راح تعالى يقول بعد الآيات الثّلاث المذكورة: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. فإنْ نحن تدبّرنا قوله تعالى بعد تلك الآيات الثّلاثة من سورة التّكوير وهو ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ نلاحظ حدوث حذف لمضاف فعل (عطلت)، فالقارئ يتساءل عن النّاحية التي تعطّلت معها العشار؟ فإنْ أخذ القارئ بهذه المعاني المجازيَّة للآيات السّابقة وفكّر فيما آلت إليه وسائل النّقل في زماننا وتذكّر بأنَّ الأقدمين سمّو العشار سفينة الصّحراء، ولاحظ اختراع السّيارة والطّيارة والخطوط الحديديَّة وغيرها من أدوات النّقل الحديثة، يدرك من نفسه أنَّ هذا

المضاف المحذوف قد قصد به الإشارة إلى ظهور هذه الوسائل المذكورة زمن تحقق المعاني المجازيَّة للآيات السّابقة وتعطّل العشار عن الاستعمال كأدوات نقل طبيعيَّة كما هو حادثٌ في المناطق الصّحراويَّة من الأرض.

وبهذا الأسلوب نفسه من التّدبّر لكلام الله تعالى، نتدبّر الآية التي بعدها وهي قوله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ فنلاحظ من جديد أنَّه حدث حذفٌ جديدٌ لمضاف فعل (حشرت) ونتساءل كيف ستُحشر الوحوش؟ ونبحث فيما آل إليه حال الوحوش في زماننا. فنلاحظ أنَّ عدداً من أنواع الوحوش في طريقه إلى الانقراض، الأمر الذي دفع المسؤولين في الدّول المتقدّمة إلى احتجاز أراضي واسعة وفي أمكنة متعدّدة وسمّتها حدائق الحيوان، وحشرت فيها بعض تلك الحيوانات التي هي في طريقها إلى الانقراض، وهيّأت لها المناخ والأشجار والمياه التي تناسب حياتها فيها. وهذه الحقيقة تعني أنَّ الله تعالى أنبأ في هذه الآية و بالمعاني الحقيقيَّة للألفاظ وبصياغة بلاغيَّة عن ظهور حدائق الحيوان التي ذكرناها وعن وسائل النّقل التي عددناها زمن تحقق المعاني المجازيَّة للآيات الثّلاثة الأوائل من هذه السّورة.

وبهذا الأسلوب نفسه من التّدبّر لكلام الله تعالى نقوم بتدبّر قول الله تعالى بعدها وهو ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ فكلمة البحار تُطلق أصلاً على الأنّهار العظيمة. ونلاحظ من جديد حدوث حذفٍ بلاغي لمضاف فعل (سجّرت) ونتساءل: كيف تُسجّر الأنّهار؟ ونبحث حولنا؛ حيثُ تجري الأنّهار الكبيرة، فيتبيّن لنا أنَّ الدّول وبسبب تزايد أعداد السّكان في أراضيها سعت لتوسيع رقع الأرض المرويَّة، فحفرت قنوات عن يمين تلك الأنّهار

وعن يسارها ومدّتها إلى مسافات بعيدة عن الأنّهار، ومن ثمَّ سجّرت أي فجّرت مياهها ضمن تلك القنوات المائيَّة، واستطاعت بذلك سقاية آلاف الهكتارات غير المرويَّة. فهذه حقيقة عاصرت تعطّل العشار عن أداء مهمّتها، ورافقت ظهور حدائق الحيوان أيضاً.

وبهذا الأسلوب نفسه نتدبّر قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ لنلاحظ من جديد وجود حذفٍ لمضاف فعل (زوّجت) فنتساءل: وكيف زوّجت النّفوس؟ فنلاحظ أنَّه اخترعت في زماننا أدوات موصلات سلكيَّة ولاسلكيَّة مدهشة ساعدت على اختصار المسافات الأرضيَّة. فقد اخترعوا الهاتف والبرق وغيرها من أدوات الاتّصال التي ساعدت على وصل الإنسان القاطن في قطرٍ معين بإنسانٍ آخر قريب أو صديق من أصدقائه يقطن قطراً آخر من أقطار عالمنا. وبذلك تزاوجت النّفوس بالرّغم من بُعد المسافات بينها، الأمر الذي يدفعنا لنقرِّر بأنَّ الله تعالى حين قال قبل أربعة عشر قرنٍ من الزّمان ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ كان قد أنبأ عن حدوث ظواهر أدوات الاتصال التي ذكرناها وبمعانٍ حقيقيَّة لألفاظها، وليقترن حدوث ذلك مع تحقُّق المعاني المجازيَّة للآيات الثّلاثة الأوائل من سورة الذّاريات. وعلى هذا النّحو نتدبّر ما بعد ذلك من أنباء.

ومن خلال ملاحظتنا لكل ما ذكرناه سابقاً، نستنتج بأنَّ الآيات الحاملة لنبوءاتٍ سماويَّة تتراوح معاني ألفاظها ما بين الحقيقة والمجاز، وترد مصاغةً صياغةً بلاغيَّة. ولا تدخل في باب الآيات ذات الخصوصيَّة الثّالثة التي يتبادر منها ما يخالف المعنى المقصود بها. فآيات الأنباء ترد صريحة

النّصوص، وعلى شاكلة وضوح النّصوص الدّستوريّة والقانونيّة والآيات ذات الأحكام. والفرق بينهم هو أنّها تتراوح ما بين الحقيقة والمجاز ليس إلاّ.

فإلى هنا أكون قد أعطيتُ القارئ فكرةً عن الآيات التي ترد مصاغةً صياغةً بلاغيّة ولا تدخل في باب هذه الخصوصيّة الثّالثة والتي يتبادر من آياتها غير المقصود منها، والتي كنتُ قد وضّحتها بمثال من سورة هود بما يتعلّق بوصف سفينة نوح عليه السّلام وهي تجري فوق سطح مياه السّيل الذي ازداد وطغى على كل شيء. وأعود ثانيةً لأقدّم مثالاً آخر في هذا المجال ترسيخاً لهذه الخصوصيّة الثّالثة في الأذهان. وأقتبس للقارئ هذا المثال المطلوب من الآيات الأوائل من آيات سورة البقرة.

مثال ثاني يثبت وجود الخصوصيّة الثانية:

فقد سبق لي أنْ لفتُّ نظر القارئ إلى الآيات الأوائل التي صيغت صياغة دستوريّة. والتي انتهت عند قوله تعالى ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. فيلاحظ هذا القارئ كيف أنَّ الله تعالى قال بعد تلك الآيات مباشرةً وهو يخبرنا عن عواقب الذين يكفرون بهذا القرآن الكريم وبرسوله الكريم ويقول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

فالإنسان الذي راجع التّفاسير القديمة يتبيّن له أنّه تبادر لأذهانهم من هذه الآيات أكثر من معنى. فمن المفسّرين مَنْ استنبط من هذه الآية الكريمة أنَّ الإنسان قد خُلق مُجبراً على نحوٍ معين، وأنَّ مصيره مقدّرٌ منذ الأزل، فابتعدوا

من جرّاء هذا المعنى عن عقيدة أنَّ الإنسان مخيّرٌ فيما يفكّر فيه ويفعله. وكان لهذا الاعتقاد آثاره الفاسدة على عقول المسلمين وأفعالهم. ومن المفسّرين الذين لاحظوا أنَّ تعاليم الإسلام قد قامت على أساس كون الإنسان حراً فيما يفكر فيه ويفعله، فقد عمد هؤلاء إلى دحض معاني الفريق الأوَّل، ولكنَّهم لم يُفلحوا في ذلك لعدم استنادهم إلى منهجيَّة القرآن وأصول تفسيره.

ولم أجد من داعٍ هنا لنقل تفاسير القدماء بخصوص فهمهم لهاتين الآيتين الكريمتين، وبإمكان القارئ مراجعة ذلك في التّفاسير القديمة، وأكتفي بما لخّصته هنا منها. لذلك أحاول تفسيرها بمنهجيَّة القرآن الكريم وبأصول تفسيره؛ لإثبات أنَّها صيغت وفق الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّالثة التي نتكلّم عنها.

أقول: هذه آية جوابيَّة أجابت القارئ عن مصير فريق (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) بهذا الكتاب السّماوي وبكلام إلهيٍّ شامل الدّلالات. تقولون: وما الذي دعاكَ لتقرير ذلك؟ ففي الإجابة عن سؤالكم ألفت نظر القارئ إلى أنَّ الله تعالى قد استهلّ هاتين الآيتين بحرف (إنّ) المشبّه بالفعل الذي ينصب المبتدأ ويرفع الخبر، ومن دون مقدّمات تمهّد لهذا البيان المصيري. فما هو مفعول (إنّ) في هذه الآية، ومَنْ هم (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)؟

فمن المعروف هو أنَّ الجملة العاديَّة تتألّف من مبتدأ وخبر. فأنت تقول عبد الرّحمن قائم في المحراب يصلّي. وقد يطرق الباب ويسألك جارك عن عبد الرّحمن. فلا ينبغي أنْ تقول له عبد الرّحمن يصلّي، بل عليكَ أنْ تأتي بحرف (إنّ) الجوابيَّة فتدخلها على هذه الجملة وتقول: إنَّ عبد الرّحمن يصلّي أو إنَّه قائمٌ في المحراب للصّلاة، ويكون حرف إنَّ في هذه الحال قد ساعد

على الإجابة عن السّؤال من جهة، وأكّد من جهةٍ أخرى وجود عبد الرّحمن يُؤدّي فريضة الصّلاة. فإنْ ألحّ عليكَ هذا أنْ تخبره بالحقيقة، فتُدخل اللام وتقول: إنَّ عبد الرّحمن لقائمٌ في المحراب يصلّي، وتكون قد أدخلتَ اللام على خبر المبتدأ لتأكيد دلالته. ومن خلال هذه الحالات الثّلاثة الآنفة الذّكر ندرك بأنَّ الله جلّ شأنه حين استهلّ هذه الآية الكريمة وبدون مقدّمات بحرف التّأكيد (إنّ) وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. فقد أجاب عن سؤال مفترض حول مصير فئة الذين كفروا برسالة السّماء في هذه الحياة الدّنيا بشكلٍ عام وبدون تخصيص. أمّا لو كان الله جلّ شأنه قد أورد الآية بصيغة المبتدأ والخبر. فما كان له أنْ يورد حرف التّأكيد (إنّ) ولكان استعمل صيغة المضارع وليس صيغة الماضي، ولكان قال: مَنْ يكفر بهذا الدِّين سواءٌ عليه أ أنذرته أم لم تنذره لا يؤمن بعدها أبداً، ولكان تناقض هذا الكلام مع واقع النّاس أنفسهم، فمنهم مَنْ كفر في بداية الأمر، ومن ثمَّ اهتدى، كعمر بن الخطاب وغيره من النّاس الذين كفروا بهذا الدِّين في البداية، ومن ثمَّ هداهم الله تعالى إلى قبول الإسلام. وعليه؛ فإنَّ قوله تعالى (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) يُعرب مبتدأ. وإنَّ قوله تعالى آخر الآية (لَا يُؤْمِنُونَ) هو خبر هذا المبتدأ. وتكون جملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ جملة اعتراضية ليس إلاّ، فلو كان الله تعالى قد قال [إنَّ الذين كفروا لا يؤمنون] يكون قد أتى بالمبتدأ والخبر معاً. وبعد الذي بيّنته أتحوّل لبيان سبب قوله تعالى (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) وبصيغة الماضي (كفروا).

فمن المعلوم أنَّ صيغة الفعل الماضي تحمل معنى المضيّ والحدوث والجزم بما حدث. وعليه؛ فإنَّ الله تعالى يخبر هنا عن حال الذين كفروا على صورةٍ لا رجعة معها وماتوا بعد كفرهم بالإسلام، ولا يخبر عمّن ما

يزال يحقّق ليتعرف إلى حقيقة هذا الدِّين الحنيف. وكأنَّ الله جلّ شأنه حين يشير من خلال قوله (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) يشير إلى الذين عادوا مقلّدين تقليداً أعمى لسابقيهم، فلم يعودوا يستعملون عقولهم، ولا عادوا يصغون إلى دعاة هذا الدِّين، ولا عادوا يبصرون ما يسفر عنه صراع هذا الدِّين مع أتباع الأديان السّابقة. والدّليل الذي يؤكّد مصداقيَّة هذا المعنى هو أنَّ الله تعالى راح يقول بحقّ هؤلاء (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) والذين باتوا في تلك الحالة ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ باتوا في حالة وصفها الله تعالى وقال في الآية الثّانية ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فربط الله تعالى من خلال قوله هذا ما بين دلالات هاتين الآيتين الكريمتين من جهة وشرح دلالة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ووضّح ما ينتظر هؤلاء في الحياة الدّنيا وفي الآخرة من ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

فكيف شرح الله تعالى دلالة قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾؟ فلقد أتى جلّ شأنه في الآية الكريمة الثّانية خلال قوله ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أتى بكلمة (قلوبهم) وهي جمع كلمة قلب، وقد كنّى بالقلب عن العقل من منطلق أنَّ قلب الإنسان ما دام ينبض تستمرّ حياة صاحبه. وأنَّ عقل الإنسان ما دام يعمل ويفكّر يستمرّ تطوُّر الإنسان وتقدّمه، وإلا فإنْ أحجم الإنسان عن استعمال عقله يصاب هذا الإنسان بالتّحجّر والتّخلّف والانحطاط. هذا؛ وإنَّ النّاس الذين كفروا بهذا الدِّين الحنيف وارتضوا الكفر على الإيمان. لا ينتبهون إلى هذا الموقف إلا إذا أهملوا استعمال عقولهم وتركوا التّفكير فيما طرحه هذا الدِّين من طروحات. فهذا هو ما عبّر الله تعالى عنه بقوله ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ثمَّ إنَّ النّاس الذين كفروا بهذا الدِّين الحنيف وارتضوا

الكفر على الإيمان لا يعودون يريدون أنْ يستمعوا لكل ما يمتُّ إليه بصلة فيعطّلون أسماعهم. وقد عبّر الله تعالى عن هذه الحقيقة وقال ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وأخيراً؛ فإنَّ الذين كفروا يعود همُّهم هو التّغاضي والتّعامي عن تطوُّرات الأحداث التي هي في صالح المؤمنين. وقد عبّر الله تعالى عن حالتهم تلك وقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾. فهذه المضامين التي اشتملت عليها هذه الآية الثّانية شرحت في حقيقة الأمر معنى قوله تعالى في الآية الأولى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فلماذا قرَّر الله تعالى حقيقة (ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) بعد أنْ فرغ من الآيات التي حدّدت منهاج عمل المؤمنين مباشرةً؟ قرَّر ذلك تمهيداً، وليُشَكِّل مضمون هاتين الآيتين مرجعيَّةً لهذه الأوصاف جميعها التي سيصف الله تعالى بها الكُفَّار فيما بعد. وعلى سبيل المثال؛ فإنَّه تعالى قال في الآية (22) من سورة الأنفال ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقد قصد بكلمة الدّواب كل إنسان يدبّ على هذه الأرض كالأصمّ والأبكم الذي لا يستعمل عقله. وقال تعالى في الآية (55) من سورة الأنفال نفسها ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومن باب أنَّ الذين كفروا عادوا بعد أنْ أهملوا استعمال عقولهم وحواسهم دون معرفة الحقيقة عادوا كالدّواب التي تدبّ على الأرض والتي هي أشرّ الدّواب. ففسّر تعالى الآية (22) بهذه الآية (55) وفي السّورة نفسها أيضاً.

وما دام الله جلّ شأنه قد أتى بهذه الآيـة مـن سـورة البقـرة علـى سـبيل الإجابة عمّـن يسـأل عـن عاقبـة الذيـن كفـروا التـي سـيؤولون إليـها في نهايـة المطاف. فنلاحظ أنَّه جلّ شأنه أتـى في الفقـرة الأخـيرة التـي وصفـت حالـهم بواو العطف وأضاف يقول: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. فكلمة عـذاب تعنـي أصلاً كلّ ما شقّ على الإنسان ومنعه من الحصول على مراده (أقربّ المـوارد) أضف إلى ذلـك أنَّ كلمـة (عظيـم) أشـارت إلـى أنَّ مـا سـيُمنع عـن هـؤلاء، سيتسبَّب لهم بإيجاعٍ شديدٍ، ومن بـاب اشـتقاق كلمـة العـذاب مـن قولـك: عذّبته، أي حرمته من عذوبة حياته (مفردات الرّاغب). وعلى هذه الصّـورة يكون الله جلّ شأنه قد نبّـه أذهاننـا مـن خـلال هـذه الآيـة الكريمـة إلـى حقيقـة العـذاب الـذي ينتظـر (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) وهـو الحيلولـة دون حصولـهم علـى مـا يشتهون الحصول عليه من جهة. ومن جهة أخرى، فإنَّ هذا الحرمان سيؤدّي إلى حرمانهم من طعـم الحيـاة الدّنيـا وطعـم الحيـاة الآخـرة، وبمعنـى أنَّـهم لا يعودون لائقين لمعرفة ربّهم ومشاهدة أنواره. وهذه الحقـائق تبـدو واقعيَّـةً إذا اعتبرنا أنَّ المقصد من حياة الإنسان هو التّعرّف على ربّه عـزَّ وجـلَّ. فإنْ هـو حرم من ذلك في الحياة الدّنيا والآخـرة، فـلا يعـود هنـاك عليـه بليَّـة أكـبر ولا أعظم من هذا العذاب.

وعليه؛ أكـون قـد قدّمـتُ للقـارئ مثـالاً ثانيـاً يشـرح هـذه الخصوصيَّـة القرآنيَّة الثّالثة، والتي تتمثَّل في ورود آيات قرآنيَّـة يتبـادر منـها لذهـن القـارئ معنى لا يكون هـو المعنـى المقصـود مـن تلـك الآيـات الكريمـة. فالمثـال الأوَّل اشـتمل علـى وصـف أحـوال حـوادث ماضيـة، والمثـال الثّـاني اشـتمل علـى

وصف أحوال مَنْ لا يستعملون عقولهم ولا حواسّهم التي ميّزهم الله تعالى بها من الكائنات الغريزيَّة .

مثال ثالث يثبت وجود الخصوصيَّة الثانية:

وأقدم للقارئ الكريم مثالاً ثالثاً مقتبساً من الآيات التي حملت هذه الخصوصيَّة الثّالثة القرآنيَّة ويدور مضمونها أيضاً حول وصف أحوال ، وليس بيان أحكام أو نبوءات . وهذا المثال الثّالث أقتبسه من سورة البقرة نفسها ومن الآية (62) التي قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ألا إنَّ هذه الآية الكريمة هي من جملة الآيات التي أشكل فهمها على كثير من المفسّرين القدماء ؛ حيثُ تبادر منها لأذهانهم منها عدَّة معاني تتناقض ومعطيات آياتٍ أخرى . فذهب ذهن بعضهم إلى أنَّ المقصود من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الإشارة إلى الذين آمنوا قبل بعثة محمد ﷺ كقس بن ساعدة والرّاهب بحيرا وغيره كورقة بن نوفل المعروفين . وذهب ذهن بعضهم من إشارة قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى فئة المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم . وذهب ذهن بعضهم إلى أنَّ القصد من ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الإشارة إلى الذين آمنوا من أصحاب النّبي ﷺ قبل نزول هذه الآية الكريمة ، وأنَّ هؤلاء جميعهم من النّاجين . على حين لو أنَّ المفسّرين القدماء رحمهم الله كانوا مطّلعين على منهجيَّة القرآن الكريم

وأصول تفسيره لكانوا تدبّروا هذه الآية الكريمة من ذاك المنظار، وتجنّبوا أنْ يقعوا في تلك الأخطاء المشار إليها.

وقبل أنْ أقوم بتدبّر هذه الآية الكريمة بأصول تدبُّرها، أرى من المناسب أنْ أصحّح ما فهمه بعضهم من دلالات الكلمات الواردة فيها ككلمة (هادوا، نصارى، صابئين) فالشّائع بين النّاس من معانيها يخالف أصل وضع هذه الكلمات، ويخالف معطيات تواريخها أيضاً. وعليه؛ أتناول كلمة (وَٱلَّذِينَ هَادُواْ). فإنْ نحن عدنا إلى اشتقاقها كلفظ عربي، فقد اشتقّت كلمة هادوا من قولك: هاد الرّجل بمعنى تاب ورجع إلى الحقّ. وتقول هاد الرّجل في منطقه إذا أدّى ما أراد بيانه بسكونٍ ورفق. وهائد اسم فاعل ويجمع على هود (أقرب الموارد) وعليه؛ نسأل مَنْ هو اليهودي؟ ومن باب أنَّ قوله تعالى (هادوا) جمع (هادَ) بمعنى أصبح يهودياً. فقوله تعالى (هادوا) أي الذين أصبحوا يهوداً.

وينبغي أنْ نعود إلى أصل كلمة (يهودي)، وألا نظنّ بأنَّ المقصود من (هادوا) اشتقاق هذه الكلمة ممَّا ذكرناه من اشتقاق. فإنْ نحن استعرضنا الآيات التي تكلّمت عن قوم موسى نلاحظ بأنَّ الله جلّ شأنه كان يستعمل للقوم المذكور اسم (بنو إسرائيل)، نسبة إلى يعقوب عليه السّلام الملقّب بإسرائيل. وقد ظلّت هذه التّسمية تُستعمل لقوم موسى عليه السّلام إلى ما قبل هجوم ملك بابل على فلسطين وهدمه لهيكلهم وسبيه إياهم إلى بلاده. فلما سمح لهؤلاء المسبيين بالعودة إلى فلسطين، ما عادوا يلقّبون ببني إسرائيل، بل سمّوا وقتئذٍ (يهوداً). والسّبب في ذلك هو أنَّهم لم يسترجعوا

الأرض جميعها التي كانوا يقطنونها، بل عادوا إلى ما يسمّونه في أيامنا هذه منطقة (اليهوديَّة).

فالذي يتابع إذاعتهم في أيامنا هذه يسمعهم يقسّمون فلسطين إلى منطقتين هما (يهودا والسّامرة). فكلمة يهودا جاءت نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السّلام الذي تكاثر بسرعة وانتشر نسله فيما يسمّونه بيهودا نسبةً إليه. أمَّا نسل (بن يامين) وهو الابن الآخر من أبناء يعقوب؛ فقد انتشر نسله فيما يسمّونه اليوم بالسّامرة. فمن هذا ندرك بأنَّ نصّ هذه الآية التي نحن بصدد تدبّرها قد استعمل كلمة (هادوا) إشارةً إلى فريق بني إسرائيل الذين عادوا من السّبي من العراق، وسكنوا منطقة اليهوديَّة. وإلا فلو كان الله جلّ شأنه قد قصد قوم موسى عليه السّلام، لكان استعمل لهم الكلمات نفسها المستعملة في الآيات السّابقة وهي (بنو إسرائيل). وهذا هو السّبب في أنَّ جيران هؤلاء العائدين راحوا يطلقون عليهم اسم (اليهود) وليس بني إسرائيل. واستمرَّ هذا الأمر حتَّى أيامنا هذه. فاليهود المعاصرون هم المغضوب عليهم نتيجة كفران (بنو إسرائيل) نعمة ربّهم عليهم المرَّة تلو المرَّة وإهمالهم العمل بصورة صحيحة على تعاليم نبيّهم موسى، فانتهى أمرهم إلى السّبي المعروف.

أمَّا كلمة (ٱلنَّصَرَىٰ) الواردة في نصّ هذه الآية الكريمة التي أوردناها فجمعُ كلمة (نصرانيّ). ولا ينبغي أنْ يظنّ القارئ بأنَّ الله تعالى استعمل هذه الكلمة هنا للفتية الذين آمنوا بالمسيح عيسى بن مريم. فأولئك كانوا مؤمنين موحّدين، لكنَّ المقصود هنا من كلمة (ٱلنَّصَرَىٰ) المسيحيين الذين اعتقدوا بنسبة المسيح إلى مدينة النّاصرة في فلسطين. فقد ورد في إنجيل متّى

الإصحاح الرّابع الفقرة 13 قول كاتبه (وبلغ يسوع خبر اعتقال يوحنا فلجأ إلى الجليل، ثمَّ ترك النّاصرة، وجاء كفر ناحوم على شاطئ البحر. . .) وقد ورد في إنجيل مرقس 1/ 9 قول كاتبه (وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل، واعتمد على يد يوحنا في الأردن. . .). وقد ورد في إنجيل لوقا الإصحاح 1/ 37 وحسب قول كاتبه (وفي الشّهر السّادس أرسل الله الملاك جبرائيل إلى مدينة في الجليل اسمها النّاصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. . .) وقد كتبوا في الحاشية (النّاصرة غير معروفة في العهد القديم، وهي قريةٌ لا شأن لها، ويُسمِّيها (لوقا) مدينة كسائر قرى بيت لحم. . .). وورد في إنجيل يوحنا الإصحاح 1/ 46 قول كاتبه (. . وهو يسوع ابن يوسف من النّاصرة فقال له نتنائيل: أمِنَ النّاصرة يمكن أنْ يخرج شيءٌ صالح؟ ...). فالمهمّ في الأمر هو أنَّ الله جلّ شأنه لم يقصد في هذه الآية الكريمة أنصار عيسى من الحواريين، بل قصد هؤلاء المسيحيين المنحرفين المعاصرين. علماً بأنَّ جمعيات الكتاب المقدّس في المشرق الذين طبعوا ما يسمّونه العهدين القديم والجديد منقّحين وبصياغةٍ جديدة في عاصمة لبنان بيروت قد اعترفوا وكما أسلفتُ ذكره (بأنَّ مدينة النّاصرة غير معروفة في العهد القديم، وهي قريةٌ لا شأن لها، على حين سمّاها كاتب إنجيل لوقا كسائر قرى بيت لحم). وإنَّ اعترافهم هذا يُشَكِّل طعناً فيما كتبه كاتب إنجيل لوقا المذكور والذي تسبَّب في شيوع اسم المسيح النّاصري وإطلاق اسم النّصارى على المسيحيين.

أضف إلى ذلك أنَّ كاتب إنجيل متّى أورد في الإصحاح الثّاني الفقرة (22) يقول (وما إنْ توفي هيرودس حتّى تراءى ملاك الرّبّ في الحلم ليوسف

في مصر وقال له : قم ، فخذ الطّفل وأمه ، واذهب إلى أرض إسرائيل ، فقد مات مَنْ يريد إهلاك الطّفل . فقام ، فأخذ الطّفل وأمه ، ودخل أرض إسرائيل . لكنَّه سمع أنَّ (أرخلاوس) خلف أباه (هيرودس) على اليهوديَّة ، فخاف أنْ يذهب إليها . فأوحي إليه في الحلم ، فلجأ إلى ناحية الجليل ، وجاء مدينة يقال لها النّاصرة ، فسكن فيها ليتمّ ما قيل على لسان الأنبياء : إنَّه يُدعى ناصرياً .) .

فكيف يقول كاتب إنجيل متّى في هذا النّصّ (فسكن في النّاصرة ليتمّ ما قيل على لسان الأنبياء : إنَّه يُدعى ناصرياً) وفي وقت يعترف الذين طبعوا العهد القديم المشتمل على أقوال أنبياء بني إسرائيل ونبوءاتهم ، يعترفون بأنَّ العهد القديم يخلو من كلمة (النّاصرة) ، فلم يرد على لسان نبيٍّ من أنبياء إسرائيل : (إنَّه يُدعى ناصرياً)؟

فهذا التّناقض إنْ دلّ على شيء ، إنَّما يدلّ على أنَّ شيوع المسيح النّاصري وشيوع اسم النّصارى على المسيحيين هو من ابتداع كَتَبَة هذه الأناجيل . وهذا تأييد لورود كلمة (ٱلنَّصَـٰرَىٰ) في هذه الآية 63 من سورة البقرة ، وبمعنى أنَّها تشير إلى هؤلاء المنحرفين عن عقائد الفتية الموحّدين الذين آمنوا بالمسيح عيسى بن مريم .

ثمَّ إنَّ ما ورد في هذا النّصّ الذي اقتبستُهُ للقارئ من إنجيل متّى يتضمّن أغلوطةً تاريخيَّةً أخرى حين زعم أنَّ (أرخلاوس) خلف والده (هيرودس) على الحُكْم بعد موته . وقد كشف الغطاء عن هذه الأغلوطة الحاشية الثّالثة من الطّبعة المذكورة والتي أوردوا فيها يقولون : (إنَّ أرخلاوس المذكور كان مُوظَّفاً رومانياً ما بين السّنة الرّابعة قبل الميلاد وإلى السّنة السّادسة بعد

الميلاد، وقد خلعه القيصر من هناك بناءً على شكوى وردت من اليهود أنفسهم ضدّه). وعليه؛ فإنَّ أرخلاوس المذكور في نصّ إنجيل متّى لم يكن ابناً لهيرودس، ولم يخلفه على الحُكْم من بعده. وباعتراف هؤلاء أنفسهم. فهذا هو تاريخ نشوء كلمة نصارى وناصري. ولا علاقة لكلمة (ٱلنَّصَـٰرَىٰ) الواردة في هذه الآية سالفة الذّكر بقول الحواريين ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾.

الصَابئين: وإنَّ كلمة الصّابئين الواردة في هذه الآية الكريمة هي كلمةٌ مستعارةٌ لجماعاتٍ دينيَّة منحرفة قديمة. وليست نابعةً من اشتقاقٍ لغوي عربي. ففي معجم (محيط المحيط) قال: صبأ الرّجل يصبأ معناه خرج من دينٍ إلى دينٍ آخر. والصّابئ اسم فاعل يجمع على صابئون. والصّابئون هم فرقةٌ من النّصارى يعظّمون الكواكب تعظيم المسلمين للكعبة. وقيل هم قومٌ يزعمون أنَّهم على دين نوح.

فمن خلال ما أورده (محيط المحيط) يتبيّن أنَّ كلمة (صابئون) أُطلقت على أكثر من طائفة إلى جانب أنَّ لها اشتقاقها اللّفظي الذي استعمله أهل مكّة للمسلمين الأوائل؛ حيثُ كانوا يقولون صبأ محمد، أي ارتدّ عن دين آبائه، وبسبب أنَّ تسمية الصّحابة مسلمين لم تكن شائعة في ذاك الحين.

والذي يهمّنا هنا هو أنَّ كلمة (ٱلصَّـٰبِـِٔينَ) الواردة في هذه الآية من سورة البقرة لم تستعمل باشتقاقها اللُّغوي، بل أُطلقت على الطّوائف الأخرى غير اليهود والنّصارى، خصوصاً على فرقة النّصارى التي عظّمت الكواكب، والتي أشار إليها معجم (محيط المحيط). فمن أين ولماذا تولّدت هذه الطّائفة النّصرانيَّة المذكورة التي راحت تعظّم الكواكب؟ نستطيع الإجابة

عن هذا السّؤال إذا عدنا إلى ما كتبه كاتب إنجيل متّى في الإصحاح الثّاني قال (ولما وُلد يسوع في بيت لحم اليهوديَّة في أيام الملك هيرودس إذا مجوسٌ قدموا أورشليم من المشرق وقالوا: أين ملك اليهود الذي ولد؟ فقد رأينا نجمه في المشرق، فجئنا، لنسجد له).

وقد علّق الذين طبعوا هذه الأناجيل في بيروت ضمن الحاشية رقم2 أنَّه كان لكلمة مجوس اليونانيَّة معانٍ مختلفة: كَهَنَة، فُرْس، سَحَرَة، ودعاة دينيين ومشعوذين ولم ترد في التّرجمة اليونانيَّة للكتاب المقدّس إلا في سفر دانيال 2/ 2. وقد تدلّ هنا على منجمين من بابل لربُّما كانوا على صلة بالمسيحيَّة اليهوديَّة. فمن خلال معطيات هذه الحاشية التي أوردناها يتبيّن وجود علاقات قديمة كانت تربط ما بين طائفة عراقيَّة نواحي بابل كانت تعظّم النّجوم وما بين اليهود القاطنين في اليهوديَّة في فلسطين أولئك الذين عادوا من سبي بابل وقبل بعثة عيسى عليه السّلام. أمَّا لماذا سُمّيت تلك الطّائفة باسم (صابئين)؟. فمن المعروف أنَّ العربّ هاجروا من شبه جزيرة العرب على دفعات. ومن تلك الدّفعات هاجر يمنيون من اليمن بعد انهدام سد مأرب المشهور إلى أرض الحجاز، ومن ثمَّ إلى بابل. فسُمّي أولئك اليمنيون يوم ذاك سبئيين ومن ثمَّ تحرفت الكلمة إلى صابئين ولا ندري أكثر من ذلك من تاريخ نشوء كلمة (صابئون). وإنَّ ما يقوّي هذا الرّأي هو أنَّ (سبأ) كان يحكمها امرأة تعبد الشّمس والنّجوم كما هو وارد في كتاب الله عزَّ وجلَّ. فلا يُستبعد أنْ يكون صابئو من بابل أتباع مملكة بلقيس. وقد تكون كلمة صابئة أصلها سابئة، وهي الجماعة المهاجرة من منطقة سبأ في اليمن كما ذكرنا.

والمهمّ في الأمر هو أنَّه لا يُعقل أنْ يكون الله تعالى قد استعمل كلمة (صابئين) باشتقاقها اللُّغوي وبمعنى المرتدّين عن دين آبائهم. فلا يكون لها عندئذ تخصيصٌ بطائفة معينة. وعلى هذه الصّورة أكون قد صحّحت المفاهيم الشّائعة خطأ بشأن الكلمات المستعملة في هذه الآية من سورة البقرة، وأتوجّه الآن لتدبّرها بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، للإحاطة بمعانيها الحقيقيَّة، والتي لا تتّفق مع ما تبادر منها لأذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله تعالى.

فأوَّل ما نلاحظه هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استهلّ هذه الآية الكريمة بحرف إنَّ المشبّه بالفعل، والذي يُستعمل بمعنى الحال في حال دخوله على الفعل الماضي، للتّأكيد من جهة وللاختيار من جهةٍ أخرى. وهي حقيقة كنتُ وضّحتها حين تكلّمتُ عن المثال الذي استقيته من الآية (20) من سورة البقرة من قبل. وعليه؛ فإنَّ الله تعالى حين قال هنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فقد قصد كلّ مَنْ آمن بالإسلام ديناً، ولم يرتدّ عنه ما دام حياً. وحين أضاف وقال: (واليهود) فقد قصد من هذه الكلمة الذين عادوا من سبي بابل، وقطنوا منطقة اليهوديَّة، وهم سبطا الكَتَبَة والفرّيسيين من أسباط إسرائيل. وحين أضاف تعالى وقال (ٱلنَّصَرَىٰ) فقد قصد المسيحيين من أصحاب عقيدة التّثليث وليس الفتية الموحّدين الذين آمنوا بالمسيح عليه السّلام في حياته. وحين أضاف تعالى وقال (ٱلصَّٰبِـِٔينَ) فقد قصد الطّوائف من غير اليهود والمسيحيين ممّن عاصروا نزول هذا القرآن المجيد، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم أتباع دين من الأديان. وحين أضاف تعالى هذه الكلمة (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) فقد قصد الطّوائف الدِّينيَّة المتواجدة في العالم غير اليهود وغير النّصارى ومن غير المسلمين.

ونُجمل ونقول إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أتى بهذه الآية هنا على سبيل إعادة الأمل لهذه الطّوائف التي ذكرناها من يهود ونصارى وصابئة، وهو يخاطبهم ويقول لهم لا تقنطوا من رحمة الله تعالى، فأنتم والذين آمنوا سيّان في نظر ربّكم، إنْ أنتم آمنتم على النّحو الذي آمن به هؤلاء المؤمنون، فمَنْ آمن بالله، وقام بما يترتّب عليه هذا الإيمان من مسؤوليات عمليَّة، ومَنْ آمن باليوم الآخر وما يترتّب عليه من مسؤوليات عمليَّة يصبح في رعاية ربّه، فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، شرط أنْ يعمل صالحاً بمعنى أنْ يتوفّر في عمله عنصر الصّلاحيَّة زماناً ومكاناً.

فما هو مبرّر الإتيان بمضمون هذه الآية الكريمة خلال كلام الله تعالى عن بني إسرائيل وفي هذا الموضع بالذّات؟ فلا يعرف الجواب إلا بعد العودة إلى سياق هذه الآية الكريمة.

إنَّ الله جلّ شأنه قال قبلها وهو يخاطب بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ ولما كان قول الله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُدخل اليأس في قلوب اليهود الذين عاصروا نزول هذا الكلام الإلهي، فلقد اقتضت حكمة الله ورحمته

التّخفيف من وقعه في نفوسهم، وفتح باب الأمل أمام أعينهم لتقبُّل الإسلام ديناً، فأتى تعالى بهذه الآية المعترضة لتحقيق هذا الغرض المقصود ولصالح اليهود وسواهم من الطّوائف المعاصرة لهم. فمن خلال جميع ما توصلنا إليه من معانٍ ودلالاتٍ عظيمة حملتها لنا هذه الآية الكريمة يتّضح لنا زيف ما تبادر منها لأذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله تعالى. كما يثبت وجود آياتٍ قرآنيَّة يتبادر منها معنى لا يكون هو المقصود منها حقيقة.

مثال رابع يثبت وجود الخصوصيَّة الثانية:

وإلى القارئ مثال أخير يؤكّد وجود هذه الخصوصيَّة الثّالثة في كلام الله عزَّ وجلَّ. وأقتبس هذا المثال الجديد من الآيات القرآنيَّة التي تكلّمتْ عن قصة لوط مع قومه.

فالقرآن الكريم أخبرنا قبل ذلك بمجيء رسل الله عند إبراهيم عليه السّلام وبإبلاغهم إياه بنبأ إهلاك قوم مدينة سدوم التي رفضت تقبُّل ما دعاهم إليه لوط عليه السّلام بأمر ربّه عزَّ وجلَّ. وأخبرنا كيف أنَّ الرّسل المذكورين وصلوا سدوم واستضافهم النّبي لوط في داره، وفي وقتٍ كان أهل سدوم قد منعوه من استضافة الضّيوف الغرباء في داره خشيةً أنْ يكونوا من أعدائهم، ويحاولو الغدر بهم في فترة الضّيافة. كذلك أخبرنا القرآن المجيد بأنَّ أهل سدوم علموا بقدوم هؤلاء الضّيوف. فلم يتملكوا أنفسهم وهُرعوا إلى دار لوطٍ لمحاسبته عمّا فعل ولمخالفته قوانين مدينتهم. وإنَّ الله تعالى راح يعبّر عن تلك المرحلة من القصّة ويقول في الآية (78) من سورة هود: ﴿وَجَآءَهُۥ

قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ .

فالقارئ الذي طالع التّفاسير القديمة يتبيّن له أنَّ المفسّرين القدماء قد تبادر لأذهانهم من هذه الآية الكريمة بأنّها تخبرنا بأنَّ أهل سدوم ما إنْ علموا بقدوم ضيوفٍ على لوطٍ وأنَّ على وجوههم مسحة من الجمال وثيابهم نظيفة وفي منتهى الجمال، إلاّ وأسرعوا إلى دار لوطٍ ليفعلوا الفاحشة مع ضيوفه. وإنَّ قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ مباشرةً قد رسخ في أذهان المفسّرين القدماء ما تبادر لأذهانهم من إسراع هؤلاء لفعل الفاحشة. فلمّا قرؤوا قوله تعالى في الفقرة الثّالثة من هذه الآية وعلى لسان لوطٍ عليه السّلام ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فهموا من قوله هذا أنَّه عليه السّلام رجاهم أنْ يتمنّعوا عن فعل الفاحشة مع ضيوفه، وعرض عليهم بناته أو بعض بنات قومه بدلاً عن ضيوفه، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من المعنى الفاسد، بل فهموا من قول لوطٍ عليه السّلام في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهو قوله ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أنَّه عليه السّلام قد وبّخهم من خلال قوله هذا واتّهمهم بالطّيش وعدم الرّشاد. فهل صحّ ما تبادر من معنى لأذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله من هذه الآية الكريمة ؟ فهذا السّؤال لا يُجاب عنه إلا إذا تدبّرنا هذه الآية الكريمة بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

إنَّ فعل | يهرعون إليه | قد فهم منه المفسّرون القدماء دلالته على إسراع قوم لوطٍ إلى داره، على حين أنّه ورد في معجم (محيط المحيط) أنَّك

إذا قلت هُرِع فلانٌ معناه أنَّه مشى مضطرباً وغير مرتاحٍ إلى ما هو ذاهبٌ إليه، وإنَّ هذا المعنى لا يتّفق مع المعنى الذي تبادر من كلمة (يُهرعون) لأذهان القدماء، فلو كان مقصد أهل سدوم فعل الفاحشة لأتوا مسرعين فرحين، وليس مضطربين. فهذا أوَّل خطأٍ أوقعه المتبادر لأذهانهم من هذه الآية الكريمة من كلمة (يُهرعون). والحقيقة هي أنَّ قوم لوط أتوه يُهرعون ومضطربّين لسماعهم خبر استضافة النّبي لوط عليه السّلام للضّيوف، فقد كان الدّاعي على اضطرابهم أنَّهم كانوا منعوه من ذلك، ومع ذلك خالف أنظِّمتهم، واستضاف هؤلاء الرّسل عنده. والدّليل على مصداقيَّة ما ذكرتُهُ هو ما أوردته الآية (70) من سورة الحجر ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾؟ فلوط عليه السّلام بالرّغم من هذا النّهي المشار إليه فقد خالف واستضاف رسل الله الذين قدموا عليه.

ونتدبّر الفقرة الثّانية التي قال تعالى فيها ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فلم يفهم القدماء دلالتها الحقيقيَّة أيضاً؛ حيثُ تبادر منها لأذهانهم أنَّ الله تعالى أخبر في هذه الفقرة بأنَّ قوم لوطٍ كانوا من قبل يفعلون الفواحش، مع أنَّهم لو انتبهوا إلى ورود فعل (يعلمون) وليس فعل (يفعلون) لما كانوا قد وقعوا في هذا الفهم الخاطئ، ذلك لأنَّ فعل (يفعل) دلالته محدودة في إطار فعل معيّن. على حين أنَّ فعل (يعمل) تشمل دلالته أفعال الجوارح والقلوب. أ فلم نلاحظ كيف أنَّ الله تعالى حين أراد التّعبير عن فعلٍ معيّن قال ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾؟ فجملة ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ هي جملةٌ عارضةٌ وإلزاميَّة المضمون وقد نبّه

تعالى من خلالها إلى أنَّ هؤلاء الذين هُرعوا لمحاسبة نبيّه لوط عليه السّلام نسوا أنَّهم هم أنفسهم دأبوا على مخالفة الأنظّمة والقوانين المرعيَّة، وجاءوا يحاسبون مَنْ كان في حالة اضطرار، فكلمة السّيئات جمع سيئة، والسّيئة تعني مقدّمات الفاحشة كالفجور والقتل والضّرّ ليس إلا.

أمَّا قول الله تعالى على لسان نبيه لوط عليه السّلام ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾ فإنَّ هذه الفقرة التي تبادر منها لأذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله بأنَّ لوطاً قد قدّم بناته لأهل سدوم ليفعلوا معهنّ الفاحشة أو مع بنات بلدتهم بدلاً من أنْ يفعلوها مع ضيوفه، وهذا المعنى يخالف الحقيقة التّاريخيَّة والمنطق العقلي. فقد ورد في القصة التّوراتيَّة أنَّ لوطاً كان قد زوّج بناته لشبابٍ من أهل بلدة سدوم، ولم يبق في داره إلا هو وزوجته. ثمَّ إنَّ منطق العقل لا يسلّم بأنْ يعرض نبيّ الله مثل هذا العرض المزعوم.

هذا؛ ولقد أثبتُّ حين قيامي بتفسير سورة هود بأنَّ لوطاً عليه السّلام قصد من قوله المذكور تنبيه أذهان قومه الذين جاءوه يُهرعون بأنَّه كان قد زوّج بناته من شبابهم فهل يُعقل أنْ يصبح أهل سدوم أنسباء له، ومن ثمَّ يتآمر مع ضيوفه ليغدر بهم؟ وأنَّ مثل هذا الظّن لا يظنّه إلا مَنْ فقد عقله وتفكيره. وكأنَّ لوطاً حين قال قوله المذكور يكون كمَنْ قدّم بناته المتزوّجات من شباب قومه رهائن تكفي للتّدليل على أنَّه عليه السّلام لن يتآمر ضدّ أهل سدوم.

ويبقى علينا أنْ نوضّح دلالة قول لوط عليه السّلام ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِى ضَيۡفِىٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ هذا الكلام الذي تبادر منه

لأذهان المفسّرين القدماء بأنَّ لوطاً قدّم بناته ليفعلوا بهن الفاحشة كيلا يخجل أمام ضيوفه إنْ هم أقدموا على فعل الفاحشة معهم. ولم ينتبهوا إلى أنَّ النّبي لوط عليه السّلام استخدم كلمة (لا تخزوني) والتي تعني لا تقهروني. فهو قصد من قوله المذكور بأنَّهم إنْ أهانوه أمام ضيوفه يقهروه ولا يعود ضيوفه يقيمون له وزناً. فهو عليه السّلام طالب من خلال قوله المذكور قومه أنْ يسامحوه عمّا بدر منه في تلك المرَّة، وأنَّه يتعهد ألا يستقبل بعدها أيّ ضيف في داره ومن دون أنْ يستأذنهم في ذلك. فهذا ما قصده لوط عليه السّلام في قوله المذكور. وأمَّا قوله عليه السّلام في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فلم يقصد من قوله هذا بأنَّه أراد أنْ يسخر من قومه؛ لأنَّه لو حاول أنْ يسخر منهم لكان قد زاد الطّين بلّة، فهو يخالف قوانينهم من جهة، ويسخر منهم من جهة ثانية، الأمر الذي يعطيهم حجّة جديدة لمعاقبته.

والذي يكون قد طالع تفسيري للآيات من سورة هود يكون قد تبيّن له بأنَّ لوطاً عليه السّلام عندما لاحظ أنَّ النّاس الغوغاء المحيطين بداره لا يوجد بينهم مَنْ كان من المسؤولين السّياسيين ولا من الإداريين من أهل سدوم. فقد طالب عليه السّلام هؤلاء الغوغاء أنْ يبعثوا من بينهم أحداً وراء رجل من وجهاء بلدتهم، ليتفاوض معه، وليستسمحه عمّا صدر عنه. فهذا هو ما أراد عليه السّلام بيانه من خلال قوله ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فلم يقل (أليس فيكم رجلٌ رشيد) لنفهم منه معنى الاستهزاء. فكلمة رشيد تعني المرشد والمشرع.

وعليه؛ فشتّان ما بين ما فهمه المفسّرون القدماء رحمهم الله من قوله تعالى ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ وما بين ما فهمناه من هذه الآية الكريمة من خلال تدبّرنا إياها بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. فالذي تبادر منها من معنى لأذهان المفسّرين القدماء كان خلاف المعنى الذي فهمناه منها بعد أنْ تدبّرناها بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

واستناداً إلى جميع هذه النّماذج من الأمثلة من الآيات الكريمة التي قدّمتها للقارئ الكريم والتي يتبادر منها غير المقصود منها، أكون قد أثبتُّ من خلال ذلك وجود هذه الخصوصيَّة الثّانية القرآنيَّة المعجزة التي تميّز بها هذا الكتاب السّماوي (القرآن) على كُتُب الأدباء والعلماء جميعها. لذلك أكتفي بهذا القدر من الأمثلة المقدّمة لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الثّانية، وأنتقل منها للكلام عن الخصوصيَّة الثّالثة القرآنيَّة والمعجزة التي يمتاز بها هذا القرآن المجيد.

الخصوصيَة القرآنيَة الثَالثة:

يجيب عن الأسئلة المحتملة بتميّز

وللقرآن المجيد خصوصيَّةٌ ثالثةٌ معجزةٌ تميّزه من كُتُب الأدباء المعروفة، وليس من السّهل مضارعتها بأي حال من الأحوال. فمن المعروف أنَّ الكاتب حين يسترسل في بيان الموضوع الذي يتكلّم عنه يخطر بباله أنَّ القارئ لابُدَّ وأنْ يستفسر عن ناحيةٍ معيّنةٍ خلال ذلك أحياناً تتعلّق بجانب من جوانب الموضوع الذي يبحثه. فيأتي بالسّؤال ويورد جوابه بشكلٍ معترضٍ، ومن ثمَّ يتابع البحث في الموضوع الذي كان يبحثه.

وما دام هذا القرآن المجيد قد سمّاه ربّنا عزَّ وجلَّ (كتاباً) وبنصّ آياته الكريمة. فقد كان من الطّبيعي جداً أنْ يعرض لله جلّ شأنه الذي أنزله ما يعرض للكتاب خلال استرساله تعالى في بحث أيّ موضوعٍ من المواضيع. لكنَّ المدقّق في آيات هذا القرآن العظيم لا تمرّ من أمام عينيه تلك الظّاهرة المذكورة، وبأسلوب الكتاب المعروفين نفسه. فهل يعني هذا أنَّ هذا الكتاب المقدّس يخلو من تلك الظّاهرة، أم أنَّ لله جلّ شأنه خصوصيته المتميّزة في هذا القرآن وللرّدّ على ما يخطر ببال القارئ من أسئلة جوهريَّة في بعض الأحايين؟

أقول: أجل، إنَّها تعترض مجرى الموضوع الذي يبحثه الله تعالى أحياناً أسئلة جوهريَّة، ونلاحظ كيف يجيب الله عزَّ وجلَّ عليها بخصوصيَّة لا يتحلّى بها كتابٌ آخر، وهذه الخصوصيَّة هي ما أطلقت عليه اسم الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّالثة والتي ترد في حقيقة أمرها على مستوى الإعجاز أيضاً، وكلّ ما في الأمر أنَّك إمَّا أنْ تشعر هناك في ذاك الموضع يا عزيزي القارئ بانقطاع في تسلسل الآيات الموضوعي أو أنَّه يتبادر لذهنك معنى غير مقصود. وإليكَ بالتّفصيل.

ونسأل أوَّلاً: لماذا اختار سبحانه وتعالى هذه الخصوصيَّة المشار إليها؟ أقول في الإجابة عن هذا السّؤال: لقد اختار الله تعالى هذا السّلوك بسبب أنَّه جلّ شأنه كان قد طالبنا في سورة ﷺ الآية 29 أنْ نتدبّر آيات هذا القرآن العظيم وذلك بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، ليساعدنا ذلك على كشف الحقيقة والوصول إلى المعاني المقصودة. فهذا ما نصّ عليه قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ . فالقرآن المجيد اتّسمت آياته بتسلسل موضوعي يستحيل أنْ نعثر فيه على انقطاع. خصوصاً وأنَّ الالتزام بالبحث عن تسلسل الآيات الموضوعي يعدُّ أحد أصول تفسير آيات هذا الكتاب العزيز.

مثال أوَل يثبت وجود الخصوصية الثّالثة:

فما هي الأمثلة القرآنيَّة التي تؤكّد للقارئ مصداقيَّة ما ذكرتُهُ له آنفاً؟؟ وأختصر الطّريق على القارئ، فأقدّم له مثالاً اقتبستُهُ له من الآيات من سورة هود التي بات تفسيرها مطبوعاً ومتداولاً بين يديه. فليلاحظ القارئ كيف أنَّ

الله عزَّ وجلَّ راح يعطينا فكرةً مجملةً عن مهمة رسوله الكريم في موضوع تبليغ رسالته السّماويَّة إلى النّاس، فقد قال تعالى في الآية الثّانية والثّالثة من سورة هود: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبإمكان القارئ مراجعة شرح هاتين الآيتين الكريمتين في التّفسير المشار إليه، لكنَّ الذي أحببت أنْ أُلفت نظره إليه هو أنَّ الله جلّ شأنه ما إنْ فرغ من هاتين الآيتين إلا وراح يقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فالملاحظ هو أنَّ الله تعالى انتقل فجأة من الكلام عن مهمّة رسوله الكريم إلى الكلام عن موضوع غائبٍ عن النّصّ، خصوصاً وأنّنا ما نزال عند الآية الرّابعة من سورة هود، فلم يرد في هذه الآيات اسم أحدٍ من النّاس أو أحد من الأقوام فيها حتّى يأتي الله تعالى ليقول بحقّهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ وفي وقتٍ نعلم فيه أنَّ الضّمائر تورد لتحلّ محلّ الأسماء. ولا يوجد قبل هذا الضّمير من قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ أيّ اسم بإمكاننا إرجاع الضّمير إليه.

والغريب في الأمر هو أنَّ العلامة الفخر الرّازي أعاد الضّمير هنا إلى أفراد قريش من دون وجود أيّ ذكرٍ لهم في هذا النّصّ. وأخذ من هذه الآية ما تبادر منها لذهنه، ولم يتدبّرها بأصول تفسيرها، واعتمد على رواية تقول

بأنَّ كُفَّار قريش كان الواحد منهم إذا مرّ بجانب رسول الله ﷺ كان يثني صدره ويستغشي ثيابه، كيلا تقع في أذنيه أيَّة كلمات من كلمات الآيات القرآنيَّة التي كان يتلوها على مسامع النّاس في مكّة المكرّمة.

فالسّؤال والحال هذه هل صحّ إعادة ضمير (إنَّهم) إلى كُفَّار قريش؟ وهل صحّ مضمون الرّواية التي نقلها لنا رحمه الله؟ وما معنى أنْ ينتقل الكلام الإلهي هذه النّقلة التي لاحظناها؟ وما هو تفسير ذلك؟

ولا نجد أجوبةً مقنعةً عن هذه الأسئلة المطروحة إلا إذا أخذنا هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّالثة بعين اعتبارنا، وهو أنَّ الله جلّ شأنه راح يجيب في هذا المقام عن سؤالٍ جوهري نشأ عن الآيات السّابقة قبل أنْ يستمرّ في بيانه. فما هو السّؤال النّاشئ عن مضامين الآيات الأربّعة الأوائل؟ إنَّ ما يؤكِّد أنَّ الله جلّ شأنه راح يجيب عن سؤالٍ مطروح في هذا المقام ليس لأنَّه أتى بضمير الغائب (إنَّهم)، بل ولأنَّه أتى قبلها بحرف التّنبيه (ألا) والذي يفيد معنى الابتداء، ليشير به إلا أنَّه ابتدأ بالإجابة عن السّؤال الوارد في هذا المقام.

ونستطيع تقدير هذا السّؤال المفترض المشار إليه بأسلوبين: الأسلوب الأوَّل ينبع من معطيات ما أفادته الآيات الأوائل. فالمفكّر الباحث الذي يطّلع على مهمّة محمد رسول الله ﷺ التّبشيريَّة ويقارنها بجميع ما كان قد كلّف الله تعالى به كلّ رسول بعثه من قبله، إذ يتبيّن له أنَّ مهمّة هؤلاء الرّسل واحدة في مضامينها. وقد بعث الله تعالى عشرات الرّسل، ومع ذلك فالكفر بوجود الله والشّرك به غالبٌ على أحوال النّاس. فهذه الحقيقة تدفع هذا المفكّر الباحث في هذا المقام بالذّات ليتساءل عن الأسباب الحقيقيَّة التي تكمن

وراء ظاهرة الكفر هذه بالرّغم من هذه الرّأفة العظيمة التي يبديها ربّ العالمين على عباده ويرسل لتوعيتهم رسولاً بعد رسول بلا انقطاع؟

وهناك أسلوب آخر لتقدير هذا السّؤال المفترض وهو أنْ نمعن نظرنا فيما أجاب به الله تعالى جلّ شأنه نفسه عن السّؤال المشار إليه. فنتدبّر قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ فما معنى هذا الكلام الإلهي؟ إنَّ الله عزَّ وجلَّ استعمل هنا فعل ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ فصدر الإنسان لا يمكنك ـ يا عزيزي القارئ ـ أنْ تثنيه بسبب وجود القفص العظمي، بل يقال ثنى ظهره؛ أيْ احدودب. وما دام فعل (يثنون) استعمل للصّدر، فهذه قرينةٌ تمنع الأخذ بمعنى الفعل الظّاهر، وتنقله إلى معناه المجازي، ليقال تقبّلت البحث معك برحابة صدري حين يبدي الإنسان انشراحه واستعداده لمناقشة ندّه. أمّا إذا رفض السّماع والنّقاش معه، فيقول لقد انقبض صدري لسماع أقوالك، وما عدتُ مستعداً للسّماع والنّقاش. وهذا المعنى الأخير هو المقصود من قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استعار هنا كلمة ثني الصّدر ليصوّر حال هؤلاء الكُفَّار الذّين يصدّون عن سماع ومناقشة ما يبلغهم به رسل الله الكرام من رسالات من قبَل خالقهم عزَّ وجلَّ. والغرض من هذه الاستعارة هو تصوير حالهم تصويراً فنياً رائعاً، وليصور تعالى كيف أنَّ هذه الشّريحة من النّاس تساور صدورهم الشّكوك حول كل ما يسمعونه. وبدلاً من أنْ يقوموا بالتّحقيق فيما شكّوا في مصداقيته لتنظيف صدورهم من تلك الشّكوك، يحجمون عن البحث والنّقاش، ويستخفّون من وجوه رسل الله، ويتجنّبون اللقاء بهم دفعاً للحوار معهم.

وبألفاظ أخرى، فإنّنا بهذا الأسلوب الثّاني من تدبّرنا لقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ نكون قد أدركنا معالم السّؤال المفترض الذي راح تعالى يجيب عنه في هذا المقام. فالله جلّ شأنه قد أخذ بعين اعتباره أنَّ الإنسان المفكّر يتساءل هنا عن الدّواعي وعن الأسباب الحقيقيَّة لانتشار الكُفر والإلحاد بين النّاس، بالرّغم من ظهور عشرات الرّسل في كل مكان؟ ويجيب الله تعالى عنه في أنَّ السّبب الحقيقي في بقاء هذه الظّاهرة على سطح الأرض هو أنَّ النّاس يُصابون بعقلٍ تقليدي، يقلّدون فيه آباءهم تقليداً أعمى، فإذا سمعوا من هؤلاء الرّسل ما يخالف معتقداتهم، يشكّون في صحّة ما سمعوه، ويضمرون هذا الشّكَّ في صدورهم، ولا يبحثون مع هؤلاء الرّسل في مصداقيَّة ما سمعوه منهم، بل ويتجنّبون اللّقاء معهم أيضاً، فأنّى لأمثال هؤلاء المقلّدين من النّاس أنْ تزول شكوكهم من صدورهم، ليهتدوا إلى سواء السّبيل؟

ومن خلال هذين الأسلوبين المذكورين نكون قد أدركنا بأنَّ الله جلّ شأنه قد افترض أنْ يسأل المحقّق المفكّر في هذا المقام عن دواعي انتشار الكفر والإلحاد بين النّاس، بالرّغم من بعثة عشرات الأنبياء والرّسل في كل زمانٍ ومكانٍ من العالم. وقد أجاب الله تعالى عن هذا السّؤال المفترض والجوهري بأسلوبٍ بلاغي معجز؛ حيثُ أتى تعالى بحرف التّنبيه (ألا) لينبّه أذهاننا إلى أنّه يجيب عن ما خطر لنا في هذا المقام من سؤال. كما أتى بحرف (إنَّ) المشبّه بالفعل، وأدخله على ضمير الغائب (هم) ليشير بهذا الضّمير إلى الذين كفروا وليسأل المفكّر عن السّبب الحقيقي الكامن وراء كفرهم.

وعليه؛ فلا يصحُّ ما تبادر لذهن الرّازي رحمه الله من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ ولا يصحُّ اعتماد الرّواية التي أوردها بهذا المعنى الظّاهري الذي تبادر منها لذهنه، وكان الأحرى به رحمه الله أنْ يجيب أوّلاً عن سبب استهلال الله تعالى هذه الآية بحرف الابتداء والتّنبيه (ألا)، وأنْ يوضح لنا كيف توصّل إلى أنَّ ضمير (هم) من قوله تعالى (إنّهم) يعود إلى كُفَّار قريش خاصَّة. فالكلام هنا عامّ الدّلالة، ولا يخصُّ قريشاً بالذّات.

فإنْ نحن تأكَّدنا من صحّة ما ذكرتُهُ حتَّى الآن. فإنَّ هذا السّائل سيقتنع بأنَّ هذه الفقرة من هذه الآية الكريمة قد أجابت عن ما خطر في ذهن القارئ من سؤال. لكنَّ هذا المفكّر ينبّهه إلى أنَّ الله تعالى يحدّثه عن شيء يدور في صدور هؤلاء، ويستحيل عليه التّحقّق من صحته، لذلك يتساءل من جديد: وكيف توصّل ربّنا إلى إجابته المذكورة؟ وقد وضّح الله عزَّ وجلَّ حقيقة ذلك وقال ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وبمعنى أنَّه لا يخفى عن الله تعالى شيء، فهو يعلم ما يعلنه الإنسان بلسانه. كما يعلم ما يسرّه الإنسان في صدره. وللتّعبير عن هذه الحقيقة أتى تعالى بحرف التّنبيه والابتداء للمرَّة الثّانية من جهة. كما أتى بحرف التّأكيد (إنَّ) وقال ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وبعد الذي بيّنتُهُ يطمئنُّ طارح هذا السّؤال إلى هذه الإجابة، ويقول في حديث نفسه: ما دام الله تعالى ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فقد مكّنه ذلك من الإحاطة بعلم ما أجاب به آنفاً.

وليلاحظ القارئ كيف أنَّ الله جلّ شأنه حين وصف نفسه بكونه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لم يطلق هذا الادّعاء ليفرض على السّائل أنْ يتقبّله مكرهاً، بل نلاحظ بأنَّه جلّ شأنه راح يدلي في مواجهة هذا المفكّر بدليلٍ علمي قائمٍ على الملاحظة والتّجربة والاستنتاج، ليثبت له صحّة ما أعلنه على مسامعه، وما ادّعاه لنفسه من صفة فقال ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وقد شرحتُ هذا الدّليل ضمن تفسير سورة هود، وبإمكان القارئ مراجعة ذلك هناك. ويكفي القول هنا بأنَّه دليلٌ علمي استند إلى مقدّمةٍ خرج منها بنتيجةٍ، مستنداً في ذلك إلى الأسس التي قامت عليها جميع العلوم؛ وهي الملاحظة والتّجربة والاستنتاج.

ويكفي أنْ نقول بأنَّ الرّازي رحمه الله انتبه إلى هذه الحقيقة ووفق معطيات عصره، فكتب يقول: (اعلم أنَّه لمّا ذكر في الآية الأولى أنَّه ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أردفه بما يدلّ على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات. فثبت أنَّ رزق كلّ حيوان إنَّما يصل إليه من الله تعالى. فلو لم يكن عالماً بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمّات.). لكنَّ الرّازي رحمه الله لم تكن معطيات علمه تعينه، ليفهم من هذه الآيات الكريمة ما فهمناه.

وعلى هذه الصّورة أكون قد قدّمتُ للقارئ أوّل مثالٍ يثبت منه مصداقيَّة وجود هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّالثة المعجزة التي إنْ جهل المفكّر الباحث حقيقتها تتراءى له من جرّاء ذلك حدوث انقطاعاتٍ في تسلسل الآيات الموضوعي لآيات هذا القرآن المجيد.

مثال ثاني يثبت وجود الخصوصيَة الثالثة:

وأقدّم للقارئ مثالاً آخر أستقيه من سورة هودٍ نفسها ؛ حيثُ أصبح تفسيرها مرجعاً للتّوسّع في الفهم بين يديه. فلقد راح الله جلّ شأنه ابتداءً من الآية (102) يتوعّد الذين كذّبوا بنبيّه محمداً ﷺ والشّاهد الذي بعثه ربّه ليشهد على صدق رسالته فقال وبعد أنْ استعرض هلاك خمسة أقوامٍ كذّبت رسله قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. وخلاصة مضمون هذه الآيات الكريمة التي يجدها القارئ مفصّلة في تفسير سورة هود، هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أنبأ في هذه الآيات عن المصير الذي ستصير إليه هذه الأقوام المعاصرة من زمرة المكذّبين.

وينبّه الله تعالى أذهاننا من خلال هذه الآيات إلى أنَّه جلّ شأنه لم يشأ إهلاك هذه الأقوام حتَّى الآن، وقد أجلّ إهلاكها (لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) أي أنَّه أجلّه إلى أجلّ محسوبٍ بدقَّة متناهية. وقد أخبر جلّ شأنه في هذه الآيات الكريمة عن النّتائج التي ستسفر عنها واقعة يومئذ فقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ - أي يوم يأت الأجلّ المعدود - لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي أنَّه إذا وقعت الواقعة يومئذٍ ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بمعنى أنّها تتدخّل عناية الله تعالى يومئذ، فلا تؤذى نفسٌ إلا مَنْ شاء الله تعالى تعذيبها عذاباً شديداً.

لذلك؛ فإنَّ النّاس ينقسمون يومئذٍ إلى فريقين: فريق شقي يصيبه العذاب

وفريق سعيد يكون بمنجاةٍ من هول يومئذ، ومن ثمَّ أتى الله جلّ شأنه بفاء الاستئناف وراح يصف حال الفريق الأوَّل الشّقي قائلاً ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ بمعنى أنَّه مَنْ ينجو من نسل تلك الأقوام الشّقيَّة فسيغرقون في النّار التي تنتج عن المصائب والآفات، وهي تلك النّار التي تتأجَّج في الأفئدة حزناً على ما فات وحسرةً على الأمجاد. وقد صوَّر الله تعالى آثار ذلك تصويراً فنياً وقال ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. ومعلوم أنَّ الذي يبكي على فقيده حزناً عليه يصدر عنه زفيرٌ وشهيق متواليان.

وعليه؛ فإلى هنا نكون قد أدركنا من خلال معطيات هذه الآية الكريمة أنَّ الله تعالى لن يقضي على جميع أفراد الأقوام المقدّر إهلاكها في المستقبل، بل سينجو من أفراد تلك الأقوام أفراد لم يحدّد عددهم، ولكنْ؛ ستعيش تلك الذّريَّة في حالة بؤسٍ شديد يتحسّر أفرادها على ما زال من أمجاد آبائهم.

وينشأ عند هذه النّقطة بالذّات سؤال جوهريّ، وهو أنَّ تلك الحال التّعيسة التي ستصير إليها تلك الذّريَّة لم نلحظ في الآية الكريمة أيّ تحديد زمني للمُدَّة التي سيستمرّ حال أولئك خلالها يتراوح ما بين زفيرٍ وشهيق. فهل سيستعيد أولئك الأحفاد بعد فترةٍ زمنيَّةٍ أمجاد آبائهم الضّائعة؟ وكم هي تلك المُدَّة إنْ كان لها تقديرٌ من جانب الله عزَّ وجلَّ؟ فالله تعالى وعد المسلمين بإعادة أمجادهم على أيدي (الشّاهد) المنتظر. فهل وَعد الله تعالى هؤلاء بوعودٍ محدّدة، وعلى شاكلة ما وعد به المسلمون؟

وانطلاقاً من وجود هذه الخصوصيَّة الثّالثة القرآنيَّة فإنَّ الله جلّ شأنه أخذ هنا هذا السّؤال بعين اعتباره، وراح يجيب عنه بصياغة بلاغيَّة معجزةٍ

لم يحط بحقيقتها المفسّرون القدماء رحمهم الله. فهو تعالى قال جواباً عن السّؤال المذكور: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وإنَّ الرّازي رحمه الله على سبيل المثال قد فهم من هذه الآية الكريمة وما قبلها بأنَّ الله تعالى يتكلّم ضمنها عمّا سيجري بعد الموت. لكنّنا وقد فهمنا منها ما ذكرناه آنفاً، ندرك من هذه الآية الكريمة بأنَّ الله تعالى يجيب عن السّؤال الآنف الذّكر ويقول بأنَّ حال أحفاد الأمم المنبأ عن هلاكهم سيمتدُّ ما دامت السّماوات والأرض قائمتين. بمعنى أنَّه لن يكتب لهؤلاء الأحفاد أنْ يجدّدوا أمجاد آبائهم مهما طال بهم الزّمان. أي أنَّها لن تقوم للمسيحيَّة واليهوديَّة بعد تلك الواقعة قائمة. فإنْ تعجّب السّائل من هذه الإجابة، وقال في حديث نفسه: هل يعقل مثل هذا الكلام؟ فقد أتى تعالى بحرف (إنَّ) لتأكيد ذلك وقال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ بمعنى أنَّ الله جلّ شأنه الذي أنبأ عن حدوث ذلك قبل ذلك بقرون زمنيَّة، وحدث ما أنبأ عنه، فقد ثبت من خلال ذلك أنَّه جلّ شأنه ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.

والدّليل على أنَّ هذه الإجابة تتعلّق بأحفاد هؤلاء المنبأ عن هلاكهم هو قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ وهذا الكلام يعني بألفاظٍ أخرى أنَّ حالة التّحسّر على الأمجاد الفائتة ستمتدُّ ما بقي من عمر هذا الكون المادّي يوم واحد.

والدّليل الثّاني هو قوله تعالى بعد ذلك بشأن المؤمنين الذين سعدوا قال ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ فلا يقصد بكلمة (الجنّة) هنا الجنّة

الأخرويَّة الموعودة. فلو كان المقصود هو الجنّة الأخرويَّة الموعودة فما كان الله تعالى ليحصر عطاءه بالزّمن الذي بقي من عمر هذا الكون المادّي. أمَّا قوله تعالى ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ ففيه تأييد للمعنى الذي استنتجناه بحقّ الذين سينجون من الواقعة، ويتحسّرون على أمجادهم ما بقي من عمر هذا الكون يوم واحد.

والمهمّ من كلّ ما ذكرناه من هذا المثال الثّاني هو إثبات وجود هذه الخصوصيَّة الثّالثة من خصائص القرآن الكريم، والتي تعين المفسّر المفكّر على تدبّر ما يبدو في الظّاهر من انقطاعٍ ظاهري في التّسلسل الموضوعي لآيات سورةٍ من سور هذا الكتاب العزيز، ولإدراك ما وراء ذلك من سؤالٍ جوهري خاطرٍ بالبال، والإجابة عنه بصورة بلاغيَّة لا تُدرك أبعاد مضامينها إلا بالنّظر إليها من منظار هذه الخصوصيَّة الثّالثة المذكورة.

مثال ثالث يثبت وجود الخصوصيَّة الثّالثة:

وهناك مثالٌ ثالث يثبت مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة بإمكان القارئ الإحاطة بأبعاده من خلال مراجعته لتفسير الآية التّاسعة بعد المائة من سورة هود نفسها. فقد وضَّحتُ ذلك على الصّفحتين (253 ـ 254)، ولا حاجة بي لزيادة التّفصيل، فليرجع إليه هناك.

وما دام تفسير سورة الكهف بين أيدي القرّاء أيضاً، فأحاول لفت نظر القارئ إلى ما تضمّنته آيات سورة الكهف من أمثلة بخصوص هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الثّالثة التي نتكلّم عنها. وبإمكان القارئ التّوسّع في فهم

ما أشرحه منها في التّفسير المشار إليه، وضمن سياق ما أقدّمه من أمثلة وسياقها. أقول فليراجع القارئ الآيات القرآنيَّة ابتداءً من الآية (60) وانتهاءً بالآية (82) ليطّلع على ما تضمّنه كشف موسى عليه السّلام الذي كان بمثابة إسراءٍ له، وامتدَّ الكلام حوله من الصّفحة المائة وإلى الصّفحة (133). وقد تبيّن من خلاله أنَّه اشتمل على عشرة معلومات هي:

أوَّلاً: الجدار الذي يريد أنْ ينقض. فالجدار أنبأ عن بعثة محمد ﷺ المقدّر له حماية ملّة إبراهيم الحنيفة.

ثانياً: وفهمنا من قوله تعالى بشأن (يريد أنْ ينقض) الإنباء عن تخلّف أمَّة محمد ﷺ في آخر الزّمان وزوال قوتهم ومنعتهم. وقد أشار إلى بعثة المهدي المقدّر على يديه إصلاح ما طرأ على الإسلام من تشوُّه في العقائد والمفاهيم الإسلاميَّة لإعادة مجد الإسلام.

ثالثاً: والكنز قد أنبأ عن ظهور معارف القرآن وعلومه أيضاً على يدي الإمام المذكور.

رابعاً: وأمَّا الغلامان فقد أشير بهما إلى موسى وفتاه المسيح النّاصري وإلى انقطاع أمّتيهما عن ملّة إبراهيم عليه السّلام بصورة عمليَّة وعقائديَّة.

خامساً: وقد أشير بالأب الصّالح إلى إبراهيم عليه السّلام نفسه الذي تأسَّست هذه الحلقات الرّوحيَّة على يديه.

سادساً: وأمَّا المدينة فقد أشير بها إلى المدينة التي تعاصر زمن تخلّف المسلمين وانحطاطهم.

سابعاً: وأمّا أهل القرية فإشارةً إلى تجمّعات اليهود والمسيحيين المعاصرة .

ثامناً: وقد أنبأ كشف موسى عليه السّلام عن إعادة بناء جدار الإسلام أيام تخلُّف المسلمين .

تاسعاً: وقد أشار الكشف المذكور إلى أنَّ هذين اليتيمين اليهوديَّة والمسيحيَّة، وإنْ كتب الله تعالى على أيديهم بناء حضارةٍ مزدهرةٍ، لكنَّهم لا يكونون بذلك قد بلغوا رشدهم في التّاريخ المقدّر لنهضتهم .

عاشراً: وأنَّ نبوءات هذا الكشف الرّوحي كانت رحمةً لموسى وتطميناً له، بشأن مستقبل ملّة إبراهيم التي ينتسب إليها روحياً .

فإنْ أحاط القارئ علماً بما تضمّنه هذا الكشف الموسوي، والذي انتهى بيانه عند الآية (82). ينشأ من جرّائه في ذهنه سؤال جوهري، ويعود متشوّقاً لمعرفة هذا الإمام المقدّر على يديه إصلاح الجدار المتصدّع، وإعادة الوجه الحقيقي للإسلام ولإظهاره على الدِّين كله. وبألفاظٍ أخرى فإنَّ الخصوصيَّة الثّالثة القرآنيَّة تقتضي حين نشوء مثل هذا السّؤال الجوهري حدوث انقطاع ظاهري في موضوع التّسلسل الموضوعي للآيات القرآنيَّة، بسبب التّحوُّل للإجابة عن السّؤال الطّارئ، فإذا ما فرغ الله تعالى من الإجابة عن السّؤال المفترض، يعود إلى أصل الموضوع الذي كان انتهى عنده. وقلنا إنَّ السّؤال النّاشئ هنا بعد الاطّلاع على نبوءات الكشف الموسوي هو التّشوُّق لمعرفة الإمام وعلاماته، وهو المقدّر على يديه إعادة تصحيح المسار الإسلامي. فكيف أجاب الله تعالى عن السّؤال المشار إليه؟

فالملاحظ هو أنَّ الله تعالى انتقل من بيان قصّة موسى وفتاه فجأةً إلى الكلام عن ذي القرنين وقال في الآية (83) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ . فهو تعالى استهلّ هذه الآية الكريمة بفعل (يسألونك)، فلم يصرّح جلّ شأنه باسم السّائلين، ولا صرّح باسم المسؤول منه. ليعين هذا المفسّر على إدراك أنّه نشأ هنا السّؤال الذي أشرنا إليه، والمطلوب من الله عزَّ وجلَّ نفسه الإخبار عنه. فالمسؤول منه هو ذات الله تعالى نفسه في هذا المقام. وهذا الإضمار في موضوع ترك ذكر المسؤول منه يعني بألفاظٍ أخرى وكأنَّه الله تعالى نفسه يحاور نفسه ويقول لقد تشوّق الذين فهموا أسرار الكشف الموسوي إلى أنْ تكلّمهم يا علام الغيوب عن هذا الذي سيتحقّق على يديه إعادة بناء الدّار المتصدّع. وهذا السّؤال نفسه ومحاولة الإجابة عنه يُعدَّان قرينتين تؤكّدان بأنَّ الله جلّ شأنه قد قصد من اسم (ذي القرنين) الإمام المنتظر مجيئه لرفعة الإسلام. ولم يقصد به الإسكندر المقدوني الذي كان قد سمّي بذلك.

ولنلاحظ كيف أنَّ الله تعالى قال في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة: ﴿ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ . فالملاحظ أنَّه تعالى أدخل السّين على فعل (أتلوا) والتي تستعمل للزّمن المستقبل. على حين أنّه تعالى راح يستعمل صيغ الماضي في الآية المقبلة. كذلك نلاحظ أنّه تعالى أتى بحرف الجر (منه) بمعنى البعض، ولم يستعملها تفسيريَّة في هذا المقام. إشارةً إلى أنَّه جلّ شأنه سيطلعنا على أهم الأمور الموكلة إلى هذا الإمام، ولا يدخل في التّفاصيل. وبذلك يكون هذا الأسلوب البلاغي معجزاً في صياغته.

والمهمّ هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخذ يجيب عن السّؤال الذي طرحه بنفسه في هذا المقام، فابتدأت إجابته في الآية (83) وامتدَّت حتَّى الآية المائة وواحد؛ حيثُ قال تعالى هناك: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ولينبئ من خلالها عن هلاك القوم الذي سيكذّب هذا الإمام الموعود. فكم هو معجزٌ هذا الأسلوب البلاغي في توضيح حلقات سلسلة موضوع السّورة وما يتعلّق به من أحداث. وكم هي معجزةٌ صياغته البلاغيَّة التي يعسر على غير متدبّرها بأصولها أنْ يفهم مضامينها. وما أعظم هذه الخصوصيَّة الثّالثة التي تميّز بها هذا القرآن المجيد. وعليه؛ فهذا هو أوَّل مثالٍ لفتُ نظر القارئ إليه، واقتبستُهُ له من هذا التّفسير لآيات سورة الكهف التي هي متداولةٌ بين يديه. وألفتُ نظره إلى مثالٍ آخر اقترن بالمثال الآنف الذّكر. فكيف حدث هذا التّداخل؟

في الحقيقة؛ إنَّ قصة ذي القرنين انتهت بما يتعلّق بذي القرنين شخصياً عند قوله تعالى في الآية (98) ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾. وبما أنَّ القوم الذي سيكذّب ذي القرنين قد قدّر الله تعالى إهلاكه، وينحصر في إهلاك هؤلاء اليهود والمسيحيين الغربيّين خاصَّة. فينشأ سؤالٌ بعد تلاوة هذه الآية المذكورة وهو: ما هو الأسلوب الذي سيعمد الله تعالى إليه لإهلاك هؤلاء المكذّبين المذكورين؟ وقد أجاب الله تعالى عن هذا السّؤال الجوهري وعلى صورةٍ لا يشعرك بذلك وراح يقول في الآية (99) وما بعدها: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ

عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾. فما هي معالم هذه الإجابة؟ وكيف ربطت موضوعيّاً بما قبلها من تسلسلٍ موضوعيّ؟

فالملاحظ هو أنَّ الله جلّ شأنه أتى بواو العطف التي تُشعر القارئ بإضافة مضمون هذه الآية الكريمة إلى سابقتها. مع أنَّه جلّ شأنه قد أدخل واو العطف على فعل الماضي (تركنا) لتفيد الواو معنى الحال، وليشعرنا تعالى بأنَّه راح الآن يجيب عن سؤالنا، ويبين الحال والأسلوب الذي سينهي به تعالى وجود هذا القوم الذي كذّب رسوله الأمين والخادم الذي بعثه ربّه لتقويم ما اعوجّ من مفاهيم الإسلام. وقال: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا﴾. وما دام فعل (تركنا) قد تعدّى إلى مفهومين في هذه الآية الكريمة، فقد ورد استعماله تبعاً لذلك بمعنى صيّرنا (محيط المحيط)، وقد أورد الله تعالى فعل (يموج) فاشتقّه من قولك ماج الجيشان إذا اقتتلا واضطرب أمرهما. وبذلك يكون الله جلّ شأنه قد نبّه أذهاننا إلى أنَّ القضاء على القوم المذكور سيتحقّق ببثّ الفرقة بينهم، وانتهاء ذلك إلى اقتتالهم فيما بينهم. فإنْ نحن استعرضنا ما حدث لهؤلاء بعد زمن بعثة هذا الإمام المهدي، تتبيّن لنا مصداقيَّة ذلك. فقد حدث أنْ ظهر الفكر الماركسي في الجناح الشّرقي من أوروبة، وظهور النّازيَّة فيما بعد في ألمانيا. وتسبب كل ذلك بحربين عالميتين حتَّى الآن بين جماعات القوم المذكور. وليس ببعيدٍ أنْ تظهر في القريب العاجلّ أسبابٌ واختلافات تنتهي بهم إلى حرب ضروس أنبأت عنها سورة الواقعة، وتنتهي بهؤلاء إلى الزّوال من

مسرح الأحداث. خصوصاً وأنّنا نلاحظ ملامح تكتّلهم في هذه الأيام ضدّ الإسلام الذي شوّه وجهَهُ أتباعُهُ. وخصوصاً أنَّ شطء شجرة الإسلام أخذت تظهر بوادر تآزرها وتكاد تستغلظ أيضاً. هذا؛ وإنَّ قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا﴾ فالنّفخ في الصّور لا يقصد به معناه الظّاهري. فقديماً كان يقصد من النّفخ في الصّور محاولة جمع الجنود. وقد قصد به هنا معناه المجازي بقرينة قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾؛ حيثُ تقول عرضت الفيلم لفلانٍ بمعنى أظهرته له أمام عينيه، وإنَّ صيغة جمع (عرضنا) المنسوبة لذات الله الأحد تفيد باتّخاذ القرار بحقّ القوم المذكور. فالله جلّ شأنه هو المالك الحقيقي، وهو مسبّب الأسباب أوّلاً، وأخيراً ولذلك فأمور كل شيءٍ فبيديه. وقد استعار تعالى هنا في الآية الثّانية كلمة (جهنم) لتصوير أحداث واقعة يومئذٍ تصويراً فنياً رهيباً من باب أنَّ الأسلحة المستعملة في تلك الوقائع ستتراوح ما بين أسلحة ناريَّة ثقيلة وخفيفة، وتجعل الوغى بمثابة جهنم. ونلاحظ أنَّ اللام من قوله (للكافرين) هي لام الاختصاص، بمعنى أنَّ الحالة الجهنميَّة التي ستسفر عن واقعة يومئذٍ ستختصّ بإهلاك الكافرين وحدهم من دون المؤمنين.

ولم يكتف الله تعالى بالإنباء عن ذلك جواباً عن السّؤال المطروح. بل راح تعالى يصف هؤلاء الكافرين ويعيّنهم ويخصّص نبوءته بهم وقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ إشارةً إلى أنَّ هذا القوم بلغ درجةً كبيرةً من الغطرسة والكبرياء و الإفساد في الأرض إلى حدٍّ شكّل معه غطاءً أمام أعينهم حال دونهم ودون تذكّر وجود

خالقهم وما فرضه عليهم من تعاليم. وهذا الأمر حال بينهم وبين الالتفات لسماع صوت هذا المبعوث الذي سمّاه النّصّ القرآني باسم (ذي القرنين) الذي قدّر ربّه إنّهاض الإسلام من كبوته على يديه؟.

فإلى هنا يكون الله تعالى قد أجرى هذه المداخلة ضمن كلامه عن ذي القرنين، وأجاب بذلك عن السّؤال المعترض والمُتعلّق بمصير القوم الذي أعرض عن الإيمان وكذّب. فلما فرغ تعالى من ذلك كله فقد عمد إلى أسلوب الاستفهام الاستنكاري، وأضاف ينكر على القوم المذكور موقفهم وعقيدتهم، وراح يقول ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ وقد استعمل تعالى كلمة (جهنم) في هذا المقام بمعناه الحقيقي، وليس بمعناه المجازي. ولمزيد التّفصيل فبإمكان القارئ مراجعة مُؤلّفي (في ظلال تفسير سورة الكهف) للتّزوّد بالتّفاصيل. وهكذا أكون قد قدّمتُ للقارئ مثالين من آيات سورة الكهف تدليلاً على مصداقيّة الخصوصيّة الثّالثة المذكورة.

مثال رابع يثبت وجود الخصوصيّة الثالثة:

ونعثر على مثالٍ رابع في هذه السّورة نفسها وذلك ضمن الآية 109 منها. فالقارئ الذي اطّلع على مصير الكافرين والذي أنّهى الله تعالى بيانه به وقال ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ ونصّ على مصير المؤمنين بذي القرنين ومهمته والذي أنّهى الله تعالى بيانه بحقّه بقوله في الآية (108)؛ حيثُ قال ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ فالقارئ الذي يبلغ في معرفته للتّطوُّرات الجارية إلى هذا الحدّ من المعرفة

يخطر له سؤال جوهري يتعلّق بالمستقبل الذي يأت بعد زمن أداء ذي القرنين مهمته والذي يظهر الإسلام على يديه وعلى أيدي جماعته يتساءل : وهل أنَّ أمور الإسلام والمسلمين ستمضي بعد ذلك من دون أي خللٍ أو انحرافٍ عن تعاليم الله الواردة في كتاب الله العزيز؟ أم أنَّ سلسلة الفساد لن تتوقَّف طويلاً، وتقتضي من جانب الله تعالى بعث مجدّدين لإصلاح ما فسد؟ ولا شك أنَّ الإجابة عن هذا السّؤال المفترض ستخلُّ بالتّسلسل الموضوعي في حال الإجابة عنه. لذلك نتساءل عن كيف عالج الله تعالى ذلك ليثبت وجود هذه الخصوصيَّة لكتابه العزيز؟

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله تعالى قد افترض نشوء هذا السّؤال، وراح يجيب عنه ويقول ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ فالسّؤال هو هل سيبعث الله تعالى بعد ذي القرنين مجدّدين أمثاله لإصلاح فسادٍ يعمُّ مجتمعات المسلمين فيما بعد؟ والجواب تضمّنته (كلمات ربّي). فكل مبعوثٍ سماوي هو كلمةٌ من كلمات ربّ العالمين الذي يطوّر هذا الإنسان من حالٍ إلى حالٍ حتَّى يبلغ به مرحلة التّمام المطلوبة. فهذا إصلاحٌ قرآني دلّتنا عليه الآيات التّالية: فزكريا الذي دعا ربّه في الآية (38) من سورة آل عمران وقال ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فقوله تعالى هنا ضمن هذا الدّعاء ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني أنّه دعا ربّه ليرزقه

مبوعثاً سماوياً وهو يحيى عليه السّلام. ثمَّ إنَّ قوله تعالى في الآيـة (45) مـن سورة آل عمران نفسها ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فقد كان المقصود من قوله تعالى ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ مبعوثـاً سـماوياً هـو المسيح ابـن مريم. فلا يحمل مصطلح (كلمة الله) إلا الدّلالة على مبعوثٍ سـماوي هـذا إنْ هو ورد بدون قرينةٍ تخصصه. فعلى سبيل المثال ففي الآية (74) من سورة التّوبة تكلم الله تعالى عن المنافقين وقال ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فقوله تعالى ﴿قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فلم ترد هذه الكلمة (كلمة) مقرونةً ببشارةٍ معينةٍ، بل قرنت بكلمة (الكفر) فلم تعد تحمل قرينة دلالة (كلمة) على معنى مبعوثٍ سماوي.

وعليه؛ يصبح معنى قوله تعالى وجواباً عن السّؤال المطروح ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾ أنَّ سلسلة من المبعوثين السّماويين لن تنقطـع في يوم من الأيام. فتطوير الله تعالى لهذا الإنسان ابتدأت بآدم وختمـت علـى خاتم النبيّين محمد ﷺ فقد عاد تطوير أمته من بعده بحاجة إلـى بعـث سلسـلة من المجدّدين الذين يأتي كل واحد منهم على رأس كل مائـة سـنة. فـإنْ نحـن نظرنـا إلـى هـذا الكـون اللانـهائي يتبيّـن لنـا أنّـه لربّمـا يـدوم إلـى مليـارات السّنوات؛ حيثُ ثبت علميـاً أنّـه لـم يمض علـى خلـق هـذا الكـون أكـثر مـن

عشرين مليار عام، وكما دلّت عليه النّظريَّة العلميَّة المسمّاة نظريَّة الانفجار العظيم. وإنَّ خلق الإنسان الذي كان هو الهدف من خلق هذا الكون لم يمض على بعثة أوَّل نبي بعثه الله تعالى لإصلاحه وتهذيبه أكثر من عشرة آلاف عام. أي أنَّ البشريَّة ما تزال في أوَّل الطّريق.

فالله جلّ شأنه يقول إجابة عن السّؤال المطروح أنَّه إذا سألك سائل أيها المخاطب مثل هذا السّؤال، فليكن جوابك بأنَّ بعثات المبعوثين السّماويين مرتبطٌ عددهم بعمر هذا الكون وبمدّة بقائه وهو من الطّول؛ بحيثُ أنَّنا لو جئنا بمثل مياه هذا البحر لكتابة اسم كل واحدٍ من الذين سنبعثهم لإصلاح وتهذيب البشر فنحتاج إلى مثله مدداً.

وليلاحظ القارئ كيف أنَّ الله جلّ شأنه ما إنْ فرغ من إعطاء هذه الإجابة النّابعة من معطياتٍ علميَّةٍ معاصرةٍ لهذه الأمم التي كذّبت محمداً ﷺ وكذّبت الشّاهد المبعوث من أمّته إلا وراح ينهي موضوع سورة الكهف بعد أنْ توجّه إلى مَنْ يخاطبه وهو محمد رسوله الأمين وقال يأمره ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وبمعنى أنْ يا معشر أهل الكتاب أصحاب هذه النّهضة الأخيرة التي تنبّأت عنها والذين اتَّخذتم عبادي من دوني آلهة إنَّكم تناسيتم أنَّ هذه الحياة الدّنيا الفانية التي مهما تنعّم فيها الإنسان فلا توازي شيئاً أمام الحياة القادمة التي لا ينال نعماءها إلا كل إنسان سبق أنْ تعرّف على ربّه الحقيقي وسعى للقائه. وهذا الأمر يقتضي من هذا أنْ يكون عابداً لله ربّه وموحّداً وعاملاً على تعاليم ربّه، ليس بشكلٍ جامدٍ،

وإنَّما بحيثُ تتوفّر في عمله صلاحيَّة ما يفعله وبما يتناسب مع الزّمان والمكان الذي يعيش فيه ، لكنَّكم تهافتُّم على جيفة الدّنيا ، وأشركتم بربّكم ، وتناسيتم المقصد الأسمى من خلقكم ، وكانت أعمالكم في نهاية السّوء والفساد ، وفوق هذا وذاك فقد كذّبتم الذين أرسلتهم لتحذيركم وإرشادكم وألقيتم أنفسكم في المستنقع الذي تغوصون فيه . لذلك كلّه كتب الله تعالى أنْ يهلككم وحسبما نبّهكم إليه في هذه الآيات الأخيرة من سورة الكهف .

وإنَّها لآية كريمة تعجّ بالمعلومات التي أنَّهى جلّ شأنه بها هذه السّورة وربّط بواسطتها مضمون هذه السّورة المخصّصة للكلام عن هؤلاء الذين كانوا فتيةً موحّدين في بداية نشوء أمّتهم . وانتهوا مشركين ومفسدين بعد مضي ألفين من الأعوام .

الخصوصيَّة القرآنيَّة الرَّابعة:

طرحٌ ممزوج بترغيبٍ وترهيبٍ

ولا أطيل في ضرب الأمثلة، وأكتفي بالأمثلة التي قدّمتُهَا للقارئ مستقاةً من سورتي هود والكهف المتداولتين بين يديه وبإمكانه مطالعة سورة الإسراء أيضاً لملاحظة ما اشتملت عليه من أمثلة هذه الخصوصيَّة بنفسه. لذلك أنتقل للكلام عن خصوصيَّة رابعة اختصَّ الله عزَّ وجلَّ بها هذا القرآن العظيم، وعلى مستوى الإعجاز أيضاً. خصوصيَّة تُشعرك بأنَّ هذا الكتاب المقدّس يُشَكِّل فيضاً من فيوض الله ربّ العالمين. فالذي نعلمه جميعنا هو أنَّ كل عالمٍ متخصّصٍ غالباً ما يؤلّف كتاباً يعصر فيه جملة ما توصّل إليه من علم، فإنْ طالع القارئ ما كتبه هذا العالم لا يلاحظ أنَّه قد حاد عن الموضوع الذي خصّص كتابه من أجلّه. فيأتي هذا الكتاب جافّاً ولا تلذّ قراءته إلا لأصحاب اختصاصه. ولا يستفيد منه القارئ إلا فائدةً وحيدة الجانب تدخل في باب الرّفاه العقلي ليس إلا. فهذه حقيقةٌ يتلمّسها كل قارئٍ بنفسه، وتنطبق على جميع مُؤلَّفات الكُتَّاب والأدباء من النّاس.

أمَّا القرآن المجيد، وإنْ أنزله الله تعالى على هيئة كتابٍ له مقدّمته ومتنه وخاتمته، فيستثنى من بين جميع الكُتُب المشار إليها من حيثُ أنَّه لم يدع حقيقةً

علميَّةً مهما كان نوع موضوعها إلا ومزجها بأداتي التّرغيب والتّرهيب، وبسطها بأشكالٍ متنوّعةٍ من الأساليب الإنشائيَّة؛ وبحيثُ تُؤدّي غرضاً ومهمّة محدّدةً، تدور في إطار تعريف هذا الإنسان على خالقه، وتدفعه في الوقت نفسه إلى محاولة التّعرّف عليه جلّ وعلا وللفوز بمحبّته وقربه ورضوانه. أي أنّنا بإمكاننا القول بأنَّ هذا القرآن الكريم امتاز بخصوصيَّة مزج نادرة المثال ومعجزةٍ يعجز الإنسان عن صياغتها بهذا الأسلوب المتنوّع وبهذا التّنسيق المدهش وهذه الأغراض السّاميَّة التي من أجلّ مقاصدها تطوير هذا الإنسان وتهذيبه، ولذلك تمّ إنزال هذا الكتاب العزيز.

لاشك أنَّ الفنان الرّسّام يقوم بعمليَّة مزجٍ للألوان. فيسعى إلى إبراز لونٍ جديدٍ من خلال مزجه للونين أساسيين. فلو أنَّه أراد رسم منظر طبيعي أو رسم إنسانٍ بعينه أو رسم جنس حيوان وغيره من المناظر فهو يقوم بعمليَّة المزج التي أشرتُ إليها ويُنتج من الألوان ما يساعده على تلوين المنظر الذي هو بين يديه وبمهارةٍ تختلف من رسّامٍ إلى رسّام ومن فنّانٍ إلى فنّان، فإذا ما أنجز اللوحة التي بين يديه، وعلّقها بجانب لوحاتٍ أنجزها فنّانون أمثاله، وعرض تلك اللوحات في معرضٍ خاصٍ بها يأتي المشاهدون أصحاب الأذواق العديدة والمختلفة لمشاهدتها، فهذا يُعجب بلوحةِ فلان. وذاك يعجب بلوحة فلان، وقد يتّفقون على عظمة بعض اللّوحات من حيثُ المزج وتوزيع الألوان وإخراج المنظر الذي أراد الفنّان إظهاره للوجود.

فهذا الأمر ممكنٌ حدوثه على صعيد الفنّ والفنّانين، لكنَّ هذا القرآن العظيم الذي قام بعمليَّة المزج المشار إليها، أنّى لإنسان أو كائن آخر أنْ

يعرض بجانبه لوحاته ليمكّن القارئ من القيام بعمليّة مقارنة شبيهة بمقارنته للوحات الرّسّامين؟

فقد ذكرتُ من قبل كيف أنَّ كلّ عالمٍ مختصٍّ يكتب في مجال اختصاصه فلا يحاول محاولة المزج التي أشرنا إليها إلا الوُعّاظ الذين يستمدّون وعظهم من آيات هذا القرآن الكريم. ولماذا يعظ الوُعاظ النّاس؟ يعظون النّاس كمؤمنين وتابعين لهذا الكتاب العزيز الذي أمر الله تعالى فيه وصاغه كذلك وقال في الآية (104) من سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يأمر بهذه الموعظة بلا قيود، بل قيّدها في سياق كلامه من خلال قوله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. كذلك فقد قيّد الله تعالى موعظته تلك في سياق الآية نفسها أيضاً وقال ﴿تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. فعمليّة المزج ما بين التّرغيب والتّرهيب وما بين مختلف الحقائق العلميَّة وتطويع ذلك كلّه بشكل متوازن ومسخّرٍ لتحقيق غرض محدّد هو في خدمة هذا الإنسان ولصالحه هو العمليّة التي أطلقت عليها اسم الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة المعجزة، والتي تدخل في فيوض ربّ العالمين. فقلّب يا عزيزي القارئ صفحات هذا القرآن المجيد صفحة وراء

صفحة تلاحظ أنَّ كلّ صفحة من صفحات هذا القرآن المجيد تشتمل تارةً على حقيقة فلكيَّة، وتارة على حقيقة تاريخيَّة وتارة على قصّة أقوام ماضين، وتارة على فرائض دينيَّة وعلى أحكام شرعيَّة، وتارة تنتقد عقيدة قوم يعادون الإسلام. والعجيب أنَّك تلاحظ يا عزيزي القارئ أنَّ جميع ما يمرّ من أمام عينيك يرد مُصاغا صياغة بلاغيَّة مشتملة على ترغيب يرافقها ترهيب. وترد تلك الصّياغة جميعها بأساليب إنشائيَّة مختلفة وهي تحثّ في الوقت نفسه هذا الإنسان على التّفكير ليتعرّف على خالقه جلّ شأنه، وتحثّه على إطاعة أوامره وبالإيمان بالمبعوث السّماويّ.

مثال أوَّل يثبت وجود الخصوصية الرَّابعة:

هذا؛ وإنَّ القارئ العزيز الذي يوافقني على وجود هذه الخصوصيَّة الرّابعة يُطالبني بتقديم أمثلة تثبت مصداقيّتها، ومن داخل هذا القرآن المجيد نفسه، وبالتّفصيل، ليوسّع بذلك رقعة رؤيته لمعالم هذه الخصوصيَّة الرّابعة الجذّابة والمتميّزة. فأقول: لن أبخل في الاستجابة لطلبك يا عزيزي القارئ، لكنّي أرى أنْ أذكّرك في هذا المقام بأنَّ هذا القرآن المجيد هو كتاب، وإنْ كان كسائر الكُتُب من حيثُ له مقدّمته ومتنه وملخّصه. فإنَّ هذه الحقيقة تفرض عليّ أنْ أقدّم لك أمثلة مستقاة من مقدّمة هذا القرآن، وهي سورة الفاتحة، ومن متنه الوارد ما بين المقدّمة والخاتمة ومن السّور التّي لخّصتْ مضامين هذا القرآن المجيد. وأتناول أوَّل مثال من سورة الفاتحة فأقول: إنَّ سورة الفاتحة هي مثالٌ حيٌّ يجسّد الخصوصيَّة الرّابعة التي شرحناها، فليلاحظ القارئ عمليَّة المزج التي تتكوّن منها دعاء الفاتحة. فأوَّل ما تلاحظه يا عزيزي القارئ

هو أنَّ سورة الفاتحة وردت مصاغةً على شكل دعاء، ليعطينا درساً في موضوع ما نريد استجداءهُ من ربّنا عزَّ وجلَّ. وأنْ نشرع بين يدي ربّنا نحمده حمداً كاملاً على جميع ما أنعمه علينا من فضلٍ ونعماء ومتضرّعين بأسمائه الحسنى التي تتناسب وما نطلبه من طلب بين يديه عزَّ وجلَّ، وهذه الحقيقة التي نبّهتُكَ إليها تعني بألفاظ أخرى أنَّ آيات سورة الفاتحة قد مزجت من خلال الآيات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مزجت ما بين موضوع الدّعاء من جهة وما بين موضوع أسماء الله الحسنى من جهة أخرى.

وإليك بالملاحظة الثّانية، فهي تجلّت في تعليم الله تعالى إيّانا أنْ نركّز دوماً على طلبٍ رئيسيٍّ في أدعيتنا نابعٍ من معطيات المقصد من حياتنا من جهة، ونابعٍ من عقيدة وحدانيَّة الله التي نعتقدها من جهة أخرى، فندعوه سبحانه وتعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وبذلك يكون الله تعالى قد أضاف إلى عمليَّة المزج الأولى، عمليَّة مزجٍ ثانية، وهي المزج ما بين المقصد من خلق هذا الإنسان وما بين عقيدة وحدانيَّة الله جلّ شأنه.

أمَّا الملاحظة الثّالثة التي نلاحظها، فقد تجلّت في ترغيبنا في أنْ نطلب من ربّنا أنْ يجعلنا من زمرة النّاس الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين. وقد عبّر عن ذلك الدّعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. ومنبّهاً جلّ شانه أذهاننا من خلاله إلى أنَّ هناك أناس قد حرّفوا تعاليم ربّهم وما عاد تديّنُهم قائماً على تعاليم الصّراط المستقيم الموصل إلى الله والمرضيّ عنه. وقد مزج الله

تعالى ما بين هذه الحقيقة التي عبّر عنها بقوله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وما بين حقيقة ثانية هي أنَّ للصّراط المستقيم ثماره الرّوحيَّة. وهذه الثّمار الرّوحيَّة تُثمر مقاماتٍ روحيَّة تتراوح ما بين مقامات النّبوّة والصّدّيقيَّة والشّهادة والصّلاح. وقد عبّر الله تعالى عن هذه الحقيقة الثّانية من خلال دعاء ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. وعلى هذه الصّورة يكون الله جلّ شأنه قد حقّق من خلال ذلك كلّه مزجاً ما بين هاتين الحقيقتين إضافةً إلى عمليّتي المزج السّالفتي الذّكر اللّتين لفتنا إليهما أنظار قارئ القرآن الكريم. علماً بأنَّ الله جلّ شأنه قد أورد هذه العمليَّة الثّالثة من المزج محلاّةً بلباس التّرغيب، ولم يأت بها جافة لا حياة فيها.

وملاحظة رابعة تلاحظها يا عزيزي القارئ من خلال هذه المقدّمة المُؤلَّفة من السّبع المثاني من الآيات أنَّها أتت مكسوّة بلباس التّرهيب، وذلك حين مزج الله تعالى فيها كلامه عن شريحتين من النّاس: المتديّنون منهم والمنحرفون عن الصّراط المستقيم، والذين يمثّلون ظاهرتي الإفراط والتّفريط في كلّ شيءٍ، وقد عبّر الله تعالى عن ذلك من خلال تعليمنا دعاء ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وبذلك يكون الله جلّ شأنه قد مزج ما بين حقيقتي هاتين الظّاهرتين وبلباسِ التّنفير منهما والتّرهيب من الوقوع فيهما، بإضافة إلى عمليات المزج الثّلاث التي سلف أنْ ذكرناها. ولم يكتف الله تعالى بعمليات المزج الأربعة التي ذكرناها، بل وعلّمنا أنْ نقول وبكلّ أدبٍ في نهاية دعاء الفاتحة (اللّهمّ آمين) بمعنى أنَّنا نتوسّل إليك يا ربّنا يا صاحب الأسماء الحسنى أنْ تُشعرنا باستجاباتك لكلّ ما دعوناك من أجله.

وعلى هذه الصّورة تكون مقدّمة هذا الكتاب العزيز التي هي فاتحة هذا القرآن المجيد قد أصبحت شاهداً حيّاً على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة المعجزة والمصاغة صياغةً بلاغيَّةً مشتملةً على عمليّات المزج التي ذكرناها ومكسوّةً بلباس التّرغيب والتّرهيب، وحاثّةً على تحقيق مقصدٍ معيّن هادفٍ هو في مصلحة هذا الإنسان، فما أجمل هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة وهي متجلّيَّة معالمها في فاتحة الكتاب!!

مثال ثاني يثبت وجود الخصوصيَّة الرّابعة:

وأتناول الآن مثالاً آخر استقيتُهُ للقارئ العزيز من خاتمة هذا الكتاب العزيز الموسّعة التي اشتمل عليها الجزء الأخير منه والمسمّى (جزء عمّ). فقد اخترتُ لك يا قارئي العزيز سورة (التّين) كمثالٍ حيٍّ شاهدٍ على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الرّابعة التي تكلّمنا عنها وبأسلوب الملاحظة العلميّ نفسه الذي لجأنا إليه في مثال سورة الفاتحة.

فالملاحظة الأولى التي نُلاحظها من خلال الآيات الثّلاثة الأوائل من آيات هذه السّورة هو أنَّ الله جلّ شأنه قد مزج فيها ما بين مصطلحات الأدب العالميّ الذي تعارف عليه الأدباء وما بين عمليَّة التّذكير بالبعثات السّماويَّة الكبرى التي حدثت في هذه المنطقة لتطوير هذا الإنسان ولتهذيبه وتحضيره بعد إحداث الله سبحانه وتعالى نقلةً نوعيَّة على يدي آدم، تمثَّلت في نقل البشر من سكنى الكهوف إلى سُكنى السّهول والجبال. وقد أتى الله جلّ شأنه بهذا المزج بلباس القَسَم أيضاً ليعني أنَّه جلّ شأنه يقدّم من خلال ذلك شهادةً تاريخيَّةً تشهد على مصداقيَّة ما شاء تعالى بيانه للعالمين. فهذا المزج

وهذا الأسلوب عبّر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ ولنلاحظ التّنقيط الذي فصل بين كلّ آيةٍ وأخرى من هذه الآيات الثّلاثة المذكورة. فلقد جمع الله تعالى ما بين رمزي ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ الذي رمز من خلالهما إلى بعثتي آدم ونوح عليهما السّلام. إلى هذين النّبيّن اللّذين قام الأوَّل منهما بإحداث النّقلة النّوعيَّة المشار إليها. وقام الثّاني بتجديدها وتطويرها ودام أثر ذلك مدّة تسعمائة وخمسين عاماً. ومن ثمَّ فقد أتى سبحانه وتعالى بالرّمز الدّال على بعثة موسى الذي بعثه ربّه بشريعة جديدةٍ والذي التصق اسمه بما حدث على جبل الطّور من سيناء. فأتى تعالى بالرّمز المذكور مستقلاً عن الآية السّابقة وما بين نقطتين للتّعبير بذلك عن استقلاليَّة تأثيره في المنطقة. كما أتى تعالى باسم الإشارة للقريب (هذا) وقال ﴿ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ إشارةً إلى البلد الذي أءتمن على أوَّل بيت للعبادةِ بناه آدم عليه السّلام، وهو البيت العتيق الذي حجّ إليه نوح عليه السّلام إحياءً لذكرى آدم عليه السّلام، وهو المكان الذي رحل إليه إبراهيم عليه السّلام بأمر ربه لإعادة تشييد هذا البيت العتيق، وقد تعرّف إلى المكان حين وصوله إلى الجبل المسمّى جبل عرفات تخليداً لذكرى تعرّف إبراهيم على منطقة البيت العتيق. وعليه؛ فإنَّ تنقيط هذه الآيات الذي رافق عمليَّة المزج المشار إليها قد شكّل ظاهرة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة التي نتكلّم عنها. وهكذا أتت هذه الآيات الثّلاثة التي استُهلّت بها سورة البلد شاهدةً على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الرّابعة المعجزة يقيناً.

وإنَّ الملاحظة الثّانية التي نلاحظها في سورة التّين هذه تتمثَّل في أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد راح في الآية الرّابعة من هذه السّورة يُظهر للقارئ معالم الحقيقة

التي ربطت ما بين هذه البعثات الأربعة السّماويّة من حيثُ الموضوع والمقصد الذي حدثت تلك البعثات من أجل تحقيقه والتي جاءت تعاليمها مستندة إلى معطياته وعلى أساسٍ منه، وهو أنَّ النّفس البشريّة وإصلاحها وتطويرها هي أساس التّعاليم التي بعث الله تعالى آدم ونوحاً وموسى ومحمداً صلوات الله عليهم أجمعين لأدائها، ولم يطرح الله جلّ شأنه هذه الحقيقة جافةً على طريقة الأدباء البشر، بل طرحها بأسلوب المزج ما بينها وما بين حقيقة الفطرة التي فطر الله تعالى عليها هذا الإنسان وقال ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وبذلك يكون الله عزَّ وجلَّ قد حقّق حتّى اللّحظة عمليتي مزجٍ كبيرتين وظاهرتين للأعين.

وإليك يا عزيزي القارئ بالملاحظة الثّالثة التي نلاحظها، وهي أنَّ الله تعالى راح يصوّر للقارئ حال الإنسان الذي لا يعي هذه الحقائق التي بيّنها له من خلال الآيات الأربعة سالفة الذّكر، ويصوّر له ذلك تصويراً فنيّاً مغلّفاً بلباس التّرهيب، ولكن ليس على صورةٍ يُدخل معها إلى قلبه حالةً من اليأس. فمزج تعالى ما بين عمليَّة التّرهيب من المصير الذي ينتظر كلّ من يكذّب بتلك الحقائق التّاريخيَّة والعلميَّة وما بين بصيصٍ من الأمل فتحه عليه وذلك في الآية السّادسة التي استهلّها الله جلّ شانه بحرف الاستثناء (إلاّ) وقال فيها ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وبذلك أعطى الله تعالى القارئ فكرةً مجملةً عن النّاجين من هذا المصير، وليدفعه للحصول على الخلاص من هذا المصير الأسود المحتوم.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بكلّ ما فعله، بل أتى بفاء الاستئناف، وخاطب رسوله الكريم قائلاً: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فأدخلَ الطّمأنينة إلى قلب محمّد رسوله الأمين، ودفعه للمباهاة بما يحقّقه ربّه على يديه من إحداث نقلة تطويرٍ نوعيَّة جديدة على شاكلة ما كان تعالى قد حققّه من قبل على أيدي الأنبياء المشرّعين الثّلاثة الذين سبقوه. ولم يكتف الله سبحانه بهذا كلّه، بل أنّهى سورة التّين بقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ منبّهاً من خلال قوله هذا إلى أنَّ الله تعالى هو الحكم الأخير في هذا الكون، فهو أحكم الحاكمين. وبذلك يكون الله جلّ شانه قد قام بعمليّات مزجٍ، ومستعملاً خلال ذلك كلّه أداتي التّرغيب والتّرهيب، وذلك من خلال مضمون الآيتين الكريمتين اللّتين قال فيهما: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ويكون الله تعالى بذلك قد أبرز من خلال عمليات المزج تلك وما بين عمليّات التّرغيب والتّرهيب معالم هذه الخصوصيَّة الرّابعة المعجزة والمتميّزة، فأثبت بذلك مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة التي كنّا قد تكلّمنا عنها ووضّحناها من قبل.

وخلاصة ما ذكرناه هو أنَّ البعثات التّشريعيَّة السّماويَّة الثّلاث السّابقة وهذه البعثة السّماويَّة الرّابعة والأخيرة من تلك البعثات هي التي طوّرت هذا الإنسان وهذّبته طوال عشرة آلاف عام منذ بعثة آدم وحتَّى بعثة سيِّد المرسلين، وقد شكّل نجاح تلك البعثات السّماويَّة الدّليل القاطع على حتميَّة نجاح هذه البعثة الرّابعة الأخيرة، وهذا هو الذي دفعه تعالى ليطمئن ويقول ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أنَّه جلّ شأنه

قد أدخل فاء الاستئناف على (ما) الحرفيَّة والتي أدخلها على الفعل المضارع (يكذّبك) ليفيدَ هذا الفعل معنى الحال مع انتفاء القرينة الدّالّة على ذلك، كقوله تعالى في مقامٍ آخر ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ (محيط المحيط). ثمَّ إنَّ الباء من قوله تعالى: ﴿بَعْدُ﴾ فهي الباء السّببيَّة التي تفيد معنى السّبب، أمَّا كلمة (بعْد) نفسها، فتفيد الانتهاء من موضوع مع الجزم بفصل الخطاب وللوصل في الوقت نفسه بين كلامين، وتفيد معنى الحال الذي تُستعمل فيه. ففي خطبة الجمعة ما إنْ ينتهي الخطيب من الشّهادة على وحدانيَّة الله تعالى وعلى أنَّ محمداً رسول الله ﷺ حتَّى يقول [أمَّا بعد] ويقصد إنَّني أنتقل من تقديم هذه الشّهادة التي شهدتُ بها إلى الكلام في موضوع آخر يتّصل بها. أمَّا كلمة (الدِّين) الواردة في هذه الآية الكريمة، فهي معرّفةٌ بالألف واللام ليكون المقصود بها الدِّين الإسلاميّ الحنيف الذي بُعث به محمد بن عبد الله ﷺ. فالله جلّ شأنه راح يخاطب رسوله الأمين في هذه الآية السّابعة من سورة التّين ويقول له: ما دمنا قد كشفنا لك عن هذه الحقائق التي ذكرناها، ووضّحنا لك طريق الخيبة والخسران من طريق الفلاح والنّجاة فلا يعود لأحدٍ الحقّ بأنْ يتّهمك بعد ذلك بالكذب والافتراء على ربّك في موضوع هذا الدِّين الإسلاميّ الحنيف الذي بعثتك به، خصوصاً وأنّي زوّدتُكَ الآن بحقائق لا تقبل التّأويل. فإنْ لم يستفد الذين يكذّبونك من جميع ما ذكرناه وثابروا على تكذيبهم إيّاك بلا حجّة وبلا برهان يواجهونك به، فتذكّر عظمة ربك وقدراته، وقل لهم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ وعلى هذه الصّورة يكون الله عزَّ وجلَّ قد مزج في هاتين الآيتين الأخيرتين ما بين إلقاء الحجّة

على المكذّبين وما بين التّهديدِ بقدراته تعالى كربّ للعالمين، فأعظم يا عزيزي القارئ بهذه الخصوصيَّة الرّابعة القرآنيَّة المعجزة. وعلى هذه الصّورة أكون قد قدّمتُ للقارئ من خلال سورة التّين التي لخّص الله تعالى بواسطة آياتها الإشارة إلى البعثات التّشريعيَّة الأربعة التي اشتملت عليها آياتها، وليصبح هذا المثال الثّاني المستقى من سورة (التّين) شاهداً حيّاً بدوره على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة المعجزة والمصاغة صياغةً بلاغيَّةً والمشتملة على عمليات المزج بين عدّة مواضيعٍ وبأسلوبٍ إنشائيٍّ متميّزٍ وهي مغلّفةٌ بلباس التّرغيب والتّرهيب وحاملةٌ على أكتافها مهمّة تحقيق مقصدٍ معيّنٍ ومحدود ومسخّر في الوقت نفسه لصالح هذا الإنسان.

مثال ثالث يثبت وجود الخصوصيّة الرّابعة:

وسأسعى يا عزيزي القارئ وبعد تقديمي هذين المثالين أنْ أقوم بتقديم أمثلةٍ مستقاةٍ من نصوصٍ متنِ آيات سور هذا القرآن العظيم، مع التّركيز مجدداً على التّعرّض لذكر انفراد هذا الكتاب المقدّس القرآن بهذه الخصوصيَّة الرّابعة التي تجعل كلّ سورةٍ من سوره لوحةً فنيَّةً فريدةً كلوحات الفنّانين العالميين، وتحمل في الوقت نفسه جاذبيَّة تلك اللوحات الفنّيَّة نفسها، ولكنْ؛ على مستوى من العظمة والكمال. فأنتَ إذا علّقتَ سورة الفاتحة على جدار منزلك تدفعك كلّما وقع نظرك عليها إلى حمد ربك والاستعانة به لتسعى لتصبح من جملة الذي أنعم الله عليهم، ومبتعداً عن كلّ إفراطٍ وتفريط فيما تفعله يومياً. وأنتَ إذا علّقتَ سورة التّين على جدار منزلك تدفعك كلّما وقع نظرك عليها إلى تذكُّر تاريخ هذا الإنسان خلال حياة

توحّشه، وكيف أنّه بعد أنْ استجاب لصوت السّماء، فقد عاد مهذّباً ومختلفاً حاله عن حال تاريخه الأوّل البعيد الذي يعود إلى تاريخ عصوره الحجريَّة، كما تُذكرك بتلك البعثات السّماويَّة الأربع الكبرى التي أثمرت تعاليمها هذا الإنجاز العظيم، وتذكّرك أيضاً بقدرات ربّك التي لا تحدُّها حدودٌ، كما تذكّرك بذلك اليتيم الأمّيّ الذين اصطفاه ربّه، ليحمل إليك هذه اللّوحات الفنيَّة الجذّابة التي تنبض بالحيويَّة والعطاء مهما طال عليها الزّمان.

وأتوجّه الآن لأقدّم لك يا عزيزي القارئ مثالاً جديداً من إحدى سور المتن القرآني، وذلك بعد أنْ فرغنا من تقديم أمثلة من فاتحة هذا القرآن ومن خاتمته لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة والمعجزة التي تميّز بها هذا الكتاب المقدّس عمّا تعارف عليه الكُتّاب والأدباء. هذه الخصوصيّة المُتعلّقة بهذا المزج الطّريف والأمثل ما بين مواضيع عديدة في سورةٍ واحدة، وبأساليب إنشائيَّة متنوعة، وبصياغةٍ بلاغيّةٍ معجزةٍ، وبغرض هداية الإنسان، ولتعريفه على خالقه، وليفوز بمحبته وقربه ورضوانه. وها أنّي دعوتُ الله تعالى وفتحتُ القرآن الكريم لا على التّعيين، وإذ بي في مواجهة آيات سورة الأحقاف المُنزلة في مكّة المكرّمة والتي لم يتجاوز عدد آياتها الخمسة والثّلاثون آية تلك السّورة التي كان الله تعالى قد أنزلها في أحلك الأيام من الفترة الزّمنيَّة المكّيّة للدّعوة الإسلاميَّة، وليُصغي القارئ معي إلى الآيات الثّلاثة الأوائل من سورة الأحقاف هذه التي قال الله تعالى فيها ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ .

إنَّكَ إنْ كنتَ يا عزيزي القارئ قد طالعتَ مُؤلَّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) تدرك من خلال معطياته كيف أنَّ الله جلّ شأنه ألحق بسورة الأحقاف سوراً ثلاثةً هي (سورة محمد والفتح والحجرات) كفصولٍ مكملةٍ لموضوعها. وهي خطّة درج الله تعالى على الأخذ بها في موضوع الأحرف المقطّعة. فنتساءل: هل سار الله تعالى في سورة الأحقاف على نهج الكُتّاب والأدباء الذين يقسّمون موضوعهم الذي يريدون بحثه إلى أبوابٍ، ويقسّمون كلّ بابٍ إلى فصول. ويضعون عنواناً لكلّ فصلٍ ولكلّ بابٍ من أبواب مُؤلّفاتهم؟

فإنْ نحن أمعنّا نظرنا في الآيات الثّلاثة الأولى التي أوردناها آنفاً يتبيّن لنا أنَّ الله تعالى قد أتى بالحرفين المقطّعين ﴿ حمٓ ﴾ كعنوانٍ للباب الأوّل من سورة الأحقاف ومختزلاً من كلمتي حميدٍ مجيد، وبمعنى أنَّ الله الجامع للمحامد كلّها ونبيل الذّات والصّفات هو الذي أنزل سورة الأحقاف لتبحث فيما يثبت مصداقيَّة كون الله تعالى حميدٌ مجيد. فهذا هو مضمون ﴿ حمٓ ﴾ الذي يُشكّل عنوان الآية الأولى التي استهلّ الله تعالى بها سورة الأحقاف.

ولنتناول الآية الثّانية من هذه المجموعة الأولى من الآيات الكريمة والتي قال تعالى فيها ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فتلاحظ يا عزيزي القارئ بأنَّ الله تعالى أورد فيها فعل (التّنزيل) ولم يورد فعل الإنزال. فما هي دلالة ذلك؟

أقول: لقد كان القصد من ذلك أنْ يشير الله تعالى إلى أنَّه يُنزل آيات هذا الكتاب منجّمةً، ولا يُنزلها دفعةً واحدةً، وأنَّ سورة الأحقاف تُمثّل

مرحلةً من مراحل تنزيل هذا الكتاب. وأضاف وقال إنَّ عمليَّة التّنزيل هذه صادرة (من الله) بمعنى أنَّ ابتدائها والتّخطيط لها قد حدث من قبَل الذّات الإلهيَّة نفسها، وليس من طرفٍ آخر سواه. فمن هي هذه الذّات الإلهيَّة؟ أجاب الله تعالى عن هذا السّؤال وقال ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي أنَّ هذه الذّات التي تنزّل هذه الآيات تتّصف بصفات (الأسماء الحسنى) والتي من إحداها التي تجلّت بهذا التّنزيل ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (فالعزيز) معناه الذّات الشّريف والقويّ والقليل النّادر الذي لا يكاد يوجد مثله والمكرّم والمنيع الذي لا يغالب ولا يُعجزه شيء والملك لغلبته على أهل مملكته. (محيط المحيط). والذي من صفاته أنَّه (الحكيم) ومعناه العالم صاحب الحكمة المتقن للأمور والجامع للعلم والعمل (محيط المحيط).

فمن خلال معطيات هذه الآية الكريمة يكون الله تعالى يا عزيزي القارئ قد أعطى القارئ فكرةً واضحةً عن المنطلق النّظري الذي تأسّس عليه موضوع سورة الأحقاف. وقد راح الله جلّ شأنه يحدّد في الآية الثّالثة عناصر موضوع هذه السّورة وقال ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ وكانَّ الله جلّ شأنه قد قال بألفاظ أخرى إنَّنا نطلق في الموضوع الذي خصّصنا سورة الأحقاف لبحثه من المنطلقات التّالية:

أوّلاً - أنَّ هذا الكون المادِّيّ هو كونٌ مخلوقٌ، وله خالقٌ، وليس هو بأزلي الوجود. حتَّى وأنَّ كلّ شيءٍ ما بين السّماوات والأرض فهو مخلوق سواء أكان هذا الشّيء جماداً أو كان نباتاً أو كان أحياءً.

ثانياً ـ وأنَّ مُنطلق بحثنا التّالي هو أنَّ الله الذي خلق هذا الكون وما فيه فلم يخلِقه لمجرد العبث واللّهو، بل خلق كلّ شيء لتحقيق مقاصد وأهداف يتجلّى من خلالها (الحقّ) أي تتجلّى من خلالها العدالة والصّدق والقول الثّابت وبشكلٍ واضحٍ وجلّيّ (محيط المحيط). فهذان المنطلقان النّظريان تضمّنهما قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

ثالثاً ـ وأنَّ منطلق البحث الثّالث ينطلق من أنَّ هذا الكون المادّيّ غير دائم، بل هو سيزول في يوم من الأيام بعد أنْ يحقّق خالقه أغراضه ومقاصده المرجوّة من خلقه. فهذه هي دلالة قوله تعالى ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

فلمّا فرغ الله تعالى من صياغة هذه المنطلقات النّظريّة الثّلاثة صياغةً بلاغيّةً مدهشةً، توجّه إلى القارئ ليوضّح له حقيقة الذّات التي تخاطبه والمقصود من هذا البحث الذي ستبحثه سورة الأحقاف. فأتى الله جلّ شأنه بواو العطف، ولتفيد معنى الحال وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾. وبمعنى أنَّ بحث هذه السّورة موجّهٌ إلى النّاس الذين أنكروا مصداقيّة هذه المنطلقات النّظريّة التي أتينا على ذكرها أعلاه، وأنّه تعالى هو الذي أعلمهم بها، وحذّرهم من عواقب الكفر بها ومن تكذيبها.

يقول الله تعالى أنّه بالرّغم من ذلك فما يزال هؤلاء يعرضون عن الإصغاء إلى هذا الصّوت السّماوي، فالحرف ما من (عمّا) استعمل هنا بمعنى الباء كقوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي ما ينطق بهواه. فهذه هي دلالة مضمون قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾.

والآن؛ وبعد أنْ أحطنا علماً بدلالات هذه الآيات الثّلاث الأولى نعود نتفحّصها من منظار الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة التي نحن بصددها، فنلاحظ بأنَّ الله جلّ شانه قد اختصر في هذه الآيات الثّلاثة التي لا يتجاوز عدد كلماتها عشرين كلمة، اختصر ما لا يستطيع الأديب الكاتب التّعبير عنه في صفحات. مع الملاحظة أنَّ الله تعالى قد مزج في هذه الآيات الثّلاثة ما بين مواضيع عدّة، ما بين فنّ الاختزال القرآني وما بين وجود عالم الآخرة وما بين المنطلقات النّظريَّة للبحث الذي ستبحثه سورة الأحقاف وما بين الجهة المقصودة من هذا البحث. فعمليَّة هذا المزج التي تمَّت ما بين هذه الموضوعات جميعها والتّعبير عنها من خلال ثلاثة آيات كريمة لا يتجاوز عدد كلماتها عشرين كلمة، إنْ نحن ما عددناه من باب الإعجاز، فلا نكون قد أدركنا ماذا يكون الإعجاز. ولنلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الفقرة الأخيرة من الآية الثّالثة قد ورد مضمونها محلّىً بلباس التّرهيب أيضاً، وهو المعنى الذي تضمّنه فعل (أُنذروا) علماً بأنَّ الإنذار يعني الإعلام عن عواقب الأمر قبل حلوله والتّخويف في إبلاغه (محيط المحيط). ولنتوجّه الآن يا عزيزي القارئ لنتدبّر الآيات الواردة بعد هذه الآيات الثّلاثة التي شكلّت مجموعة أولى وبعنوان مخصوص. فما هو عنوان هذه المجموعة الثّانية الجديدة من الآيات والتي يُفترض أنْ تُعنون بعنوانٍ فصلٍ جديدٍ؟ فلنصغ الآن إلى هذه المجموعة الثّانية من الآيات، ولننظر كيف تحقّق عنونتها بعنوانٍ جديد.

أ فتلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله تعالى قد أتى بكلمة (قل) التي تفيد الأمر بالتّبليغ وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى

مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ ؟ .

ألا إنَّ الكتاب العاديّ إذا شاء الدّخول في صلب الموضوع الذي خصّص مُؤلِّفه من أجل بحثه وبيانه يفتح عنوان بابٍ جديد، ومن ثمَّ يتبعه بعناوين فصولٍ تابعةٍ له، وعلى حسب ما تعلّمناه جميعاً. لكنَّ شيئاً من هذا لم تعمد إليه هذه الآيات الكريمة، وفي وقت أخذ الله تعالى يبحث فيها موضوع السّورة الأصلي. لذلك كان من واجب القارئ أنْ يتساءل عن كيفيَّة تحقيق هذه النّقلة النّوعيَّة من الباب الأوَّل إلى الباب الثّاني من سورة الأحقاف.

وأجيبه عن هذا السّؤال فأقول: أ فما لاحظتَ يا عزيزي القارئ هذه الفقرة الأخيرة من آخر آيةٍ من المجموعة الأولى من الآيات الثّلاث سالفة الذّكر، والتي قال تعالى فيها وهو يحدّد الجهة المقصودة من البحث قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ ؟ ثمَّ؛ أ فما تساءلت أنت بالذّات هذا السّؤال الآنف الذّكر والذي تستفسر به عن كيفيَّة تحقيق الانتقال من بابٍ إلى بابٍ جديدٍ من البحث الذي تبحثه هذه السّورة؟! فلاحظ كيف أنَّ الله جلّ شأنه قد استغلّ سؤالك البديهيّ هذا، واستهلّ أوَّل آيةٍ من هذه المجموعة الثّانية من الآيات بفعل الأمر (قل). فإنْ أنت بحثت عن اسم المخاطب الذي يعود إليه خطاب فعل (قل)، فلا تعثر على هذا الاسم المطلوب. وهذه قرينةٌ دالّةٌ على أنَّ الله تعالى راح يجيب عن هذا السّؤال الذي تساءلته أنت، ليجعله الله جلّ شأنه أداةَ الدّخول إلى بابٍ جديدٍ من أبواب بحثه المطلوب،

والذي هـو موجّـه إلـى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المذكوريـن في الفقـرة الأخيـرة التـي أوردناها من قبل.

فبهذا الأسلوب من الصّياغة البلاغيَّة المعجـزة قـد حقّـق الله جـلّ شـأنه هذه النّقلة النّوعيَّة من بابٍ إلى باب موضوع جديد مستقلّ عمّا سبقه، وكأنَّه تعالى وبهذا الأسلوب قد قال بألفاظٍ أخرى: يا أيها القارئ الـذي أحـاط علمـاً بمضامين الآيات الثّلاثة السّابقة والتّابعة لبـابٍ مسـتقلّ مـن بحثنـا. وتسـاءلت هذا السّؤال الآنف الذّكر، فما عليك إلاّ أنْ تتسلّح بهذه الأدلّة التي سأزوّدك بـها لمواجهـة ومحـاورة فئـة الذيـن كفـروا والذيـن أنذرنـاهم بـه فيمـا تضمّنتـه الآيات الأولى، أولئك الذين لم يستجيبوا وكانوا معرضين. وعليـه؛ وبـهذا الأسلوب البلاغيّ يكون الله جلّ شأنه قد اختصر ما اعتاد الكاتب الالتزام بـه لينتقل في بحثه من بابٍ إلـى بـاب آخـر، وبذلـك يكـون جـلّ شـأنه قـد دخـل موضوع الباب الثّاني، ليبحثه بصورةٍ مباشرةٍ وبالأسلوب الذي لاحظناه آنفاً.

والآن؛ وبعد إحداث هذه النّقلـة الآنفـة الذّكـر مـن خـلال فعـل (قـل) لنلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله تعـالى راح يـزوّد المؤمـن السّـائل بـأوَّل دليـلٍ يُثبـت مصداقيَّـة مـا طرحـه تعـالى مـن قبـل مـن منطلقـاتٍ نظريَّـة وطروحات. فقد قال الله تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟

فـهذا القـول يتضمّـن الدّليـل الأوَّل الـذي أورده الله تعـالى بأسـلوبٍ هجومـيٍّ لا تـراخٍ فيـه. فـهو تعـالى علّـم المؤمـن إذا حـاول محـاورة كـافرٍ بالمنطلقات السّالفة الذّكر أنْ يُطالب هذا الكافر المعتقد بوجود معبودٍ صنـمٍ أو

يزعم بوجود ثالوثٍ مقدّسٍ أو يعتقد بتعدّد الآلهة، أنْ يُبادر إلى مطالبته أنْ يدلّهُ على شيء مخلوقٍ على أيدي هذا الإله الذي يقدّسه ويعبده. ومن باب أنَّ كلّ إلهٍ يكون خالقاً على أقلّ تقدير. وأنَّ كلّ شيء يكون مخلوقاً.

وكانت الغاية من طرح هذا السّؤال على الكافر لإفحامه من واقع هذه الحياة الدّنيا. فلقد أثبتت البحوث العلميَّة بأنَّ السّماوات والأرض وما بينهما من أشياء إنَّما تخضع جميعها إلى قوانين طبيعيَّةٍ واحدة. ولا يوجد فيها أيّ شيء يخالف هذه الحقيقة الكونيَّة. الأمر الذي يثبتُ من خلاله بأنَّ خالق هذا الكون هو إلهٌ واحدٌ لا شريك له في ملكه. كما ثبت علمياً بأنَّ خلق هذا الكون يرجع إلى ما بين (12 ـ 20) مليار عام وهي الحقيقة التي دلّت عليها نظريَّة الانفجار العظيم العلميَّة. فهذا هو السّبب الذي دفع الله جلّ شأنه المؤمن بأنْ يُطالب أيّ شريحةٍ من شرائح الكُفَّار المشركين وغير المشركين بأنْ يطالبهم ويقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟ وقصد الله تعالى من كلمة (الأرض) هذه الكرة الأرضيَّة وما عليها من جمادٍ ونبات وأحياء. فإنَّ هذا الكافر إذا ما سألناهُ هذا السّؤال، سيقف حائراً مُفحماً لا يجد ما يردُّ به على سؤالنا بجواب.

وبفرض أنْ حاول هذا الكافر التّدليل بما هو بعيدٌ عن هذه الأرض وما فيها، وزعم وجود أشياء مخلوقة في السّماوات وأنَّ معبوده هو خالقها. فقد افترض الله تعالى حدوث مثل هذه الإجابة. وقد زوّدنا بدليلٍ آخر ومن نوع آخر وقال ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وقد استهلّ الله جلّ شأنه هذا الدّليل الثّاني بالحرف (أم) الذي لا يتطلّب للإجابة عنه إلاّ بواحدةٍ من كلمتين (نعم) أو (لا) (محيط المحيط) أقدم الله تعالى على فعل هذا بسبب أنَّ هذا الدّليل الثّاني هو من النّوع الذي لا يحتاج إلى أكثر من الإجابة المشار إليها. وقد عبّر الله تعالى عن هذا الدّليل بقوله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والمعنى إنْ كنتم تقولون بتعدّد الآلهة وأنَّ معبودكم الثّاني شريكٌ في هذه السّماوات فإنَّ وحدة القوانين الطّبيعيَّة التي تُنظِّم السّماوات والأرض تكفي لتنقض اعتقادكم بتعدّد الآلهة. ومع ذلك؛ فلكلّ معبود كتابه الذي يفرضه على أتباعه والعمل على ما فيه من تعاليم لذلك ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بمعنى أنَّ من واجب الكافر المعتقد بتعدّد الآلهة أنْ يُبرز لنا كتاباً سماوياً كان قد أنزله خالقه المزعوم في زمان سبق إنزال هذا الكتاب العزيز القرآن. فإنْ عجز عن القيام بذلك فإنَّ من واجبه أنْ يأتي (بأثارةٍ من علم) أي بدليلٍ علميّ يثبت منه وجود أكثر من معبود خالق لهذه السّماوات هذا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعتقدونه أمَّا إذا عجزتم عن تقديم كتابٍ أُنزل من جانب معبودكم الثّاني، أو أنَّكم إذا عجزتم عن تقديم أيّ دليلٍ علميٍّ يثبت ذلك، فقد ثبت بالتّالي أنَّكم غير صادقين فيما تعتقدونه.

وعلى هذه الصّورة من هذه الصّياغة البلاغيَّة المعجزة، ومن اختصار وسائل الانتقال من بابٍ إلى باب ومن الدّخول في الموضوع مباشرةً، ومن طرح أدلّة قاطعة الدّلالة يثبت منها بطلان عقائد الذين كفروا الباطلة، يكون الله جلّ شأنه قد مزج ما بين ذلك كلّه، وأوجز التّعبير عنه من خلال قوله

تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فهذا كلّه ورد في الآية الأولى، وأمّا في الآية الثّانية في هذه المجموعة من الآيات التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾. فقد افترض الله تعالى فيها أنْ يُراوغ هذا الكافر ويتجنّب الدّخول في الحوار المنطقي والمعقول والعلميّ الذي تضمّنه الدّليلان السّابقان. لذلك؛ فقد راح الله عزَّ وجلَّ يسلّح هذا المؤمن بدليلٍ ثالثٍ عبّر عنه في هذه الآية الثّانية والذي يفصل بين الجانبين المؤمن والكافر، فما هي معالم هذا الدّليل الثّالث المشار إليه؟

فاعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ الله جلّ شأنه قد استند في دليله الثّالث إلى ظاهرتي الموت والحياة، إذ أنَّ كلّ شيءٍ أتى عليه الموت لا تعود تصدر عنه ردود فعل، على حين أنَّ الشّيء الحيّ تصدر عنه ردود فعلٍ تتناسب وجنسه ونوعيته. فإلهنا الذي لا إله إلاّ هو الحيُّ القيومّ يستجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه. على حين أنَّ الصّنم المعبود هو حجرٌ أصمٌ لا حياة فيه، لذلك؛ فإنَّ الإنسان الذي يدعوه فإنَّ هذا الدّاعي لا يسمع من جانب هذا الصّنم أيّ صدىً يحمل الإجابة عن الدّعاء. وقس على ذلك كلّ معبود باطل اعتقد به الإنسان على أنَّه إله، فلا يجيب هذا المعبود الباطل الدّعاء وإلى يوم القيامة.

وعليه؛ فقد حثّ الله تعالى المؤمن أنْ يُلقي بهذا الدّليل الثّالث التّجريبيّ في وجه هؤلاء المكذّبين بعد أنْ يستنفذ معطيات الدّليلين السّابقين. يأمره أنْ يُطالب هذا المشرك الكافر بالنّزول إلى ميدان المباهلة والدّعاء،

وكسلاحٍ أخيرٍ لا قبل للجانب الآخر التّصدّي له بحالٍ من الأحوال، وأنْ يقول له ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ بمعنى أنَّ أصحاب المعبودات الباطلة يستحيل عليهم أنْ يزعموا بأنَّ معبوداتهم يستجيبون أدعيتهم. وهذه الحقيقة يثبت من خلالها بُطلان كون تلك المعبودات أحياء. فلو كانوا في حقيقة أمرهم أحياء ومع ذلك لا يستجيبون أدعية عابديهم، فقد ثبت عدم اهتمام هذه المعبودات بعابديهم ولكونهم في غفلةٍ عنهم سادرين. فبهذه الصّياغة البلاغيَّة قد عبّر الله جلّ شأنه عن مضمون هذا الدّليل الثّالث، وليدلّل المؤمن بواسطته على بطلان عقيدة الشّرك والتّعدّديّة في الآلهة، والتي تتنافى والمنطلقات النّظريَّة الواردة في الباب الأوَّل الذي اشتمل على تلك المنطلقات.

ونأتي يا عزيزي القارئ إلى الآية الثّالثة من هذه المجموعة الثّانية من الآيات. فقد كان القصد من مضمونها افتراض إعراض هذا الكافر عن جميع هذه الأنواع من الحوار المنطقي والعقلاني والعلميّ، وصدوده عن سماع تلك الأنواع من الأدلّة. وهنا سمح الله تعالى لهذا المؤمن أنْ يقف من هذا الكافر الذي ألقى الله تعالى حجّته عليه أنْ يقف من هذا المنكر الكافر موقف المنذر المتحدّي ويقول له ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ وبمعنى أنْ اعلموا أيّها المعرضون المكذّبون بأنَّ يوم الحشر آتٍ بعد انقضاء هذا العالم الدّنيويّ، وأنَّ معبوداتكم الباطلة ستحشر أيضاً مع مَنْ يُحشر يومئذٍ، وإنَّ معبوداتكم هذه ستكفر بعبادتكم إيّاها يوم الحشر، بل وتقف منكم موقف العداء، فهذا هو المعنى الذي تضمّنته هذه الآية الثّالثة

آنفة الذّكر، والمصاغة هي بدورها صياغة بلاغيَّة معجزة لا يدرك مضامينها إلاّ مَنْ تدبّرها بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. وهنا أطالب القارئ الكريم أنْ يستعرض المواضيع التي تطرّقت إليها هذه المجموعة الثّانية من آيات هذه السّورة سورة الأحقاف أنْ يستعرض هذا الأسلوب البلاغي الذي صاغ الله تعالى به هذه الآية الكريمة للانتقال من باب إلى باب من موضوع هذه السّورة، وليستعرض هذه الأدلّة الثّلاثة القاطعة الدّلالة على وجود ووحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ، وليدقّق في نوعيَّة هذه الأدلّة المشار إليها. وليستعرض نهج هذا الأسلوب العلميّ في طرح هذه الأدلّة، وكيفيَّة إلباس الدّليل الثّالث لباس ترهيب الكافر من خطوة إنكاره لهذه الحقيقة، وتقريره سبحانه وجود يوم الحشر، وتبرُّؤ المعبودات الباطلة يومئذٍ من الذين كانوا يعبدونهم، وهو تحدٍّ ما بعده من تحدٍّ.

فعمليَّة هذا المزج بين جميع عناصر هذه المواضيع وإلباسها اللّباس المشار إليه، والتي تحمل معاني الإنذار من العواقب. فهذا كلّه يشهد على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الرّابعة المعجزة، والتي يعجز الكاتب والأديب عن مقارعتها والإتيان بمثلها. خصوصاً تلك النّقلة النّوعيَّة من بابٍ إلى باب، والمحافظة في الوقت نفسه على النّبرة الموسيقيَّة للآيات من سورة الأحقاف، وأداء ذلك كلّه من خلال ثلاثة آياتٍ شكّلت هذه المجموعة الثّانية والتي لم يتجاوز عدد كلماتها أيضاً عشرين كلمة.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أتى الله تعالى بعد ذلك بواو العطف، وعطف على هاتين المجموعتين مجموعة ثالثة صورّ من خلالها الأجوبة التي

يجيب بها الذين كفروا عن هذه المنطلقات النّظريَّة لـهذا البحـث ، وقـد صـاغ الله تعالى ذلك كلّه بالأسـلوب نفسـه الـذي تعرّفنـا عليـه وقـال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وعلى هذه الصّورة أكون قد قدّمتُ لقارئي العزيز عـدّة أمثلـة تثبـت امتياز هذا القرآن المجيد بهذه الخصوصيَّة الرّابعة المعجـزة التـي أطلعتـُهُ عليـها ، ولعلّـي أكـون قـد أفلحـتُ في ذلـك . وأنتقـل منـها لبيـان وشـرح الخصوصيَّـة القرآنيَّة الخامسة المعجزة بمشيئة الله عزَّ وجلَّ .

الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة:

الآيات وتقسيماتها

ومن خصائص هذا القرآن العظيم المعجزة أنَّ سور هذا القرآن المجيد وردت مقسّمة إلى آياتٍ وعلى غير ما اعتاد العرب عليه من تقسيم لما يكتبونه. فتلاحظ يا عزيزي القارئ أنَّ تلك الآيات الكريمة تقتصر تارة على حرفٍ واحد من الأحرف المقطّعة، وتارة على أكثر من حرف من هذه الحروف المقطعة، وتارةً تقتصر الآية على كلمة أو على كلمتين فقط، أو على أكثر من كلمتين، وتارة تشتمل الآية على جملة واحدة، أو على عدّة جملات. وبتفاوت يلفت نظر كلّ مَنْ يتلو آيات هذا القرآن العظيم. وتدفع هذه الحقيقة النّاس إلى التّكهّنات والتّقوّلات. وليس هذا وحسب، بل وترد هذه الآيات الكريمة جميعها وعلى اختلاف أنواعها مصاغةً بصياغةٍ بلاغيَّةٍ، وموشّاةٍ بحُلل البديع والبيان، وبموسيقيَّة تشنّف الآذان، ولا يلاحظ القارئ في الظّاهر التزام سور هذا القرآن بقاعدةٍ محدّدةٍ.

وقبل أنْ أخوض أمامكَ يا عزيزي القارئ في موضوع هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة، فلنراجع معجم (محيط المحيط) لننظر ماذا تعني كلمة

(آية)، هذه الكلمة التي أوردها القرآن الكريم، فقد نقل مُؤلِّفه لنا قول أبي البقاء الذي قال: الآية تعني العلامة الظّاهرة. كما نقل لنا أنَّ صاحب معجم القاموس قال: (الآية على وزن فَعْلة أو فَعَلة أو فاعلة وموضع العين في هذا الوزن الياء، وجمع الآية آياتٌ وأيٌ وآياء). وأضاف وقال: إنَّ الآية تستعمل في المحسوسات والمعقولات. فتطلق الآية على كلّ ما تتفاوت به المعرفة بحسب التّفكّر والتّأمّل. كما تُطلق الآية على ما دلّ على حكمٍ من أحكام الله تعالى، سواء أكان ذلك آيةً أو سورةً أو جملةً من آية. كما تُطلق الآية على طائفةٍ من حروف المقطّعات القرآنيَّة عُلم معناها بالتّوقيف. كما أضافوا لكلمة الآية معنى العبرة والأمارة والعلامة.

فمن خلال هذا الأقوال ندرك بأنَّ كلمة آية تفيد أكثر من معنى. فإنْ نحن أمعنّا نظرنا فيما اشتمل عليه كتاب الله العزيز من آيات، نُدرك بأنَّ جميع ما ذكره اللُّغويون ينطبق عليها جميعها سواء أكانت أحرف مقطعات أو كانت مُؤلَّفة من كلمتين أو من عدّة جملات. فجميع هذه الآيات علامات ظاهرة دالّة على الذات الإلهيَّة التي صاغتها. وإنَّ كلّ آية منها تضمّنت علوماً وحقائق من قبيل المحسومات والمعقولات، وإنْ كانت تتفاوت في قيمتها العلميَّة.

وقبل أنْ أتناول حقيقة هذه الخصوصيَّة بالشّرح والبيان، فلا بأس أنْ أنقل للقارئ العزيز ما نُقل من أقوالٍ وردت عن أطرافٍ مشهورةٍ، وهي من قبيل التّكهّنات، وتتعلّق بظاهرة هذه الآيات القرآنيَّة. فاعلم يا عزيزي القارئ أنَّ هناك من مشاهير الأدباء مَنْ قال: (القرآن ليس بالشّعر ولا بالنّثر، إنَّه نثرٌ

وشعرٌ معاً: إنَّه قرآنٌ) وقد نقل هذا الأديب المشهور بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ فهذه الكلمات التي أوردتُها آنفاً هي في نظري من قبيل كهانة هذا الإنسان التي تكهّن بها، وقد وردت بدافعٍ من جهله بحقيقة الآية القرآنيَّة، وبدافع جهله بحقيقة خصوصيّتها المعجزة، ولا أرى من الضّروريّ ذكر اسم هذا الأديب احتراما له.

ومن لم يسمع بالأديب (الجاحظ) وهو الأديب القديم والمشهور أيضاً فقد تكهّن هو أيضاً في هذا المجال وقال: (سمّى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كلامهم على الجمل والتّفصيل: سمّى جملته قرآناً كما سمّوا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية) ـ الإتقان (1: 51) ـ أقول: إنَّ الجاحظ حين تكهّن بهذا القول السّالف الذّكر أوردتُهُ للقارئ الكريم على سبيل المقارنة بينه وبين ما سبق من أقوال وليس استناداً إلى مرجعيَّةٍ معينةٍ قصدتها ولا للإمعان.

وهناك من خارج إطار المجتمع الإسلامي؛ فقد راح الأب حدّاد يُدلي بدلوه أيضاً، فتكهّن وقال: (وفاتَهم أنَّ هذه الأسماء الجديدة التي تصف القرآن جملةً وتفصيلاً، منقولةً عن العبريَّة بطريق السّريانيَّة، ولكنّها أوصافٌ تميّز القرآن عن سائر كلام العرب). لكنَّ الأب حداد حين تكهّن بهذه الهرطقة لم يقدّم دليلاً يثبت مصداقيّتها.

أمَّا المستشرقون فقد تكهّنوا من منطلقٍ يختلف عن جميع المنطلقات التي انطلق منها الذين ذكرناهم، فقد انطلق المستشرقون من أنَّ القرآن الكريم وتقسيماته هو من ابتداع محمّد بن عبد الله الذي أنزل عليه هذا

القرآن، لذلك حاول هذا أنْ يصيغ آياته في مكة مسجّعةً، وعسر عليه أداء ذلك في المدينة بعد أنْ أصبح حاكماً. وستحيط علماً يا عزيزي القارئ بسخافة ما قدّمه المستشرقون من رأي هذا بعد أنْ تتابع ما سأبيّنه بخصوص هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة.

والمهمّ من ذلك كلّه هو أنَّ الأدباء تعارفوا على أنْ يضعوا نقطة بعد آخر كلّ جملة مستقلّة أو جملتين معطوفتين. لكنَّ هذا التّقليد لم ينتهجه كتاب الله العزيز، وقد أدهشهم هذا القرآن المجيد حين لاحظوا ورود حرف مقطّعٍ أو أكثر، ويسمّى آية فيه أيضاً. كما أدهشهم ورود كلمة أو كلمتين أو أكثر وسمّيت آية أيضاً. وورود عدَّة جملات مجموعة، وسمّيت بمجموعها آيةً واحدةً وحسب. وقد خالفت هذه الظّاهرة القرآنيَّة التي انتهجها القرآن الكريم مع ما تعارف عليه الكُتَّاب والأدباء. وسبب هذا الاندهاش هو أنَّهم جهلوا حقيقة هذه الخصوصيَّة الخامسة القرآنيَّة المعجزة، لذلك فقد لاحظت يا عزيزي القارئ كيف راح كلّ طرف يتكهّن، وعلى حسب حدسه وإداركه، ولم يجمعوا على شيء.

أقول: لقد عمد الله العزيز إلى اتّخاذ هذا النّهج في موضوع التّنقيط ومن خلال تقسيم سور كتابه العزيز إلى (آيات)، أقول لقد اتَّخذ هذا النّهج ليُشكِّل عن طريقه لكتابه العزيز خصوصيَّة امتاز بها من سائر ما تعارف عليه الأدباء والشّعراء العرب، لكونه تعالى قد تحدّى بالقرآن الجنّ والإنس. فالله تعالى لم يستند في موضوع إطلاق كلمة (الآية) إلى عدد جملاتها، ولا إلى عدد ألفاظها، ولا إلى عدد أحرفها، ولا إلى سجعها أو بديعها. ولكنَّه جلّ

شأنه قد انطلق في موضوع خصوصيته المعجزة هذه من منطلق وحدة الموضوع الذي تدلّ عليه هذه التي سمّاها (الآية)، ومنطلقاً من استقلاليتها عن غيرها موضوعيّاً، ومن ارتباطها موضوعياً بسباقها وسياقها. وهي الحقيقة التي لم ينتبه إليها أصحاب تلك التّكهّنات التي نقلناها للقارئ من قبل. ثمَّ إنَّ الذي غطّى هذه الحقيقة وحجبها عن أعين هؤلاء المتكهّنين هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ راح يورد كلّ آيةٍ مصاغةً صياغةً بلاغيَّةً معجزةً ومحلاّةً بلباسٍ من أرفع ألوان البديع والبيان. وقد أتى فعل الله العزيز ذاك بسبب أنَّه جلّ شأنه كان يتحدّى بهذه الخصوصيَّة المعجزة العرب جميعهم وفي جميع هذه الفنون اللُّغويَّة وغيرها، وبذلك عاد من الصّعب على الإنسان أنْ يتوصّل إلى ما ذكرناه إلاّ إذا تدبّر هذه الآيات القرآنيَّة بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. هذا الأمر الذي كان بعيداً عن متناول جميع المفسّرين القدماء وعن جميع هؤلاء المتكهّنين.

وأضف إلى ذلك يا عزيزي القارئ أنَّ مضمون الآية الواحدة كان يتبع في لون صياغته البلاغيَّة البديعيَّة أو البيانيَّة عددا من الموجبات: فالحكم الشّرعي سواء أكان دستوريّ الصّفة أو كان قانونيّها، فلا يُصاغ سجعاً. وإنَّ بيان الحقائق الكونيَّة التي لا يكشف عنها إلاّ التّقدّم العلميّ لا يصحّ أنْ تُصاغ صياغةً مقفّاة. ثمَّ إنَّ موضوع السّورة نفسه يتحكّم في بعض الأحايين في كيان الآية وفي موسيقيّتها، وقس على ذلك ما تعترض ذلك من موجباتٍ خاصَّة. فلهذه الأسباب وتلك الموجبات جميعها قد لوحظ أنَّ في تقسيم هذا القرآن العظيم إلى آياتٍ كان شيئاً لم يعهده العرب. فلا استطاع أحد من

العرب الجزم بأنَّ آيات هذا القرآن الكريم هي من قبيل الشّعر الذي اشتُهروا به، ولا الجزم بأنَّ آيات هذا القرآن الكريم هي من قبيل الكلام الموزون غير المقفّى الذي يعمد إليه بعض الكُتَّاب والأدباء، ولا أنَّه مزيج من هذا وذاك، بل الذي أجمع عليه العرب أنفسهم هو أنَّ آيات هذا القرآن الكريم قد صيغت بصياغةٍ أفصح ممَّا اعتادوه وتعارفوا عليه.

لذلك أقول: إنَّ تقسيم السّورة الواحدة إلى آياتٍ إنَّما هي خصوصيَّة قرآنيَّة معجزة وفريدةٌ في نوعها في تاريخ هذه الأمَّة العربيَّة، بل وفي العالم بأسره. وسأحاول يا عزيزي القارئ أنْ أثبت من خلال ما سأقدّمه من أمثلةٍ حيَّةٍ على مصداقيَّة ما سأطرحه من حقيقة امتياز القرآن الكريم بهذه الخصوصيَّة المعجزة الفريدة، وأنَّ هذا البيان يصدق إطلاقه على كلمة (الآية)، وبمعنى العلامة الظّاهرة التي اصطلحها الله جلّ شأنه لتقسيمات سور كتابه العزيز. وأية علامة ظاهرة؟ تلك العلامة الظّاهرة الدّالّة على عظمة هذا الإله العليم الذي جاء بهذه الخصوصيَّة القرآنيَّة المعجزة، وقسّم هذا التّقسيم إلى آيات وبهذا النّهج وبهذه الاستقلاليَّة التي تمتّعت بها كلّ آية قرآنيَّةٍ سواء أكانت حرفاً مقطّعاً، وسواء أكانت كلمة واحدة أو كلمتين أو كانت أكثر من جملةٍ واحدة. فالآية في حقيقتها علامة ظاهرةٌ تؤكّد وجود الله تعالى الذي أنزلها مصاغةً صياغة بلاغيَّة وعلى الشّكل الذي ذكرناه ومستقلة الكيان ومرتبطةً بسباقها وسياقها بروابط التّسلسل الموضوعيّ. بل ولا تعتبر الآية علامة ظاهرةً على ما ذكرناه وحسب، بل إنَّ كلّ (آية) تشكّل في حدّ ذاتها عبرةً للمعتبرين وعظة للمتّعظين. وبناءً عليه؛ كان من واجب

المؤمن أنْ يحيط علماً أوَّلاً بجوانب هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة وعلى ضوء ما بيّناه، وأنْ يتتبّع الأمثلة التي سأقدّمها له لإثبات مصداقيّتها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. وساعياً لأضرب للقارئ العزيز أمثلةً تثبت استقلاليَّة كلّ آية من آيات هذا الكتاب المقدّس العزيز بادئ ذي بدء. وليثبت من خلالها مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة، وأبدأ في كلّ تلك الأمثلة من البسيط لأنتهي منها عند الأمثلة المركّبة من هذه الآيات القرآنيَّة الكريمة.

مثال أوَّل يثبت وجود الخصوصيَّة الخامسة:

فأبسط مثالٍ أبدأ بتقديمه لقارئي العزيز هو هذه التي سمّيت (الآية الأولى) من سورة البقرة والمركّبة من أحرفٍ ثلاثةٍ مقطّعةٍ هي ﴿الٓمٓ﴾. وعليه؛ كان من الواجب أنْ تتساءل بادئ ذي بدء عن معالم استقلاليَّة مضمون هذه الأحرف الثّلاثة، وكيف بالإمكان اعتبارها علامةً ظاهرةً؟

فإنْ استطعتُ أنا الإجابة عن هذين السّؤالين بإجابات محدّدة ومعقولةٍ ونابعةٍ من معطيات هذه الأحرف الثّلاثة التي وُضعت بعدها فاصلة تفصلها عمّا بعدها، والتي نبّهت من حيثُ دلالتها إلى أنَّ هذه الأحرف الثّلاثة تعتبر (آية) ومستقلّة في حدّ ذاتها. فإنْ أنا استطعتُ الإجابة والتّدليل على مصداقيَّة ذلك يثبت بالتّالي مصداقيَّة وجود هذه الخصوصيَّة الخامسة القرآنيَّة المعجزة. لذلك ابدأ بإعطاء القارئ العزيز فكرةً مفصّلة عن مضمون هذه الأحرف الثّلاثة ﴿الٓمٓ﴾ المعتبرة في هذا المقام (آية).

أقول : لا أريد أنْ أتوسّع في شرح دلالة هـذه الأحـرف الثّلاثـة ﴿ الٓمٓ ﴾ في هذا المقام بسبب أنّي كتبتُ كتاباً عنوانه (فـنّ الاختـزال في القـرآن الكريـم) وقد تبسّطتُ فيه شرحاً وبياناً لجميع أحرف المقطّعات ، وأسقطتُ تلك المعاني على مواضيع السّور التي وردت فيها وبشكل موضوعـيّ ، وأثبـتّ في المُؤلَّـف المذكور أنَّ هذه الأحرف تعود إلى فنّ الاختزال الذي تداوله الشّعراء العـرب في جاهليّتهم . وأمَّا هنـا ، فأختصر وأقـول إنَّـه آخـذ بمـا ورد عـن ابـن عبّـاس رضي الله عنه ما نقله عن رسول الله صلّـى الله عليـه وسـلّم في أنَّـه ﷺ أجـاب عمّـن سـأله عـن معنـى ﴿ الٓمٓ ﴾ أنَّ معناهـا : أنـا الله أعلــم . وقــد أورد هــذا الحديث الشّريف أكثر الذيـن فسّـروا القـرآن الشّـريف سـواء أكـانوا مـن أهـل السُّنَّة وسواء أكانوا من أهل التّشيّع .

وما دمتُ قد اعتمدتُ دلالة ما ورد في الحديث الشّـريف المذكـور وهـو (أنـا الله العليـم) فأنـا كبـاحث أتسـاءل : هـل وردت الأحـرف ﴿ الٓمٓ ﴾ بــهذا المعنى من باب تفاخر الله عزَّ وجلَّ بواسع علمه وهـو يدخـل مضمـون سـورة البقرة؟ وما محلّ هـذا المعنـى مـن سـباقه سـياقه؟ ومـا هـو المضمـون الحقيقـي المقصود من قوله تعالى هنا في مستهلّ سورة البقرة : { أنا الله العليم } ؟

وللإجابـة عـن هـذه التّسـاؤلات وجـب علينـا أنْ نراجـع دعـاء سـورة الفاتحة الـذي علّمنـا ربنـا عـزَّ وجـلَّ أنْ ندعـو مـن خلالـها ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آمين . فدعاء سورة الفاتحة لا يعنـي أنَّنـا غير مؤمنين ونرجـو من ربّنا أنْ يهدينا إلى دينه الحنيف . لأنَّنـا آمنّا وقمنـا بتأديـة الصّلاة الإسلاميَّة ،

ورحنا ندعو فيها بدعاء الفاتحة ونحن مؤمنون. وإنَّ دعاء سورة الفاتحة لم يعلّمنا الله عزَّ وجلَّ أنْ ندعو ربّنا بواسطة ما تضمّنتها آياتها ليدلّنا على طريقٍ أرضيٍّ يوصلنا إلى مكان محدّد وفي بقعةٍ محددةٍ من الكرة الأرضيَّة. بل إنَّ دعاء سورة الفاتحة يدفعنا إلى تحصيل هذه النّعمة الإلهيَّة التي حصل عليها من قبلنا من النّبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين. وهو المعنى الذي دلّ عليه دعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهذه الحقيقة باتت واضحةً للمؤمنين المتدبّرين. فالنّعمة التي ندعو لتلقّيها لها صراطٌ موصلٌ إليها. ومن باب أنَّ عقلنا هو بحاجةٍ إلى عاملٍ مساعدٍ يساعده لإدراك ما يواجهه على صعيد السّلوك اليوميّ وبما يتعلّق بالمستقبل خاصَّة. وهي الحقيقة التي شرحتُهَا بالتّفصيل في مُؤلَّفي (أحجية العقل) فليرجع القارئ الكريم إليه. ـ 120 ـ

فإنْ نحن أدركنا دلالة هذا الدّعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهذا المعنى الذي شكّل سباق الأحرف الثّلاثة ﴿الٓمٓ﴾ يساعدنا على فهم حقيقة دلالة معناها وهو (أنا الله العليم). فالذي أفهمه هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد راح يجيبنا عن هذا الطّلب الذي طلبناه منه سبحانه وتعالى، ودعوناه بخضوع من أجل أنْ يمنّ به علينا. وقد افتتح الله عزَّ وجلَّ إجابته التّفصيليَّة بهذه الأحرف الثّلاثة، وبهذا المعنى سالف الذّكر وليشعرنا بواسع علمه، أنَّه يجيب بأسلوب علميّ أيضاً، وهي سمة كلّ مَن يكتب ويكون عالماً. ولننظر الآن كيف يجيبُنا ربّنا على طلبنا الذي ندعوه من أجل تحصيله في سورة الفاتحة ليل نهار.

فاعلم يا عزيزي القارئ أنَّنا كنّا قد آمنّا بهذه الذّات المقدّسة التي اتّصفت بالصّفات التي اشتملت عليها (أسماء الله الحسنى). فمن جملة تلك الأسماء الصّفات كون الله (عليماً). وهذه الصّفة وردت بصيغة الاستغراق، لتدلّ على أنَّ الله تعالى يعلم السّرَّ وأخفى من جهةٍ، وأنَّه لا يخفى عليه شيء في السّماء ولا في الأرض من جهة أخرى. وعليه؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين استهلّ إجابته بقوله (أنا الله العليم) يكون قد نبّهنا مقدّماً إلى هذه الحقيقة التي دلّت عليها كلمة (العليم) من جهة، ويكون قد أنذرنا من جهة أخرى أنْ نستقبل إجابته جلّ شأنه بيقين لا يتزعزع يعمر أفئدتنا بأنَّ إجابة ربّنا عزَّ وجلَّ ستكون إجابةً علميَّةً خالصة من شوائب وكدورة الأفكار الظّنّيَّة. وأنَّ النّتائج المترتّبة على ما تضمّنته هذه الإجابة من تعاليم هي نتائج يقينيَّة حتماً. وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال ﴿ الٓمٓ ﴾ ومختزلاً إيّاها من قوله (أنا الله العليم) قد خاطب هذا المؤمن الذي يدعوه، وقال له إنَّ الإيمان هو في حقيقته يُشَكِّل (قناعة عقليَّة) قد تقبّلها فؤادك. لكنَّ هذا الإيمان لا يكفيك لتستمع إلى جوابي عن طلبك الذي طلبته مني من خلال دعاء الفاتحة، بل ينبغي أنْ تستمتع إلى إجابتي، وأنت موقن بكمال علمي لتستفيد من التّعليم الذي سأعلمك إيّاه، ولتعمل عليه، ولتفوز بهذه النّعمة التي فاز بها مَن قبلك من المؤمنين من النّبيّن والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وعليه؛ لابُدَّ أنْ تكون يا عزيزي القارئ قد أدركتَ بأنَّ الله جلّ شأنه لا يتفاخر هنا بكونه عليماً، ولا يخبرنا بذلك حين قال ﴿ الٓمٓ ﴾ بمعنى أنا الله العليم. بل إنَّنا بعد تدبّرنا هذا المضمون بمنهجيَّة القرآن وأصول تفسيره، أي

بعد مراعاة تسلسله الموضوعيّ قد توصّلنا إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ يشترط على المؤمن أنْ ينطلق فيما سيستمع إليه من تعاليم الآيات ما بعد هذه الآية التي اشتملت على هذه الأحرف الثّلاثة ﴿الٓمٓ﴾ وبمعنى أنا الله العليم أو أعلم أنْ ينطلق فيما سيعمل عليه ليس من منطلق إيمانه بالله تعالى مجرّداً عن أسمائه الحسنى، ولكنْ؛ يبدأ العمل من منطلق يقينه الكامل بوجود ذات الله المقدّسة المتّصفة بهذه الأسماء الحسنى ومنها كون الله عليماً. وكأنَّ هذه الأحرف ﴿الٓمٓ﴾ قد نبّأنا مضمونها بصورةٍ غير مباشرة إلى أنَّ هذه الحياة الدّنيويَّة تستند إلى فلسفة الابتلاء والامتحان في موضوع العمل.

وأنَّ المؤمن الذي لا ينطلق من هذا اليقين فيما يقدم عليه من عمل يوميّ لا يصْمد عند ابتلاء الله تعالى إيّاه. فطريق معرفة الله تعالى والاتصال به والفوز بنعمته التي أنعمها على عباده الصّالحين ممّن سبقوه، هو طريق شائكٌ ومحفوفٌ بمخاطر مواجهة مختلف أنواع الابتلاءات. وليس هو بالطّريق الممهّد المحفوف بالرّياحين، فهذه الحقيقة الكونيَّة تضمّنتها هذه الأحرف المقطّعة الثّلاثة ﴿الٓمٓ﴾. وهي تشكّل على هذا النّحو موضوعاً مستقلاً بذاته، ولذلك؛ فإنّ هذه الأحرف ﴿الٓمٓ﴾ تشكّل علامة ظاهرة على وجود الإله الذي صاغها مستقلّةً كآيةٍ من آيات كتابه العزيز وكعلامة على كون الله تعالى هو (عليم) حقّاً.

ألا إنَّ هذه الحقيقة التي تضمّنتها أوَّل آية من آيات مَتنِ هذا القرآن العظيم هي التي دعت إمام زماننا ليركّز في مواعظه في كتابه (التّعليم) على موضوع اليقين ويقول فيه: (ألا إنَّ الخطيئة واليقين لا يلتقيان أبداً. أ فيمكن

لكم أنْ تشاهدوا في أحد الجحور حيَّةً رقطاء ومع ذلك تُدخلون أصابعكم فيه؟ وهل يقف عاقل بجانب بُركانٍ يتفجّر بالحمم الحمراء؟ وهل يدنو من فيه ذرّةٌ من عقلٍ من مكانٍ موبوءٍ بالطّاعون، ويموت ساكنوه أمام عينيه؟ فكما أنَّ الإقدام على هذا كلّه يُعدُّ من باب المستحيلات على هذا الإنسان العاقل، كذلك كان حال الذي يُقدم على معصية ربّه عزَّ وجلَّ، وليعدّ من الخاطئين الآثمين. لذلك؛ فيا أيّها المؤمنون الذين نوديتم إلى طريق البرّ والاستقامة اعلموا أنَّ يدَ جاذبيَّة ربّكم لا تمتدّ إليكم بنعمته إلاّ حين تمتلئ قلوبكم باليقين وتتطهّرون من الإثم والعدوان. ألا إنَّه باطلٌ كلّ دين محرومٌ أهله من بضاعة اليقين.. ألا إنَّ الله تعالى ما يزال قادراً على إدارة الحياة الدّنيا. كذلك تكون الذّات الرّوحيَّة التي تنجُم عن سلوكٍ يقينيٍّ، فإنَّ هذه الذّات الرّوحيَّة تجذبه نحو ربّه عزَّ وجلَّ، وتُسكِره بنشوةِ محبّة ربه ومحبوبه العُلوي.. إنَّكم بايعتُم بيعة التّوبة عن ارتكاب كلّ إثم، فلا تكونوا كالأفاعي التي تخلع عنها ثوبها، وتظلّ هي أفاعي..) فبهذه الألفاظ وبما تضمّنته من نبرةٍ هدّارةٍ ومؤثّرة حاول إمام زماننا لفت نظر كلّ مؤمن إلى موضوع اليقين وإلى أهميته على الصّعيد العمليّ للفوز أخيراً بالنّعمة التي علّمنا دعاء الفاتحة أنْ نطلبها صباح مساء.

ثمَّ إنَّه ما دامت هذه الأحرف الثّلاثة المقطّعة، والتي هي ﴿الٓمٓ﴾ قد تضمّنت هذه الحقيقة الكونيَّة العظيمة التي أتينا على ذكرها، واشترطت على المؤمن بالله العظيم شرط (اليقين) الذي نبّه إليه إمام زماننا بصراحةٍ تامّة، ومؤكّداً على أهميّته على طريق العرفان الإلهي. فإنَّ هذا كله يُعطي هذه

الأحرف الثّلاثة ﴿الٓمٓ﴾ وفي هذا الموقع ما بين دعاء الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وما بين جوابه الذي تضمّنه قول الله تعالى في الآية الثّانية من سورة البقرة التي تلت هذه الأحرف والتي هي ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ ذلك كلّه يعطي مضمون ﴿الٓمٓ﴾ استقلاليَّةً ظاهرة المعالم، ويجعلها في حقيقة أمرها علامةً ظاهرةً ومستقلّة موضوعيّاً، وتحمل كلّ الدّلالة على وجود الله العزيز الذي صاغها على هذا النّحو، وأطلق عليها اسم (آية) أيضاً. ولا حاجة بنا بعد جميع ما اطّلعنا عليه أنْ نصغي بآذاننا إلى تكهّنات مَنْ ذكرناهم في أوّل هذا الحديث من المتكهّنين.

وعلى هذه الصّورة؛ أكون قد قدّمتُ للقارئ أوّل مثال تثبت من خلاله مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة التي نشرحها ونتكلّم عنها، وأثبتُّ ذلك من خلال معطيات هذه الأحرف الثّلاثة ﴿الٓمٓ﴾ التي استهلّت بها سورة البقرة والمرتبطة موضوعياً مع سباقها وسياقها أيضاً.

مثال ثاني يثبت وجود الخصوصيّة الخامسة:

وما دمتُ قد قلتُ سابقاً بأنّني سأقدّم أمثلةً ابتداءً من أبسطها وانتهاءً بأكثرها تعقيداً، أي من البسيط إلى المركّب. فأقدّم للقارئ مثالاً ثانياً (آيةً) مؤلَّفة من كلمة واحدة فقط. وهذا المثال أستقيه من سورة (الفجر) التي استهلّها الله عزَّ وجلَّ بقوله وهو يُقسم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾. ونتساءل يا عزيزي القارئ: أنْ كيف جعل الله تعالى هذه الكلمة (والفجر) آيةً مستقلّةً بذاتها؟ ولِمَ لم يضمّها إلى الآية التي بعدها والمؤلَّفة من كلمتين هما (وليالٍ عشرٍ)؟ خصوصاً وأنَّ تصرّف الله تعالى المذكور هذا قد خالف به ما تعارف عليه

الأدباء من جهة وتسبَّب بدفع البعض ليتّقوّلوا وينشروا من وراء ذلك مختلف التّكهّنات الدّالّة على جهلهم بمضمون هذا القَسَم هنا في هذه السّورة بالفجر.

فإنْ شئنا الكشف عن حقيقة هذا التّقسيم المذكور، فما علينا إلاّ أنْ نتدبّر هذه الآية الكريمة بمنهجيَّة القرآن وأصول تفسيره. وليس بالاعتماد على ما ساقه لنا المفسّر المعروف (ابن كثير) وغيره من المفسّرين القدماء رحمهم الله من رواياتٍ كثيرة ومتناقضةٍ لا تثبت في وجه أيّ نقدٍ بنّاء. فابن كثيرٍ نقل عن عليٍّ وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والسّدي قولهم إنَّ المقصود من القسم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ الصّبح الذي يأتي بعد انقضاء الليل. كما نقل عن مسروق ومحمد بن كعب قولهما: المراد من هذا القسم صبح يوم النّحر. ونقل عن عكرمة قوله إنَّ القسم بالفجر قد قصد به صلاة صبح العيد الذي يأتي بعد العاشر من ذي الحجّة. كما نقل عن ابن عبّاس أنَّه قصد بالفجر النّهار كله.

فالنّاقد يا عزيزي القارئ لا يرى في هذه الرّوايات إلاّ مجرّد تكهّناتٍ شبيهة بالتّكهّنات التي قيلت في مواجهة الأحرف المقطّعة ﴿الٓمٓ﴾. هذا؛ وإنَّ عمليَّة التّدبّر المطلوبة تقتضي منّا الاطّلاع على سباق هذه الآية وسياقها ودلالاته بادئ ذي بدء، وكما فعلنا عند تحقيقنا عن معنى الأحرف ﴿الٓمٓ﴾. ومن ثمَّ نراجع تاريخ نزول سورة الفجر، وما أحاط بها من ملابسات. وعلى ضوء هذا كلّه نبحث لكلمة (الفجر) عن معناها اللُّغويّ الحقيقي الذي

تبادر لأصحاب هذه الرّوايات سالفة الذّكر. وننظر هل أنَّ الله عزَّ وجلَّ استعمل هذه الكلمة بمعناها الحقيقي أم استعملها استعارة بمعناها المجازي؟

ومن المهمّ أنْ نتساءل أوّلاً: ما الدّاعي للقَسَم بهذه الكلمة (الفجر) في مستهلّ سورة الفجر؟ فالمعروف هو أنَّ الله تعالى إذا أقسم يكون قَسَمه إمَّا بالأشياء التي أبدع خلقها، وإمَّا يُقسم بأسلوب تقديم شهادةٍ ممَّا يتنبّأ به ويقسم عليه. والأمثلة على هذا كثيرة وواردة في كتاب الله عزَّ وجلَّ. وعلى كلّ حال، فإنَّ الله تعالى حين يقسم فإنَّه يقدّم شهادة فيما أقسم عليه تعالى في جميع تلك الأحوال، وتكون شهادة دالّة على عظيم إبداعه وعلى واسع علمه الغيبيّ. لذلك؛ كان من واجبنا معرفة أيّ نوعٍ من أنواع القَسَم الإلهي هذا الوارد في أوّل (آية) من آيات سورة الفجر؟

هذا؛ علماً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في سباق هذا القَسَم بالفجر، أي قال في الآيات الأواخر من سورة الغاشية ﴿فَذَكِّرْ قف إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾. وكأنَّ الخطاب في هذه الآيات الكريمة كان موجّهاً إلى رسول الله ﷺ نفسه. خاطبه فيه في السّنوات الأربعة الأولى من الدّور المكّي الذي دام ثلاث عشرة سنة، وإنَّ إشارة الوقف الموضوعة آخر قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ﴾ استدعت من رسول الله ﷺ أنْ يعي مهمّته التي كلّفه الله تعالى بها، ألا وهي القيام بتذكير قومه بما كلّفه ربّه عزَّ وجلَّ القيام به وتبليغه إيّاهم من أمور وتعاليم وأحكام، وكأنَّه جلّ شأنه ومن خلال إشارة الوقف هذه قد نبّه رسوله الكريم إلى أنَّ الدّور المكّيّ هذا الذي كان يمرّ

به هو دور تبليغ ودور تحمّل للمشقّات والابتلاءات، وليس هو بدور الوصول إلى تأسيس حكومةٍ مسلمةٍ. وأنَّ كلّ إنسانٍ يصله هذا التّذكير عن طريق هذا الرّسول الأمين، فيتولّى ويكفر بما وصل إلى مسامعه منه، فيعذّبه الله العذاب الأكبر في الحياة الدّنيا ويحاسب على ما فعله في دنياه بعد أنْ يموت، ويصير إلى ربّه عزَّ وجلَّ. فبهذه المعاني أنَّهى الله تعالى سورة الغاشية، ومن ثمَّ أتى تعالى بسورة الفجر، فاستهلّها بهذا القَسَم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ وعليه؛ فماذا يكون المراد من هذا القَسَم، وهل استعمل الله تعالى هنا كلمة الفجر بمعناه الحقيقي أم أنَّه تعالى قد أوردها بمعناها المجازيّ وعلى سبيل الاستعارة؟ فهذا هو السّؤال الذي انتهينا إليه بعد مراجعة سباق هذا القَسَم العظيم بكلمة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾.

وعليه؛ فلننظر أوَّلاً يا عزيزي القارئ: هل أورد الله جلّ شأنه كلمة (الفجر) في مستهلّ هذه السّورة بمعناها الحقيقي أم بمعناها المجازي، وفي هذا القسم الإلهيّ؟ ولنصل إلى الحقيقة نعود بادئ ذي بدء إلى مراجعة معاجم اللُّغة قبل الإجابة عن السّؤال المذكور. ففي (محيط المحيط) قال: كلمة (الفجر) موضوعةٌ في الأصلّ لشقّ الشّيء شقاً واسعاً. وباقي المعاني متفرّعةٌ عنها. فتقول أفجر الرّجل، والمعنى أنَّه دخل في وقت الفجر، وعلى شاكلة قولك أصبح الرّجل. فإذا قلتَ انفجر عنه الليل، فتعني أنَّ الليل انكشف عنه. فكلمة (الفجر) مصدر يُطلق على ضوء الصّباح، أي على حُمرة الشّمس التي تلوح في سواد الليل. فيأتي آخر الليل وكالشّفق الذي يأتي أوَّل الليل. ويُطلق (الفجر الصّادق) على الفجر السّاطع الذي يملأ الأفق

ببياضه. فإذا طلع الفجر الصّادق فقد طلع النّهار. وعليه فإنَّ لكلمة الفجر المعرّفة بالألف واللام المعاني التّالية:

أوّلاً: تُطلق كلمة (الفجر) على اللّحظات التي تبدو حُمرة الشّمس لائحةً جهة مطلع الشّمس آخر اللّيل.

ثانياً: فإذا ما استطالت هذه الحمرة، واكتمل بياضها، وملأ الأفق، يُسمّى حينئذٍ (الفجر الصّادق).

ثالثاً: والأصل في وضع كلمة (الفجر) كان للتّعبير بها عن شقِّ الشّيء شقّاً واسعاً.

وبعد أنْ اطّلعنا يا عزيزي القارئ على المعاني الحقيقيَّة لكلمة الفجر نعود نتساءل: هل قُصد بكلمة القَسَم بالفجر هنا في سورة الفجر معانيها الحقيقيَّة أم معناها المجازي؟ وفي هذه الحالة نقول: لو كان قد قُصد بكلمة (الفجر) معناها الحقيقي لكانت قد وردت مخصّصةً بفجر يوم معيّن. لكنَّ هذا القَسَم وردَ عاماً غير مخصّصٍ لا بيوم النّحر، ولا بيوم عرفات، ولا بغيره من الأيام التي ذهبت إليها أذهانُ المفسّرين القدماء الذين أخذوا لكلمة الفجر معناها الحقيقيّ الذي تبادر منها لأذهانهم. وما دامت كلمة (الفجر) لم تُخصّص هنا بيومٍ بعينه فهذه أوّل قرينةٍ تدفعنا للبحث عن قرينةٍ أخرى تؤكّد لنا بأنَّ المقصود هنا المعنى المجازي لكلمة الفجر.

فإنْ نحن عُدنا إلى معاني الآيات الأخيرة التي أنهى الله تعالى بها سورة الغاشية، والتي شكّلت سِباق القَسَم بكلمة (الفجر) وهي قوله تعالى

فيها ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ . وأخذنا إشارة الوقف التي وُضعت بعد قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ والتي سبق لنا وقلنا إنّها تطلب من الرّسول الكريم أنْ يتمهّل ويفكّر فلا يتجاوز أداء مهمّة التّذكير في مكّة المكرّمة ، وأنّ عليه أنْ يتحمّل شدائد الحياة في مكّة وابتلاءاتها بانتظار دورٍ جديدٍ يأتي في المستقبل . أقول إنْ نحن أخذنا هذا المعنى بعين اعتبارنا والذي يُشكِّل سباق القسم بالفجر نكون قد حصلنا على قرينةٍ ثانيةٍ يميل بنا للأخذ بالمعنى المجازي للقَسَم بالفجر ، وليس بمعناها الحقيقي لغةً . فما هو المعنى المجازيّ المقصود ؟

نستشفّ المعنى المجازيّ المقصود من منطق تاريخ الدّعوات السّماويَّة السّابقة . فقد بات معروفاً بأنَّ المسيح النّاصريّ لم تُفلح دعوته طالما ظلّ في مسقط رأسه ، وفي منطقة مولده فلسطين . بل لذلك لاحظناه وقد اضطرّ للهجرة من هناك . وإنَّ من الثّابت تاريخياً أيضاً أنَّ موسى عليه السّلام اضطرّ إلى الهجرة من مصر وهي مسقط رأسه إلى مدين . كذلك فإنَّ لوطاً عليه السّلام قد أمره ربّه بمغادرة المدينة التي كان يدعو فيها أهلها أيضاً . وإنَّ إبراهيم عليه السّلام هاجر من مدينة (أور) جنوب العراق إلى جنوب فلسطين ، وهناك أفلح في دعوته . وإنَّ محمّداً ﷺ قد أمره ربّه أيضاً بالهجرة إلى المدينة المنوّرة بعد أنْ تآمر أهل مكّة المكرّمة على قتله . فهذه الأحداث جميعها تشكّل في نظري منطق تاريخ الدّعوات السّماويَّة . ويستنبط من منطق الدّعوات السّماويَّة المذكور أنّه كان مقدّراً لمحمّد رسول الله ﷺ أنْ

يهاجر من مكّة المكرّمة أيضاً، ولكنْ؛ إلى أين؟ فهذا لم يكن معروفاً في السّنوات الأولى من الدّور المكّيّ. وإنَّ المنطق التّاريخيّ المذكور بالإمكان أنْ نستشفّ منه المعنى المجازي المقصود للقسم بكلمة (الفجر) يقيناً. وهو أنَّ هذا القَسَم قد قُصد به تطمين الرّسول وأصحابه إلى أنَّ الدّور المكّيّ المليء بالاضطهاد لن يدوم، بل سيشرق فجر دورٍ جديدٍ على محمّد وأصحابه، ويكون لصالحهم ولصالح الدّعوة الإسلاميَّة أيضاً وعلى شاكلة ما كان يحدث لجميع رسل الله تعالى من قبل. فإنْ نحن راجعنا (دلائل الإعجاز) للجرجانيّ نُلاحظ قوله بأنَّ المعنى المجازي يكون دوماً أعظم دلالةً من المعنى الحقيقي للكلمة. الأمر الذي يستنبط منه بأنَّ الفجر الذي سيطلع على محمد وعلى أصحابه سيكون أعظم شأناً ممَّا كان لهم من مكانة في مكّة المكرّمة، وهم بين إخوانهم وعشيرتهم يتحمّلون فيها الاضطّهاد والإهانات. فالله تعالى يبشّرهم من خلال هذا القَسَم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ بأنَّه سيأتي عليهم دورٌ جديدٌ يتخلّصون فيه ممَّا يلاقونه من أهل بلدتهم مكّة من مشاقّ، وأنَّ فجر هذا الدّور الجديد الذي سيطلع عليهم سيكون شاهداً على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يدع عباده المؤمنين، بل يؤيّدهم، وينصرهم، ويعزّزهم، ويخذل أعداءهم في نهاية المطاف، لأنَّه تعالى وعد في محكم تنزيله وقال (والعاقبة للمتّقين). وأنَّ من واجب الرّسول وأصحابه أنْ يصمدوا على التّبشير والدّعوة إلى سبيل الله تعالى وتحمّل المشاق، وذلك في مكّة المكرّمة، وبانتظار فجر دورٍ جديد ينتظرون قدومه. وعليه؛ فاستناداً إلى هذه القرائن التي أمست بين أيدينا، واستناداً إلى هذا المعنى المجازي الذي حصلنا عليه،

والدّالّ عليه القَسَم بالفجر. يعود في هذه الكلمة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ الإشارة للتّعبير بها عن الدّور الذي ستبزغ شمسه من بعد انقضاء الدّور المكّيّ.

من هذا؛ تتجلّى لأعيننا يا عزيزي القارئ معالم استقلاليَّة الموضوع الذي حمله هذا القَسَم الإلهيّ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ومن خلال كلمة واحدة هي كلمة (الفجر) هذه الحقيقة التي عادت تشكّل علامةً ظاهرةً وواضحة على وجود الله علاّم الغيوب، والذي صاغ هذه الكلمة بهذه الصّياغة البلاغيَّة المعجزة في أوائل سنّي ظهور الدّعوة الإسلاميَّة في مكّة المكرّمة يوم بدأت تُظلم الدّنيا في عينيّ رسول الله ﷺ وأعين أصحابه الذين كانوا من السّابقين المؤمنين، بسبب ردود فعل قومهم ضدّهم، ولجوئهم إلى وسائل العنف والإهانة، ومختلف أنواع الاضطهاد في مواجهة ما أعلنوه من مبدأ وحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ عقيدة الوحدانيَّة التي خالفت عقيدة عبادة الأصنام الموروثة عن الآباء والأجداد.

فالقَسَم بكلمةٍ واحدةٍ هي ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ واعتبار هذا القَسَم الإلهيّ آيةً واحدةً مستقلّةً موضوعياً، ومن دون تخصيصها بيومٍ معيّن، وهي تحمل هذا المعنى المجازي الذي توصّلنا إليه بأسلوب تدبّر القَسَم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. فإنْ بدت هذه الحقيقة التي توصّلنا إليها مغايرةً لما تعارف عليه الكُتّاب والأدباء في ظاهرها، والتي أوقعت المفسّرين القدماء رحمهم الله في آراءٍ متناقضة نقلتها لنا التّفاسير القديمة، فإنَّ القَسَم المذكور وبالمعنى الذي توصّلنا إليه يُشَكِّل هذه الاستقلاليَّة الموضوعيَّة في ذاته، ويُعتبر في الوقت نفسه عظةً وعبرةً لكلّ مَنْ تكهّن بالتّكهّنات التي سبق

لنا أنْ نقلناها من قبل، وهو ضرورة الاطّلاع قبل التّكهّن برأيٍ من الآراء على منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، وليساعد ذلك على عدم الوقوع في تلك التّخرّصات. وبذلك نكون قد أثبتنا في الوقت نفسه مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة من خصوصيات هذا الكتاب العزيز.

ونحن إذ بحثنا في كلّ ما توصّلنا إليه بما يتعلّق بدلالة القسم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ وفي سباقه الموضوعيّ لذلك، ننتقل الآن لنبحث في السّياق الموضوعيّ لهذا القسم، ولننظر هل يؤكّد هذا السّياق حقيقة ما توصلنا إليه؟ ويكفي أنْ نقول بأنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يُعقل إلاّ وأنْ يكونوا قد أدركوا هذا المعنى الآنف الذّكر، واستبشروا بأنَّ بزوغ فجر عهدٍ جديدٍ بات قريباً وعلى الأبواب. لذلك؛ فقد راحوا يتساءلون عن المُدَّة التي سيظلّون يتحمّلون فيها الشّدائد والامتحانات قبل أنْ يبزغ فجر هذا العهد الجديد الذي ينتظرونه. علماً بأنَّ الجهة والمكان المرجوّين بقيتا خافيتين أيضاً عن أذهانهم. وهيّا نتدبّر آيات سياق هذا القَسَم بالفجر، ونتفحّص دلالاتها، وننظر مدى موافقتها للمعنى الآنف الذّكر.

أقول: لاحظ يا عزيزي القارئ كيف أورد الله تعالى بعد قَسَمه بالفجر ليقول ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ فهو جلّ شأنه أورد هذه الآية الثّانية، وهي بدورها مُصاغةٌ ألفاظها بصياغة بلاغيَّة، ومقرونة بالقسم أيضاً، وغير مخصصةٍ بليالٍ بعينها، وعلى شاكلة ما فعله في صياغة الآية الأولى من سورة الفجر. وليُشَكِّل هذا القَسَم الجديد غير المخصّص قرينةً جديدةً أيضاً تنبّه أذهاننا

لنُعرض عن المعنى الحقيقيّ للقَسَم بكلمة ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ . وعليه ؛ كان من واجبنا البحث عن المعنى المجازي لكلمة (ليلة) الواردة فيها .

ففي (محيط المحيط) : الليل يمتدُّ من مغرب الشّمس إلى طلوع الفجر الصّادق أو إلى طلوع الشّمس . فيذكّر ويؤنّث ليقال ليلة وليل . وتُستعمل كلمة (ليل) مقابل كلمة (نهار) واللّيلة مقابل كلمة يوم على حدّ قول المرزوقي .

وما دامت كلمتا ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ لم تردا مخصَّصتين . وكان القَسَم بالفجر قد قُصد به بزوغ دورٍ جديدٍ على المسلمين من بعد الدّور المكّي . فهذه قرائن تدفع للأخذ لكلمة (ليلة) هنا بمعناها المجازي ، وليس بمعناها الحقيقيّ . وقد أفهمنا الجرجانيّ رحمه الله تعالى في (دلائل الإعجاز) أنَّ المعنى المجازيّ يكون أعظم دلالةً من المعنى الحقيقيّ ، وعلى حسب ما سيق لي أنْ ذكرت . فإنْ نحن نظرنا إلى السّنوات الثّلاث التي سبقت إنزال سورة الفجر ، والتي شكّلت ثلاث ليالٍ مظلمة في تاريخ الدّعوة الإسلاميَّة ظلّ الرّسول وأصحابه خلالها يُلاقون الإهانات من أهل مكّة المكرّمة والاضطهاد . فلزم لنا من ذلك أنْ نفهم من هذا القَسَم ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُنبئ من خلالها عن مرور عشر سنواتٍ قادمةٍ يكون الابتلاء فيها أشدّ وقعاً على رسول الله ﷺ وأصحابه . وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد بشّر الرّسول وأصحابه ببزوغ فجر عهدٍ جديدٍ عليهم بعد مرور هذه الليالي العشر المشار إليها في القسم المذكور . هذا ؛ وإنَّ هذا المعنى الذي ذكرناه يقوّي المعنى الذي فهمناه من القَسَم بكلمة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ يقيناً . وهذا المعنى يحسمُ التّناقضات التي وقع فيها أصحاب

الآراء القديمة التي فسّروا بها القَسَم بليالٍ عشرٍ بمختلف التّأويلات، والذين أخذوا بالمعنى المتبادر من هاتين الكلمتين لأذهانهم رحمهم الله تعالى.

فهذا المعنى الذي تضمّنه القَسَم بليالٍ عشرٍ كان من المحتمل جداً أنْ يكون رسول الله ﷺ وأصحابه قد أدركوا دلالته التي توصّلنا إليها. يؤكّد ذلك أنَّ رسول الله ﷺ قد أشار على الذين ما وجدوا في أنفسهم القدرة على الانتظار، وعلى تحمّل شدائد هذه السّنوات العشر، قد أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة كما هو معلومٌ تاريخياً. وأنَّ من الصّحابة مَنْ كان يشير على رسول الله نفسه ﷺ بالهجرة أيضاً. لكنّه كان يُجيب بأنَّ ربّه لم يأذن له بذلك.

فهذا ما نقلته لنا كُتُب السّيرة وغيرها من أخبار بهذا الشّأن. الأمر الذي يقوّي المعنى المجازي الذي توصّلنا إليه، والدّالّ على استمرار الابتلاءات في مكّة عشر سنواتٍ بعد إنزال سورة الفجر. ولقد كان المسلمون يتناصحون فيما بينهم، ليستمرّوا في تحمّل تلك المشاقّ، ويصبروا على اضطهاد المكّيين إيّاهم، وذلك بسبب استبشارهم ببزوغ فجر عهدٍ جديدٍ يطلع عليهم بعد مضيّ هذه السّنوات العشر التي سُمّيت مجازاً (بليالٍ عشر).

ويواجهنا هنا سؤالٌ معترضٌ، وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ حين أقسم بالفجر، أقسم بكلمة الفجر معرّفةً بالألف واللام العهديَّة. لكنَّه جلّ شأنه حين أقسم باللّيالي العشر، أقسم بها بصيغة النّكرة غير المعرفة بالألف واللام، إنَّما أتى بها منوّنةً على آخرها. فما هي حكمة ذلك؟

وللإجابة عن هذا السّؤال المعترض نعود يا عزيزي القارئ إلى ما سبق أنْ بينّاه في مواضع كثيرة من مُؤلّفاتي، وهو أنَّ النّحويّين نبّهوا أذهاننا إلى أنَّ الأديب أو الكاتب إذا شاء أنْ يُنبّه إلى عظمة شيء يأتي على ذكره يُنكّره من جهة، وينوّن آخره من جهة أخرى. وما دام الله عزَّ وجلَّ قد نكّر اللّيالي العشر التي أقسم بها هنا، ونوّن آخرها، فهذا قد حدث لتنبيه أذهان الرّسول وأصحابه إلى أنَّ هذه السّنوات العشر القادمة ستكون أشدّ وقعاً عليهم من سابقاتها. أي أنَّ قريشاً ستعمد إلى أساليب اضطّهاد أقسى ممَّا اتَّخذته في السّنوات الثّلاثة الأولى التي انقضت على ظهور الدّعوة الإسلاميَّة في مكّة المكرّمة. وأنَّ تاريخ الدّعوة الإسلاميَّة في مكّة المكرّمة يشهد على مصداقيَّة هذا المعنى الآنف الذّكر، إذ يثبت من كُتُب التّاريخ والسّير أنَّ زعماء قريش بدؤوا بعد إنزال سورة الفجر بتنظيم صفوفهم لاضطّهاد المسلمين بأسلوبٍ مُنظَّم ومخطّط له. الأمر الذي يشهد على عظيم علم الله الغيبيّ وعلى عظيم صياغته البلاغيَّة المعجزة. وتشهد صفحات التّاريخ أيضاً على أنَّ المشركين عمدوا في السّنتين الأخيرتين من هذه اللّيالي العشر إلى مقاطعة المسلمين اقتصادياً، وعلى شاكلة ما نسمع حدوثه في أيامنا هذه ضدّ الدّول المسلمة من قبل زعماء أمم المسيح الدّجّال. هذه المقاطعة الاقتصاديَّة التي تتناقض مع جميع الأعراف والمواثيق والقوانين المتداولة عالمياً، كما تتنافى مع المبادئ الإنسانيَّة التي يتباهى بها هؤلاء الذين يفرضونها، والتي أثبتت عدم جدواها آخر المطاف، كما أثبتت عدم جدواها في صدر الإسلام حين فرضوها على المسلمين من جانب المشركين.

لكنَّ السّؤال المعترض الهامّ هنا الذي نتساءله: هو هل كان رسول الله ﷺ وأصحابه يدرون ماذا سيحدث بعد مضي هذه السّنوات العشر الليلاء التي بشّرهم ربّهم بانقضائها بعد طلوع الفجر الذي وعدهم ربّهم بطلوعه؟ ولقد أجاب الله عزَّ وجلَّ عن هذا السّؤال المعترض الجديد وبكلمتين فقط، وشكّلت هاتان الكلمتان أيضاً آيةً مستقلّةً ثالثة؛ حيثُ قال: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾. فما هي دلالة هذه الآية الكريمة الثّالثة التي أنبأت عمّا سيحدث بعد مضي السّنوات العشر الحالكة السّواد والمليئة بالشّدائد والابتلاءات؟

فاعلم يا عزيزي القارئ أنَّ الفخر الرّازي رحمه الله كتب يفسّر هذه الآية الثّالثة في تفسيره ويقول: (اضطّرب المفسّرون في تفسير الشّفع والوتر، وأكثروا فيه، ونحن نرى ما هو الأقرب: أحدها أنَّ الشّفع يوم النّحر، والوتر يوم عرفة. وإنَّما أقسم الله بهما لِشَرَفِهما. أمَّا يوم عرفة، فهو الذي عليه يدور الحجّ كما في الحديث: الحجّ عرفة. وأمَّا يوم النّحر فيقع فيه القُربان وأكثر أمور الحجّ، من الطّواف المفروض والحَلق والرّمي. ويروى يوم النّحر هو يوم الحجّ الأكبر. فلمّا اختصّ هذان اليومان بهذه الفضائل لا جَرم أقسم الله بهما...).

فمن خلال ما نقلناه عن الرّازي رحمه الله من رأي، يتبيّن لنا جليّاً أنَّه وغيره من المفسّرين القدماء رحمهم الله قد أخذوا من سورة الفجر لكلمات آياتها ما تبادر منها لأذهانهم من معاني حقيقيَّة للألفاظ الواردة فيها. وبعيداً عن معانيا المجازيَّة، ولم ينتهوا إلى القرائن التي انتبهنا إليها، والتي تنقلنا منها إلى الأخذ بالمعاني المجازيَّة للكلمات.

وبعد هذا البيان كلّه نتوجه يا عزيزي القارئ إلى معاجم اللُّغويين لنُحيط علماً بادئ ذي بدءٍ بدلالات كلمتي (شفع ووتر). فقد ورد في معجم (محيط المحيط) قال: كلمة (الشّفع) مصدر، ويعني الزّوج من العدد؛ حيثُ تسأل: أشفعٌ هذا أم وتر؟ وتقصد بسؤالك: أزوجٌ هو أم فرد؟ واشتقّ فعل الشّفع من شَفَع العددَ بمعنى صيّره زوجاً. فتقول: شفعت ناقتي، والمعنى أنَّها حملت، وفي باطنها الآن ولد، وأمَّا كلمة وتر فتدلّ على الواحد.

ولا ينبغي لنا أنْ نذهب بعيداً في تفسيرها. فلنعُدْ إلى ما حدث بعد مضي اللّيالي العشر التي أمضاها المسلمون في مكّة. فالذي حدث هو أنَّ محمداً ﷺ أمره ربّه بالهجرة من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة. فلم يهاجر وحده، بل رافقه وترٌ هو صاحبه أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه. وقد أصبح رسول الله ﷺ من خلال مرافقته لصاحبه له شفعاً. فهذا ما فسّر به التّاريخ هذا القَسَم ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ من حيثُ ما جرى من وقائع حقّقت مضمون هذه الآية الكريمة التي أقسم الله تعالى فيها وأنبأ وقال ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ علماً بأنَّ ما حدث لا يجوز تأويله بحال من الأحوال. لكنَّ المفسّرين القدماء رحمهم الله تعالى لم يفهموا دلالة القَسَم بالفجر وليالٍ عشر حتَّى يمكّنهم ذلك من فهم الشّفع والوتر فالواقع التّاريخيّ فسّر بصورةٍ عمليَّةٍ ما حدث يوم الهجرة إلى المدينة المنوّرة وما حدث في غار ثورٍ خاصَّة من معجزةٍ شهدت عل المضمون الذي أقسم به الله جلّ شأنه من خلال قسمه بالشّفع والوتر.

وهل يختلف مؤرّخٌ فيما أسفرت عنه هجرة محمد ﷺ وصاحبه إلى المدينة المنوّرة من نتائج فتحت للإسلام والمسلمين باب عهدٍ جديدٍ مشرقٍ لهم على مصراعيه؟ ويكفي أنْ اعتبر الخليفة الثّاني عمر بن الخطاب ﷺ التّاريخ القمريّ يبتدئ من يوم الهجرة، واعترافاً منه بعظمة ما أسفرت عنه تلك الهجرة، والتي أنبأت عنها الآيات الأولى من سورة الفجر، وعلى حسب ما بيّناه. ولا ينبغي أنْ يشكّ أحدٌ فيما تضمّنه هذا التّفسير الذي قدّمناه من حقائق وبيّنات. خصوصاً وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد صدّق هذا المضمون من خلال معطيات الآية الرّابعة حين قال وبصيغة القسم أيضاً: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وبمعناها المجازي أيضاً. إذ بات من المعلوم أنَّ الدّور المكّي الذي دام ثلاثة عشر عاماً، قد شكّل الدّور المظلم في حيات الدّعوة الإسلاميَّة الذي تخلّلته الشّدائد والابتلاءات، ومثّل ضعف المسلمين في مواجهة المشركين. على حين أنَّه حدث بالهجرة من مكّة إلى المدينة أنّه قد غاب وجه الدّور المكّيّ المظلم، وأشرق على المسلمين فيها فجر دورٍ جديدٍ وعلى الإسلام، وتأسَّست أوَّل حكومةٍ إسلاميَّة في تاريخه، وأمكن إظهار التّعاليم الإسلاميَّة بأسلوبٍ علميٍّ تطبيقيّ، جذب العرب من مختلف بقاع شبه الجزيرة العربيَّة إليه، ولتقبّل الإسلام ديناً. فليلُ السّنوات التي أمضاها محمد ﷺ وأصحابه في مكّة المكرّمة انقشع وانبلج في المدينة المنوّرة، فجر سنواتٍ ازدهر فيها الإسلام، وارتفعت فيها رايته على مختلف الأصقاع. هكذا؛ ومن خلال تدبّرنا لهذه الآيات الأربعة من سورة الفجر بمنهجيَّة القرآن وأصول تفسيره عادت هذه الآيات قد صوّرت ما حدث في تلك الأيام تصويراً بلاغياً غيبيّاً

رائعاً وصف بدقَّةٍ متناهيةٍ الأحداث التي جرت في تلك السّنوات. والمهمّ من ذلك كله أنَّنا نكون قد أثبتنا بأنَّ هذه الآية ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ والمُؤلَّفة من كلمةٍ واحدةٍ قد استحقّت أنْ تسمّى (آية) لاستقلاليَّة مضمونها من جهة، ولكونها كانت قد شكّلت علامة ظاهرة بمفهومها اللُّغويّ من جهة أخرى، وأكون بذلك قد أثبتت مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة التي تكلّمتُ عنها آنفاً.

مثال ثالث يثبت وجود الخصوصيّة الخامسة:

لذلك أنتقل بعد الفراغ من هذين المثالين الذين قدّمتهما لقارئي العزيز: مثال أحرف ﴿الٓمٓ﴾ ومثال القَسَم بالفجر، لذلك أنتقل لتقديم مثالٍ ثالثٍ لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة من خلال آية مُؤلَّفةٍ من كلمتين، وشكّلتا آيةً مستقلّةً، وأدهشت أدباء العرب وكُتَّابهم الذين اعتادوا تقسيم ما يكتبونه إلى جملة واحدةٍ أو جملتين معطوفتين وبشكلٍ عام.

وهذا المثال الثّالث ورد هو أيضاً يا عزيزي القارئ بصيغة القَسَم، وقد ورد على هيئة آيةٍ مستقلّة أيضاً، وبصياغة أدبيَّة عالميَّة الصّبغة؛ وبحيثُ لم يفهمها المفسرون المسلمون القدماء رحمهم الله أنفسهم، ولذلك فقد راحوا يتكهّنون لها معاني بعيدة كلّ البعد عن مضمونها الحقيقيّ. وإنَّ هذه الآية التي ارتأيتُ أنْ أقدّمها كمثال على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الخامسة المعجزة هي الآية الأولى من سورة (التّين) التي أقسم الله تعالى فيها بكلمتين فقط وقال﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما هي دلالتهما؟

وأنقل أوّلاً للقارئ العزيز ما أورده الفخر الرّازي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة قال (اعلم أنَّ الإشكال هو أنَّ التّين والزّيتون ليسا من الأمور الشّريفة، فكيف يليق أنْ يُقسم الله تعالى بهما؟ فلأجل هذا السّؤال حصل فيه قولان: أنَّ المراد من التّين والزّيتون هذان الشّيئان المشهوران. قال ابن عبّاس: هو تينكم وزيتونكم هذا، ثمَّ ذكروا من خواص التّين والزّيتون أشياء: أمَّا التّين...) وحبّر الرّازي بعد ذلك صفحتين في هذا المجال. ومن ثمَّ عاد ليُطلعنا على القول الثّاني فنقل وقال (أنّه ليس المراد هاتين الثّمرتين، ثمَّ ذكروا وجوهاً، أحدهما قال ابن عبّاس هما جبلان من الأرض المقدّسة يُقال لهما بالسّريانيَّة طور تينا وطور زيتا، لأنّهما منبتا التّين والزّيتون. فكأنّه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء، فالجبل المختصّ بالتّين لعيسى عليه السّلام. والزّيتون الشّأم مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل. والطّور مبعث موسى عليه السّلام. والبلد الأمين مبعث محمد ﷺ فيكون المراد من القَسَم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم. وثانيها أنَّ المراد من التّين والزّيتون مسجدان. ثمَّ قال ابن يزيد: التّين مسجد دمشق والزّيتون مسجد بيت المقدس. وقال آخرون التّين مسجد أهل الكهف، والزّيتون مسجد إيليّا. وعن ابن عبّاس التّين مسجد نوح المبنيّ على الجودي. والزّيتون مسجد بيت المقدس. والقائلون بهذا القول إنّما ذهبوا إليه لأنَّ القَسَم بالمسجد أحسن؛ لأنَّه موضع العبادة والطّاعة. فلّما كانت هذه المساجد في هذه المواضع التي يكثر فيها التّين والزّيتون بلدان. فقال كعب التّين دمشق والزّيتون بيت المقدس..) ومن ثمَّ نقل الرّازي بعد ذلك آراء آخرين أيضاً.

فهذه الأقوال والرّوايات التي نقلتها لك يا عزيزي القارئ عن التّفسير الكبير للعلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله توضّح لك بأنَّ المفسّرين القدماء رحمهم الله قد فسّروا القَسَم بالتّين والزّيتون لهاتين الكلمتين، وخرجوا من قسم الله تعالى هنا ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ بمعاني سطحيَّةٍ لا ترتبط بسباق الآية ولا بسياقها ولا بتسلسلها الموضوعيّ، وهذا هو السّبب في أنَّ العلاّمة الرّازي نظر إلى هذا القَسَم على أنَّه إشكال واجه المفسّرين، ولذلك تساءل: فكيف يُقسم الله جلّ شأنه بأمور ليست شريفة على حدّ قوله. وبذلك فتح لغير المسلمين باب التّهجّم على كتاب الله العزيز.

وقبل أنْ أوضّح للقارئ حقيقة القَسَم هنا بالتّين والزّيتون أرى أنَّ أدلّهُ باديً ذي بدء على المعاني الحقيقة لهاتين الكلمتين. فقد أورد معجم (محيط المحيط) أنَّ التّين شجرٌ منه البستانيّ الذي يُزرع في البساتين، ويُروى بالماء، ومنه التّين البريّ، ومن أجود أنواعه التّين الأبيض، فالأحمر، فالأسود، مفرده تينة وتجمع على تينات. وأمَّا الزّيتون، فهو شجرٌ جليل القدر، عظيم النّفع، طويل البقاء في الأرض، حتَّى إنَّه يتجاوز عمر الشّجرة الواحدة منه ألف سنة. ولشجر الزّيتون ثمرٌ يُقال لدُهنه زيت الزّيتون ولثمره زيتون. وبعد أنْ أطلعتك يا عزيزي القارئ على المعاني الحقيقيَّة لكلمتي (تين وزيتون) نعود الآن لنتساءل: هل أنَّ الله تعالى أوردَ قسَمه تعالى بكلمتي (التّين والزّيتون) بمعانيها الحقيقيَّة أم أنَّه أوردها بمعانيها المجازيَّة؟ فنحن نطرح هذا السّؤال هنا دفعاً لهذا الإشكال الذي أشكل على المفسّرين القدماء، فالملاحظ هو أنَّ هاتين الكلمتين وردتا معرّفتين بالألف واللام. فهل أقسم

الله تعالى بأنَّ تعريف هاتين الكلمتين قد أشار إلى ما نعرفه من هاتين الثّمرتين المعروفتين؟ أم هل أنَّ هذا التّعريف ورد بمعنى الاستغراق ليشمل جنس شجر التّين والزّيتون؟ أم أنَّه جلّ شأنه قد قَصدَ بقَسَمه هذا المعنى المجازي المستعار من كلمتي (التّين والزّيتون)؟

واعلم يا عزيزي القارئ بأنّي لن أحاول التّكهّن بدلالات هاتين الكلمتين للإجابة عن السّؤال سالف الذّكر بل، سأتدبّرهما وفق منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. علماً بأنَّ من تلك الأصول ضرورة التّقيّد بالمعاني التي يفرضها تسلسل الآيات الموضوعيّ. إذ لا يُعقل أنْ يُقسم الله تعالى بهاتين الثّمرتين من دون أنْ يكون قد قصد بهما معنى يتلاءم مع سباق الكلام وسياقه وتسلسله الموضوعيّ.

فهذه المنهجيّة تدفع بنا للاطّلاع على ما أنّهى الله تعالى به سورة الانشراح التي وردت قبل سورة التّين بترتيب تلاوتها، والتي تضمّنت ثلاثة آيات قسّمها الله جلّ شأنه إلى قسمين، وفصل بين هذين القسمين بفاء الاستئناف، وقال في القسم الثّاني منهما: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ثمَّ أتى الله تعالى بفاء الاستئناف ثانيةً ضمن هذا القَسَم الثّاني وقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾. فما هي دلالات هذه الآيات الأربعة الأخيرة التي شكّلت سِباق سورة التّين؟

فالملاحظ هو أنَّ الله تعالى فصل هذه الآيات الأربع الأخيرة من سورة الانشراح إلى قسمين، وفصل ما بينهما بفاء الاستئناف كما ذكرتُ. ففي الآيتين الأولى والثّانية قال ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

فالذي يبدو في الظّاهر هو وجود تكرار للآية الأولى. ونحن نعلم بأنَّ القرآن الكريم يسمو عن أنْ يوجد فيه تكرار. ثمَّ لو كان هناك تكرار فقد كان من المنطقيّ جداً ألاّ يحذف الله تعالى فاء الاستئناف من أوّل الآية الثّانية، فهذا ما كان يقتضيه التّكرار.

وأعود بك يا عزيزي القارئ هنا أيضاً إلى ما فهمه العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله تعالى من هاتين الآتين. فهو أورد هاتين الآيتين الكريمتين وقال (وكأنَّه تعالى قال: لا يُحزنك يا محمد ما يقول النّاس بحقّكَ، وما أنت فيه من القلّة فإنَّه يحصل في الدّنيا يسرٌ كامل. وعن ابن عبّاس يقول الله تعالى خلقت عُسراً واحداً بين يسرين، فلن يغلب عسرٌ يُسرين. وروى مقاتل عن النّبي ﷺ أنَّه قال: لن يغلب عُسرٌ يُسرين، وقرأ هذه الآية. وعن الفرّاء والزّجّاج قالا: العُسر مذكورٌ بالألف واللام، وليس هناك معهودٌ سابقٌ فينصرف إلى الحقيقة. فيكون المراد بالعُسر في اللّفظين شيئاً واحداً. وأمَّا اليُسر، فإنَّه مذكورٌ على سبيل التّنكير، فكأنَّ أحدهما غير الآخر). ومن ثمَّ بيّن الرّازي رحمه الله وجهاً آخر في تفسيره لهذه الآية قال فيه (أنْ تكون الجملة الثّانية تكراراً للأولى، كما كرَّر تعالى قوله ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويكون الغرض تقرير معناها في النّفوس وتمكينها من القلوب... والمراد من اليسرين: يُسر الدّنيا، وهو ما تيسّر من استفتاح البلاد. ويُسر الآخرة وهو ثواب الجنة. لقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما الظّفر وحُسن الثّواب. فهذا هو المراد من قوله (لن يغلب عسرٌ يُسرين). وأمَّا بشأن تفسير قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾، فقد

أورد الرّازي رحمه الله عدّة روايات تفسّرها، وانتهى منها ليقول: (وبالجملة فالمعنى أنْ يواصل بين بعض العبادات وبعض وأنْ لا يخلّي وقتاً من أوقاته منها. فإذا فرغ من عبادةٍ أتبعها بأخرى).

وأمَّا بشأن تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، فقد فسّر رحمه الله هذه الآية الكريمة وقال (أنْ اجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلاّ فضله متوكّلاً عليه. وقرئ (فرغّب)، أي رغّب النّاس إلى الطّلب ما عنده).

فهذا ما فسّر به الرّازي هذه الآيات الأواخر من سورة الانشراح، والذي يبدو من خلاله أنَّه فسّرها بما تبادر منها لذهنه آخذاً لألفاظها معانيها الحقيقيَّة. ففي (محيط المحيط): العُسر معناه الفقر ونقيض اليُسر الذي يعني السّهولة والغنى، فأخذ الرّازي بهذا المعنى لقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وكما ورد في (محيط المحيط) أيضاً بما يتعلّق بفعل (فرغت) أنَّك إذا قلتَ فرغتُ من العمل، فمعناه أنّكَ انتهيتَ منه، وأصبحتَ فارغاً، وبما يتعلّق بفعل (فارغب) أنَّك إذا قلتَ نصب فلانٌ في الأمر، فمعناه جدّ واجتهد، وأنَّ فعل الأمر فارغب معناه أنْ ابتهل إلى الله تعالى، وتضرّع إليه، وعاد إليه، وبحسب هذه المعاني الحقيقيَّة لهذه الألفاظ فإنَّ الرّازي رحمه الله أخذ لألفاظ قوله تعالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ معانيها الحقيقيَّة وما تبادر منها لذهنه غير مراعٍ النّظم الكائن ما بين جميع هذه الآيات القرآنيَّة وسباقها وسياقها وتسلسلها الموضوعيّ.

أقول: إنَّنا انطلقنا في موضوع تقديم هذا المثال من كون سور جزء (عمّ) تشكّل في حقيقة أمرها خلاصةً موسّعةً لكتاب الله العزيز. وقد سبق

لي أنْ وضّحتُ مراراً وتكراراً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد لخّص في سورة الضّحى تاريخ الإسلام، مشيراً من خلال معطيات آياتها إلى بعثتين: فالبعثة الأولى هي البعثة المحمديَّة التي ابتدأها الله تعالى من مكّة المكرّمة. والبعثة الثّانية التي ستحدث عند تخلّف الأمَّة الإسلاميَّة وانحراف أهلها عن تعاليم الإسلام، وعن المقصد الذي جاء من أجل تحقيقه محمّد رسول الله ﷺ وهذا الدِّين الإسلاميّ الحنيف. فإنْ انطلق المفسّر من هذا المنطلق، فقد اعترف من حيثُ لا يشعر أنَّه سيمرّ زمنٌ عسر على حَمَلةِ هذا الدِّين الحنيف وزمن يُسر، وهذا العسر واليسر يواجهه المؤمنون في السّنوات الأولى لكلّ بعثة من هاتين البعثتين الإسلاميّتين. فإذا ما انقضى كلّ عُسرٍ منهما فسيتبعه يُسر أيضاً تبرز فيه شمس ضحى الإسلام. فإلى هاتين الحقيقتين أشارت الآيات من سورة الانشراح التي يأتي ترتيبُ تلاوتها بعد سورة الضّحى مباشرةً. وهكذا؛ ينتفي التّكرار من بين هاتين الآيتين الكريمتين، والذي نسبه العلاّمة الفخر الرّازي لهما بتأويل ممجوج إلى قوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ويصدق حينئذ رأي الزّجّاج من أنَّ اليُسر في الآية الأولى يختلف مضمونه عن اليسر الوارد في الآية الثّانية لورود لفظي اليسر نكرتين. وهو الرّأي الذي نقله لنا الرّازي نفسه في تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين.

وسبق أنْ قلتُ إنَّ دور اليسر يأتي بعد دور العسر. فالمسلمون مرّوا وهم في مكّة المكرّمة بدور عسرٍ معروف وحدثت الهجرة من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، وبدأ يمرّ على المسلمين دور يُسرٍ انتهى إلى ما انتهى إليه، وذلك بعد أنْ جاء نصر الله والفتح. وها أنَّ البعثة الثّانية للإسلام قد ابتدأ

دور العسر فيها منذ نشأتها. وإنَّنا نحن الذين أدركناها على أبواب نصر الله والفتح، وليبدأ من بعده دور اليسر الثّاني الموعود.

فإلى هذه المعاني العميقة الدّلالات أشار القسم الثّاني من آيات سورة الانشراح ومن خلال الآيتين الكريمتين ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾. وإنَّ المرء المؤمن أصبح واعياً أنَّ دوري العُسر يتطلّب منه تحمّل الشّدائد والابتلاءات، لكنَّه يتساءل بالبديهة، وبصورةٍ فطريَّة عمّا يتطلّب منه دور اليُسر إذا جاء وانعدمت وزالت تلك الشّدائد والابتلاءات. وقد أتى الله تعالى بفاء الاستئناف ليجيب عن تساؤله المشار إليه وقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾. ففعل الأمر (فانصب) يعني أنَّك إذا فرغت أيّها المسلم وتخلّصت من دور العسر، وواجهت دور اليُسر، فليس معنى ذلك أنْ تتكاسل وتقعد عن خدمة الدِّين وعن التّبشير به بل (فانصب)؛ أي اجتهد، وعلى شاكلة ما كنت تجتهده وتفعله في دور العسر، وداوم على التّبشير بالإسلام؛ لأنَّ خدمة الدِّين والتّبشير به لا ينبغي أنْ تتوقَّف بحالٍ من الأحوال.

وقد أضاف الله جلّ شأنه وهو يوضّح نوعيَّة التّبشير المطلوبة من المؤمن في دور اليُسر وقال ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ والمعنى أنَّ من واجبك في حالة اليسر أنْ ترغب أيضاً إلى ربّك لتجذب محبّته، وتكسب رضاه، وتصبح بالتّالي أسوةً عمليَّةً وشاهداً على وجود ربّك الإله الحيّ الذي تدعو النّاس إليه، ألا إنَّ هذه الآيات الأخيرة من سورة الانشراح هي كسابقاتها قد صيغت صياغةً بلاغيَّة معجزة وكثيرة المحذوفات البلاغيَّة، ولتصبح معانيها

أنْ يا محمد إنَّ دور العُسر الذي أنت تسعى فيه، وتتحمّل الشّدائد أنتَ وأصحابك، سينقضي وينبلج فجر دور يُسرٍ من بعده، فلا ينبغي لك التّلهّي بما تأتي به أيام اليسر وتنسون مهمة التّبشير بالدِّين والسّعي لنيل القرب من ربّكم الذي نصركم وأيّدكم. وستحدث بعثة ثانية لإكمال ما أُرسلت من أجل تحقيقه، ويمرّ حملة البعثة الثّانية بنفس المشاق في دور عُسرهم، ومن ثمَّ ينصرهم الله، ويفتح بينهم وبين قومهم، ويبدأ دور يُسرٍ ثانٍ، فلا ينبغي لحملة البعثة الثّانية نسيان مهمّة التّبشير بالدِّين والسّعي لنيل القرب من ربّهم الذي أيّدهم على كلّ مَنْ خالفهم.

وهكذا؛ ومن خلال تدبّرنا لهذه الآيات الأواخر من سورة الانشراح بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره ومراعاتنا لتسلسل الآيات الموضوعي، فقد توصّلنا إلى هذه الدّلالات التي فهمناها منها، والتي خالفت ما تبادر منها لأذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله، أي أنَّ الله تعالى استعمل ألفاظ هذه الآيات كاستعارات كنّى بها عمّا أوردناه من دلالاتٍ شكّلت سباق قَسَم الله تعالى بالتّين وبالزّيتون. وقد شكّلت هذه المعاني التي توصّلنا إليها قرينةً قويَّةً تؤكّد بأنَّ القَسَم المذكور لم يركّز على المعنى الحقيقي لثمرتي التّين والزّيتون بل ركّز على معانيها المجازيَّة، فما هو هذا المعنى المجازي المقصود من كلّ كلمة من تلك الكلمات؟

لقد كان المفسّرون القدماء معذورين حين لم ينتبهوا إلى هذا المعنى المجازيّ المقصود هنا من قَسَم الله تعالى بالتّين والزّيتون. أمَّا نحن؛ فما عدنا في زماننا هذا الذي ظهر فيه الإمام الموعود لتجديد الدِّين المتين معذورين أمام

ربّنا حين نُلاحظ أدباء عصرنا يستعملون كلمة (ورق التّين) كنايةً عمّا جرى في قصّة آدم وحواء التّوراتيَّة المعاصرة. ولا نكون معذورين حين نسمع ونرى أنَّ زعيم المقاومة الفلسطينيَّة وغيره من الزّعماء، يرفعون شعار (غصن الزّيتون) دلالة على مضمون السّلام الذي يطالبون به. والنّابع هو بدوره عن قصّة طوفان نوح ومجيء الحمامة وهي حاملة غصن الزّيتون دلالة على بلوغ شاطئ الأمان، هذه القصّة الواردة هي أيضاً في هذه التّوراة المعاصرة التي هي بين أيدينا. فهاتان الملاحظتان تعنيان بألفاظ أخرى بأنَّ كلمتي التّين والزّيتون قد دخلتا في عصرنا في نطاق الرّموز، وليكنّى بهما عن زمن آدم وزمن نوح عليهما السّلام.

وبما أنَّ هذا القرآن العظيم قد أنزله الله عزَّ وجلَّ ليعالج شؤون البشر في كلّ زمانٍ ومكان، فقد حقّ لنا أنْ نفهم بأنَّ هذا القَسَم بهاتين الثّمرتين قد وردا استعارةً، ليكنّي الله جلّ شأنه بهما عن أزمنة بعثتي آدم ونوح اللّتين لعبتا دوراً مهماً ومستقلاً في عمليَّة تطوير البشر الذي عاش زمن بعثتيهما عليهما السّلام. خصوصاً وأنَّ الله تعالى قد أقسم بها مُجتمعين، وفي آيةٍ واحدةٍ أيضاً. ولتشكّل دلالتهما علامةً ظاهرةً على بعثة هذين النّبيّين المشرّعين، وليتّعظ بها كلّ مَنْ أراد أنْ يكون من المتّعظين، فتسألني يا عزيزي القارئ أنْ كيف أدركنا هذه الحقيقة؟ أقول: أدركناها من خلال ما زوّدتنا به سورة هود من هذه الحقائق الغائبة عن صفحات التّاريخ المعاصر، وحتّى عن أذهان المسلمين المعاصرين أيضاً. فالذي يراجع تفسيري (في ظلال تفسير سورة هود)، تتجلّى له حقيقة ما ذكرتُهُ له آنفاً واضحةً كلّ الوضوح. إذ إنَّ

بعثة آدم عليه السّلام وضعت أرجل البشر على طريق التّهذيب والتّحضير بعدما أنّهت ذاك الدّور الذي قضاه البشر في العصور الحجريَّة. وهي حقيقة وضّحتها في: (نشوء الإنسان وتطوّره). وقد جاءت بعده بعثة نوح فأكملت ما أتت به بعثة آدم من تعاليم وأنجبت عدّة رسلٍ من بعده لإصلاح ما كان يحدث بعد نوح من انحرافات.

وهكذا؛ فإنَّ قَسَم الله تعالى بالتّين والزّيتون قد أشار الله تعالى به إلى تلك الحقبة المستقلّة من عمر البشر في منطقتنا، والتي شكّلت في حقيقتها علامةً ظاهرةً على وجود الله تعالى الذي كان وراء كلّ ما حدث في تلك الحُقبة الزّمنيَّة السّحيقة من عمر هذه المنطقة. فتلك البعثتان تعتبران موعظةً وذكرى للمتفكّرين. وبذلك يكون القَسَم بالتّين والزّيتون في هذا المقام بالذّات يستحقّ أنْ يُشَكِّل آيةً مستقلّةً من بين آيات هذا القرآن العظيم. وتبعاً للخصوصيَّة الخامسة المعجزة التي امتاز بها هذا القرآن العظيم. فإنْ شئنا التّأكُّد من صحّة ما فهمناه، وتوصّلنا إليه، فإنَّ من واجبنا تدبّر الآيات التي أوردها الله جلّ شأنه بعد آية القَسَم هذه، والتي تشكّل في حقيقة أمرها سياقها أيضاً. فنحن نلاحظ يا عزيزي القارئ بأنَّ الله جلّ شأنه من بعد أنْ أقسم بعد بالتّين والزّيتون نراه قد أقسَم بطور سنين وبهذا البلد الأمين الذي هو مكّة المكرّمة التي كانت مسقط رأس رسوله خاتم النّبيين ﷺ وقائلاً: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾. فطور سنين قد أشار إلى تلك الحقبة الزّمنيَّة من عمر هذه المنطقة التي بدأها الله جلّ شأنه ببعثة موسى عليه السّلام، وبمن تبعه من النّبيين من بعده والذين كانوا يبعثون تابعين له وعلى

شريعته، ومنهم المسيح النّاصريّ الذي بُعث مَعْلَماً على الانتهاء من تلك الحقبة التّاريخيَّة المشار إليها. وأمَّا البلد الأمين والذي هو مكّة المكرّمة، فهو البلد الذي اءتُمن على تراث بعثة آدم، وإنَّ جبل عرفات هو الشّاهد على وضع حجر الأساس على أيدي إبراهيم عليه السّلام الذي نقل إلينا الله عزَّ وجلَّ على يديه وبواسطته تراث آدم ونوح وموسى من النّبيّين المشرّعين من قبله إلى منطقة هذا البلد الأمين، ولتشكّل بعثة إبراهيم عليه السّلام مظلّة هذين الحَدَثين الكبيرين المستقلّين في عمر الإنسان في منطقتنا بالذّات، والتي كانت المورّد الأساس للإنسان ولمختلف اللُّغات التي نشأت عن اللُّغة العربيَّة الفصحى التي نزل بها هذا القرآن المجيد. وهكذا؛ فإنَّ سباق هذا القسم يفيد بأنَّنا فهمنا من القَسَم بالتّين والزّيتون ما لم يفهمه المفسّرون القدماء رحمهم الله وببركة اطّلاعنا على منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

ونعود لنتساءل من جديد: وما محلُّ تذكير الله تعالى إيّانا بجميع شرائع تلك العصور التّاريخيَّة من عُمُر البعثات النّبويَّة؟ فهذا سؤال هامّ يخطر ببال الباحثين. ولقد أجابنا الله جلّ شأنه عن سؤالنا المذكور حين قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ وإنَّ مفاهيم ومدلولات هذه الآيات الكريمة غير خافية عن أذهان المحقّقين؟ فالملاحظ هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ أتى في مُستهلّ هذه الآيات الكريمة بالحرف (لقد) وهو حرف دأب القرآن الكريم

على استعماله حين يبدأ الكلام عن موضوع مستقلٍّ. فاللام من (لقد) هي لام الابتداء. وحرف (قد) يفيد معنى الجزم والتّحقيق.

فما معنى أنْ يبتدئ الله جل شأنه بالحديث عن موضوعٍ مستقلٍّ في حدّ ذاته عن مواضيع تلك الأقسام التي أقسم بها في مستهلّ سورة التّين هذه؟ فإنْ نحن استعرضنا ما أفادت به سورتا الضّحى والانشراح من أمورٍ هامّة، تتلخّص في الإنباء عن بعثتين إسلاميتين، وعن عُسرين ويُسرين تابعين لهما، فالمنطق يقتضي أنْ يربط الله تعالى موضوعياً ما بين ظهور هاتين البعثتين وما بين ما سبقهما من بعثاتٍ سماويَّة، ليوجد القاسم المشترك الأعظم الذي يربط بينها جميعها برباطٍ موضوعيٍ، مؤكّدٍ بأنَّ كل ما جرى في الماضي ويجري في الحاضر وسيجري في المستقبل، إنَّما يُشكِّل جميعه حلقات تجلّيات الله الخالق ربّ العالمين الذي خلق هؤلاء البشر، وأشرف على تطويرهم، ولتحقيق المقصد من خلقهم. فمن خلال هذه الحقائق عُدتَ تدركُ يا عزيزي القارئ بأنَّ الله جلّ شأنه قد اختصر هنا في هذه الآيات الأخيرة ومن خلال قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أقول قد اختصر الله تعالى هذا الموضوع، فوضّح بأنّه تعالى خلق هذا الإنسان مفطوراً على فطرةٍ بشريَّةٍ واحدةٍ أهّلته لتلقّي تعاليم ربّه، ليتطوَّر بالعمل عليها، وليصبح إنساناً كاملاً. وكيلا يرتدّ إلى أقلّ شأناً من الكائنات الحيَّة الأخرى، تلك الحقيقة التي عبّر تعالى عنها بقوله ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾. ولذلك؛ لا حظنا أنَّ الله تعالى قد استثنى هنا الذين يلتزمون بالعمل على تعاليم الشّرائع السّماويَّة

وتطبيقها بصلاحيَّةٍ ظاهرة الأبعاد. وقد وعد الله جلّ شأنه هذه الفئة المؤمنة العاملة للصّالحات بأجرٍ روحيٍّ نابع من المقصد الأسمى لخلق هذا الإنسان. ولذلك نلاحظ بأنَّ الله تعالى أتى في الفقرة الأخيرة من هذه الآيات بفاء الاستئناف وقال ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وعلى هذه الصّورة يكون الله جلّ شأنه قد جزم بفشل جميع الحركات والفلسفات البعيدة موضوعياً عن روح هذه التّعاليم السّماويَّة فشلاً ذريعاً لا لُبس فيه. وهو أمرٌ أثبتت مصداقيّتهُ ما ظهرَ في تاريخ هذا البشر من حركاتٍ وفلسفاتٍ أقامت حضارات أبعدت الإنسان عن ربّه، وما تزال تُبعده عن ربّه، وقد انتهى مصيرها جميعها إلى الهلاك والدّمار، تاركةً أبشع النّتائج المأساويَّة في تاريخ هذا الإنسان.

وبعد أنْ فرغ الله جلّ شأنه من بيان هذه الحقيقة التّاريخيَّة العظيمة التي تقوّي معنويّات المؤمنين من حمَلَة هاتين البعثتين، وتشكّلان حلقاتٍ من سلسلةٍ طويلة ابتدأها الله عزَّ وجلَّ من زمن بعثة آدم عليه السّلام. فقد توجّه الله تعالى حينئذٍ إلى رسوله الصّادق الأمين يخاطبه ويقول له ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

فبهذه الألفاظ بشّر الله تعالى رسوله الكريم بدوام دينه وإلى أبد الآبدين. وأكّد للمؤمنين به أنَّ هناك بعثتين لابُدَّ منهما وعلى شاكلة ما حدث في البعثات المستقلّة من قبل ظهور الإسلام. فكما أنَّ الله تعالى كان قد بشّر رسوله الكريم والذين يؤمنون به في البعثتين كلتيهما أنّهم سيتلمّسون وجود ربّهم الحي القيّوم الذي لم يحرمهم من التّشرّف بكلامه المقدّس، ولا من التّعرّف عليه، لذلك؛ نلاحظ أيضاً بأنَّ الله تعالى ما إنْ انتهى من آيات سورة

التّين إلاّ وأتى بعدها بترتيب التّلاوة بسورة العلق التي استهلّها وهو يأمر رسوله الكريم والذين آمنوا معه أن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ . والمعنى أنْ يا رسولنا بلّغ النّاس عن وجود ربّهم الذي خلقهم، وهم مؤهّلين للقائه، والتّعرّف عليه، وبلّغهم أنَّ هذه الحقيقة لا تتحقّق إلاّ عن طريق رجالات هاتين البعثتين الإسلاميّتين.

ونخلص من ذلك كلّه يا عزيزي القارئ إلى أنَّ سباق وسياق قسم الله تعالى بالتّين والزّيتون يؤكّد صحّة المعاني التي حملها هذا القَسَم المذكور وحسبما بيّناه ووضّحناه آنفاً. وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ حين أقسم بالتّين والزّيتون فقد استعار هذين الرّمزين العالمين لتبشير وتحذير أتباع رسوله الكريم والذين آمنوا معه بأنّه سيأتي عليكم أيام عُسر ويسر في البعثة الإسلاميَّة الأولى، وتأتي كذلك عليكم أيام عُسر ويسر في البعثة الإسلاميَّة الثّانية، فاصبروا فيهما وصابروا؛ لأنَّ هذا العسر واليسر سيتكرّر حدوثهما على يدي مجدّدٍ يبعثه الله تعالى لإحياء شريعته والذي سيكون مثيل عيسى في هذه الأمَّة، والذي كان قد بعثه الله تعالى من قبل لإحياء شريعة موسى عليه السّلام. وإنَّ هذه المعاني العظيمة والكثيرة التي حملتها كلمتا ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قد استحقتا أنْ يجعل الله تعالى لهذا القَسَم بالتّين والزّيتون استقلاليته الموضوعيَّة، وليُشَكِّل ذلك آيةً واحدةً مستقلّة من آيات سورة (التّين) ما عهد العرب أمثالها، وقد أشكل فهمها أيضاً على المفسّرين القدماء رحمهم الله تعالى، أولئك الذين جهلوا منهجيَّة هذا القرآن الكريم وأصول تفسيره.

وعليه؛ فلا يجوز تفسير آيات هذا الكتاب العزيز بما يتبادر من ألفاظه من معانٍ حقيقيَّةٍ للأذهان لأوَّل وهلة، بل إنَّ من واجب المفسّر تدبّر الآيات من منطلق أنَّها صيغت صياغةً بلاغيَّة معجزة. وأنَّ هذا القرآن العظيم قد تفرّد بخصوصيّاتٍ معجزةٍ منها هذه الخصوصيَّة الخامسة المعجزة التي ضربنا هذا المثال من سورة التّين لإثبات مصداقيتّها.

فالقارئ الكريم لابُدَّ أنْ يتذكّر كيف أنِّي قدّمتُ له حتَّى الآن ولإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة التي أدهشت جميع الكُتَّاب والأدباء العرب مثالاً من ثلاثة أحرفٍ مقطعةٍ فرزت لتكون آيةً قرآنيَّةً وبدلالة (آية) وبمعنى العلامة الظّاهرة ذات الاستقلاليَّة في الموضوع والموعظةً والرّسالة أيضاً. حتَّى إنَّ مفسّري الأمَّة رحمهم الله تعالى وهم الذين آمنوا بهذا القرآن وقدسيّته لم يحيطوا علماً بما وضّحته من معاني إلى الآن، وذهبوا في ذلك مذاهب شتَّى، وأنَّهم أنهوا أقوالهم جميعهم بقولهم (والله أعلم بمراده).

مثال رابع يثبت وجود الخصوصيَّة الخامسة:

ولن أكتفي يا عزيزي القارئ بما قدّمتُهُ حتَّى الآن من أمثلة لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الخامسة المعجزة، بل سأتبع تلك الأمثلة بمثال جديد لإثبات وجود هذه الخصوصيَّة، وذلك من خلال الآيات المطوّلة الواردة في هذا الكتاب العزيز. فهي آيات اشتمل أكثرها على عدّة جملٍ، وليس على جملة، أو على جملتين، ومع ذلك فقد فرزها الله جلّ شأنه في هذا الكتاب المقدّس المعجز لتُسمّى بمجموعها آيةً مستقلّةً، وتحمل في الوقت

نفسه بمجموعها المعنى اللُّغويّ لكلمة آية، وتركت بصماتها هي أيضاً في هذا المضمار. وعادت لا يجوز تقسيمها هي ذاتها إلى آيتين أو أكثر وبفواصل تنقيطٍ غير التّنقيط القرآني، الذي تحمله. فلو قام أيّ إنسانٍ بتنقيط هذه الآية المطوّلة داخلياً لأخلّ بدلالة التّنقيط القرآنيّ ولتَرَكها لا تستحقّ اسم آيات بدلالاتها اللُّغويَّة، ولعُدّ ذلك من قبيل التّحريف في هذا الكتاب المبارك والعزيز المقدّس الذي أعجز الجنّ والإنس.

ألا إنَّ الآيات المطوّلة الواردة في هذا القرآن العظيم كثيرة العدد ومنتشرة في سورٍ كثيرة أيضاً. وقد ارتأيتُ أنْ أقتبس آيةً من سورةٍ متداولةٍ بين أيدي القرّاء، وليساعدهم ذلك على مراجعة تفسيرها المطوّل هناك. وهي تعود لفريضة الصّوم. خصوصاً وأنَّنا نكمل صومنا الذي هو آخر شهر صوم من عام الألفين الميلاديّ. وهي الآية التي قال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فليلاحظ القارئ الكريم كيف أنِّي فصلتُ بين جُمل هذه الآية الكريمة بإشاراتٍ، وليس بتنقيطٍ. والغاية من ذلك لأُحسّسَ القارئ بكثرة ما اشتملت عليه، هذه الآية الكريمة من جمل. وكان من الواجب عليّ بعد ذلك إثبات كون جميع هذه الجُمل من غير الجائز الفصل بينها بنقاطٍ، ولا تقسيمها إلى أكثر ممَّا هي عليه وإلاّ اختلّت تسميتها بكلمة آية. فهذه الجُمل وبما اشتملت عليه من مضامين ودلالاتٍ تشكّل بمجموعها (آية)

ويمعنى علامة ظاهرة ولا تشكّل كلّ مفردةٍ من مفرداتها (آيةً) لوحدها ويمعنى علامةً ظاهرةً وذات استقلاليَّةٍ وموعظة للمؤمنين، وإلى القارئ تفصيل ما أجملته له آنفاً.

أقول: أ فما لاحظ القارئ الكريم كيف أنِّي ومن خلال ما قدّمتُهُ له من أمثلةٍ سابقةٍ أنَّني كنتُ أنطلق من وجود تسلسلٍ موضوعيّ بين آيات هذا القرآن العظيم. لذلك كنتُ أراجع سباق كلّ آية كريمة قدّمتُهَا للقارئ كمثالٍ على مصداقيَّة موضوعنا؟ وعليه؛ فإنَّ هذه الآية المطوّلة لا ينبغي استثناؤها من هذه القاعدة والأصل التّفسيري.

أقول: إنْ نحن راجعنا الآية الأولى من فريضة الصّيام والتي شكّلت بمضمونها سباق مضمون هذه الآية التي نحن بصددها، والتي هي الآية الثّانية من آيات فريضة الصّوم الواردة في سورة البقرة. فنلاحظ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ كان قد صاغ الآية الأولى بصياغةٍ دستوريَّةٍ، وكما هو مشروح في مُؤلَّفي كتاب (الصّوم في الإسلام).

فمن المعلوم لدى رجال القانون هو أنَّ المشرّعين إذا ما فرغوا من صياغة دستور لبلدٍ معيّن، يدأبون بعد ذلك على وضع قواعد ومواد قانونيَّة نابعة من معطيات ذلك الدّستور. والحقيقة هي أنَّ الله تعالى وبعد أنْ أورد آية فريضة الصّوم مصاغة بصياغة دستوريَّة وهي قوله تعالى في الآية **183** من سورة البقرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فقد عمد الله جلّ شأنه إلى صياغة الآية الثّانية بصياغةٍ قانونيَّة، فضمّنها القواعد القانونيّة النّابعة من معطيات

هذه الآية الدّستوريَّة وعلى صورةٍ اشتملت على تلك القواعد وعلى صورة لا يجوز التّفريق بين مفرداتها لكونها تشكّل في حقيقة أمرها كُلاً مستقلاً موضوعيّاً. فما هي بنود تلك القواعد القانونيَّة؟

أقول: لقد تضمّنت هذه الآية الثّانية من آيات فريضة الصّوم وهي قوله تعالى ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أقول قد تضمّنت هذه الآية الثّانية ثلاثة قواعد قانونيَّة لا ينبغي للصّائم مخالفتها حين يؤدّي فريضة صوم شهر رمضان المبارك. وقد صيغت هذه القواعد الثّلاثة بصياغةٍ بلاغيَّةٍ، ولتشكّل بمجموعها آية، أي لتشكّل علامةً ظاهرةً على وجود الله الخبير الحكيم الذي صاغها بتلك الصّياغة المعجزة، ولتصبح موعظةً للمؤمنين الصّائمين. ولا يجوز بالتّالي تجزئتها والفصل بين فقراتها بأيّ تنقيط كان.

فهيّا لاحظ يا عزيزي القارئ كيف استهلّ الله تعالى هذه الآية الكريمة بكلمتين وقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ والملاحظ هو أنَّ الله تعالى قد حذف فعل الأمر (صوموا)، فلم يقل (صوموا أيّاماً معدودات) هذا من جهة، ولا هو تعالى قد ذكر لنا عدد تلك الأيام المعدودات من جهةٍ أخرى، بل ترك تحديد ذلك إلى حين يورد تفصيلات ذلك. ولا هو جلّ شأنه قد وضّح لنا اسم الشّهر الذي تضمّن هذه الأيام المعدودات.

فلمّا فرغ الله عزَّ وجلَّ من هذه الصّياغة البلاغيَّة لهذه الجملة الأولى. أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف، وليبيّن للمؤمن قاعدةً قانونيَّةً ثانيةً، وليوضّح

من خلالها المكلّف بصيام هذه الأيام المعدودات وقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وقد استبدل هنا الاسم بالضّمير الدّالّ عليه وقال (منكم)، وليشير إلى المؤمنين المكلّفين بهذه الفريضة، بمعنى أنَّه تعالى راح يخاطب الأصحّاء من المؤمنين، فوضّح بأنَّ المؤمن الذي يكون مريضاً أو على سفرٍ فلم يكلّفه ربّه عزَّ وجلَّ بهذه الفريضة، وأنَّ من واجبه أنْ يصوم صيام بدلٍ عن الأيام التي أفطر فيها، وعبّر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ والملاحظ أنَّه تعالى حذف من جديد (صوموا) في هذه الفقرة أيضاً. مع الملاحظ أيضاً أنَّه تعالى قد أورد كلمة (عدّة) بصيغة المصدر. كما أورد كلمة (أخر) اشتقّه من فعل أخّر ضدّ قدّم. ولم يقل فليصم عدّة أيام بديلة عن الأيام التي فطر فيها. وإنَّ هذه التّصرّفات الإلهيَّة في موضوع صياغة هذه الفقرات تدعوك لتتفكّر يا عزيزي القارئ مبلغ الدّقّة في التّعبير القانوني لهذه الفقرات وفي الصّياغة البلاغيَّة المعجزة التي صيغت بها هذه الفقرة خاصَّة من هذه الآية الكريمة.

فإنْ فكّر الباحث في الشّرائح الإنسانيَّة المؤمنة المكلّفة بفريضة الصّيام. فلا يلاحظ أنَّها ثلاثة شرائح إنسانيَّة: الأصحّاء والمرضى والمسافرون والذين أتت على ذكرهم الفقرات السّابقة من هذه الآية الكريمة، بل إنَّه يلاحظ وجود شريحة رابعةٍ يُشَكّلها من بلغ في عمره عمراً كبيراً، وعاد يستحقّ اسم شيخ أو شيخة. ويتساءل هذا الذي يلاحظ وجود هذه الشّريحة الرّابعة فيقول في حديث نفسه: وهل أنَّ فريضة الصّيام ووفق معطيات هذه القواعد

القانونيَّة الآنفة الذّكر تنطبق على هذه الشّريحة الرّابعة من المؤمنين وفي وقت كان الله تعالى قد قال في موضع آخر ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ؟

أقول : لا يذهب ظنّك يا عزيزي القارئ إلى أنَّ الله جلّ شأنه قد أهمل ما سألت به نفسك ، بل وقد راح يجيب عنه ، ولكنْ؛ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ معجزة أيضاً . فلاحظ كيف أنَّ الله تعالى لم يورد هنا فاء الاستئناف ، بل أتى بالواو العاطفة لتعطف هذه الإجابة ومضمونها على مضمون ما سبقها من قواعد قانونيَّة وقال جلّ شأنه : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ . أي أنَّه وإنْ لم يورد الله عزَّ وجلَّ اسم هذه الشّريحة الرّابعة من المؤمنين الذين ذكرناهم ، بل أورد فعل : (يُطيقونه) هذا الفعل الذي يُستعمل للدّلالة على قُوَّة الاحتمال والطّاقة التي تؤهّل المؤمن لصيام الأيام المعدودات ، أو لا تؤهّله لصيامها . فلماذا أورد الله تعالى فعل (يطيقونه)؟ أورد ذلك بسبب أنَّ هذه الشّريحة من الشّيوخ منها ما يقوى على الصّيام ، ومنها ما لا يقوى على فعل ذلك ، لذلك فلا ينبغي استثناء جميع من تجاوزت أعمارهم سنّ الشّباب واستثناء مَنْ عادت أجسادهم لا تقوى على تحمّل مشقّة الامتناع عن الطّعام والشّراب في شهر الصّيام الذي تمثّلهم تلك الأيّام المعدودات . وبهذا الأسلوب من الصّياغة يكون الله عزَّ وجلَّ قد أثبت من خلال ذلك أنَّه قد صاغ هذه الفقرة في غاية الدِّقَّة في انتخاب اللّفظ المناسب في هذا المقام ، ولتأدية المعنى المطلوب منه تأديته ، وبعد أنْ أطلعتُكَ يا عزيزي القارئ على هذه المعلومة كان من واجبك أنْ تكبّر ما فعله ربّك هنا وبهذه الدِّقَّة في التّعبير وبتلك الصّياغة البلاغيَّة المعجزة التي تركت المفسّرين

القدماء رحمهم الله يختلفون في دلالتها، خصوصاً وأنّهم لم ينتبهوا إلى السّؤال المطروح الآنف الذّكر وجوابه الذي ألقينا الضّوء عليه.

ونسأل من جديد: وما هي القاعدة القانونيَّة التي وضعها الله جلّ شأنه بما يخصّ هذه الشّريحة من النّاس الشّيوخ؟ وقد أجاب الله عزَّ وجلَّ على تساؤلنا المذكور، وقال محدّداً ذلك من خلال قوله تعالى ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾. أي أنَّه جلّ شأنه قد أتى بكلمة (فدية) ومنوّنةً على آخرها، وقد اشتقّها من فدى فلانٌ الشّيء، ومعناه أعطاه شيئاً في مقابله، وكان القصد من تنوين هذه الكلمة (فديةٌ) هو لإظهار قيمة ثوابها في نظر الله عزَّ وجلَّ، كذلك فقد حذف الله تعالى هنا أيضاً فعل الأمر الذي يأمر الشّيخ العاجز ليؤدّي بدل صيامه عن كلّ يومٍ من الأيام المعدودات ما يوازي طعام وجبة مسكين. وعلى هذه الصّورة من الصّياغة البلاغيَّة المعجزة يكون الله تعالى قد أضاف إلى القاعدة القانونيَّة الثّانية مُلحقاً قانونياً، ومن خلال قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ وخلافا لما درج القانونيّون عليه وهو أنْ يُلحقوا بالقوانين ملحقات. أي أنَّه تعالى قد ألحق هنا ملحقاً قانونيّاً مُتعلّقاً بخصوص هذه الشّريحة من المؤمنين العاجزين صحّيّاً عن تأدية فريضة الصّوم. وليُشكّل هذا الملحق القانونيّ قاعدةً قانونيَّةً ثالثة.

ويطرح سؤالٌ نفسه بعد سماع هذه القاعدة، ويتعلّق موضوعه بمقدار (طعامُ مسكينٍ) الذي شُرّع بديلاً عن الإفطار في أيام الصّوم من قبَل هذه الشّريحة المذكورة من النّاس المؤمنين الشّيوخ العاجزين. فهذا سؤال سيسأله كلّ شيخ مؤمن تنطبق عليه هذه الأوصاف. فالنّاس من هؤلاء يكون منهم

الأثرياء، ويكون منهم مَن هو من متوسّطي الدّخل، ويكـون منـهم الفقـراء. فهل يدفع كلّ واحدٍ من هـذه الأقسـام مـن الشّـريحة المشـار إليـها مـن النّـاس نفس مقدار هذه الكفّارة مهما تفاوتوا في مستوى الثّروة التي يملكونها؟

وقـد أتـى الله جـلّ شـأنه بفـاء الاسـتئناف ليسـتأنف ويُجيـب عـن هـذا السّؤال الآنف الذّكر وقال ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ومن خلال هذه الإجابة المُصاغة صياغةً بلاغيَّةً معجـزة يكـون الله تعـالى قـد حـثّ الميسـورين ماديّاً من هذه الشّريحة المسنّة أنْ يتطوّعـوا بمعنـى أنْ يتبرّعوا بـأكثر مـن طعـام مسكينٍ عن كلّ يومٍ يفطرونه، هذا من باب أنَّ فعل (تطوّع) اشتقّ مـن قولـك تطوّع فلانٌ بالشّيء، ومعناه أنَّه تبرّع به، وجعله نافلةً له (محيط المحيط).

ثـمَّ؛ فلتلاحـظ يـا عزيـزي القـارئ كيـف أنَّ الله تعـالى قـد أورد كلمـة (خَيْرًا) مرتين، ففي المرَّة الأولى أورد كلمة (خَيْرًا) بصيغة المفعـول، وبمعنـى المال مُطلقاً، وليصبح المعنى أنَّ على كلّ واحد من الشّـيوخ العـاجزين الذيـن لا يستطيعون الصّيام أنْ يدفع الواحد منهم على قدر مسـتواه المـاليّ. وأمَّـا في المرَّة الثّانيـة؛ فقـد أورد الله تعـالى كلمـة (خَيْرٌ) بصيغـة الخـبر لمبتـدأ محـذوف والتّقدير (فهو خيرٌ له). وبمعنى أنَّه إذا عمل على هذا النّـصّ القـانونيّ فثوابـه يكون أفضل وأعظم. فكلمة (خَيْرٌ) هي في أصل وضعها كلمة: (أخير) وقد حُذفت الهمزة من أوَّلها ولتفيد معنى التّفضيل، وقد حذفوا الهمزة مـن كـثرة استعمال هذه الكلمة (أخـير). هـذا وقـد أوردهـا الله جـلّ شـأنه كخـبر لمبتـدأ محذوف مرفوعة، وقال (خيرٌ له) لبيان عظمة ثواب من يُطعم أكثر من فديـة مسكين. فعل الله جلّ شأنه هنا هذا علـى شـاكلة مـا فعلـه في سـورة الضّحـى

التي قال تعالى فيها ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ . ففكّر يا عزيزي القارئ كم هي دقيقةٌ وعظيمةٌ صياغة هذه الفقرة الآنفة الذّكر والمصاغة بلاغياً؟

ولتلاحظ أيضاً كيف أنَّ الله تعالى ما إنْ فرغ من صياغة هذه القواعد القانونيَّة ومُلحقاتها ، وبهذه الصّياغة التي جاءت في غاية الدِّقَّة والتّعبير البلاغي إلاّ ولاحظنا بأنَّ الله تعالى لم يكتف بذلك ، بل شاء أنْ يُنبّه أذهاننا إلى حقيقةٍ لابُدَّ من بيانها في هذه الآية الكريمة ، وتنحصر هذه الحقيقة في بيان الأساس الذي أسَّس الله تعالى عليه هذه القواعد القانونيَّة ، وموضحاً بأنَّها قد قامت على أساسٍ علميّ ، وليس على أساسٍ اعتباطيٍّ كما يبدو لذهن قارئ هذه الآية الكريمة ، لذلك نُلاحظ بأنَّه جلّ شأنه أتى بواو العطف ، ليعطف ما سيوضّحه على سابقه وقال ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . وبهذه الفقرة قد أنهى الله تعالى هذه الآية الكريمة المطوّلة . فما هي نواحي الصّياغة البلاغيَّة المعجزة فيها؟ وكيف أمكن لهذه الآية المطوّلة أنْ تعبّر عن هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة؟

أقول : ما دام الله عزَّ وجلَّ قد استهلّ هذه الفقرة الأخيرة بحرف الجزاء (أنْ) ونصب به الفعل المضارع (تصوموا) وما دام قد أورد حرف (أنْ) في الابتداء فقد أصبح قوله تعالى ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ ﴾ في محل فعل رفع مبتدأ ، وبذلك يصبح قوله تعالى فيها ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ في محل رفع خبر هذا المبتدأ . وإنَّه جلّ شأنه حين أنّهى هذه الفقرة بقوله ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فقد حذف مفعول فعل (تعلمون) فلم يوضّح سبحانه وتعالى ماذا تعلمون ، وإنَّ الحكمة

من هذا الحذف البلاغي هو ليصرّف معنى هذه الفقرة الأخيرة إلى عدّة اتجاهات. ولنصرّف فعل (تعلمون) أوّلاً إلى معنى العلم بالشّيء، ولتُفيد هذه الفقرة بأنَّه تعالى قد أسَّس هذه القواعد القانونيَّة التي أوردها في هذه الآية الكريمة على معطيات أسَّس علميَّة، ولتفيد أيضاً أنَّ من واجب المؤمن الذي يُطالع فريضة الصّوم ألاّ يشكّ في قيمة ما يترتّب على صوم أيامٍ معدودات من فوائد، بل وأنْ يتيقّن بنتائجها المفيدة له جسدياً وروحياً. ولتفيد هذه الفقرة من جهةٍ ثالثةٍ محاولة الحثّ على تقصّي ودراسة فوائد الصّوم والتي هي في صالح الإنسان، وليُعين معرفة ثمار الصّوم فقهاء الأمَّة وأطباءها على الفتوى فيما تعرض لهم من أسئلةٍ ومسائل على ضوء هذه المعطيات.

فإنْ أحاط القارئ علماً بجميع ما بيّنته له من دلالاتٍ تضمّنتها هذه الجُمل التي جعلها الله الحكيم الخبير آيةً مستقلّةً بذاتها وغير متقيّد بما تعارف عليه الكُتَّاب والأدباء على مرّ العصور من تقاليد موروثة، يُدرك لا محالة الحكمة البالغة الكامنة وراء التّفريق بين معطيات هذه الآية من آيات الصّوم وما بين ما قبلها وما بعدها من آيات بنقاطٍ دالّةٍ على استقلاليَّة مضمون هذه الآية الكريمة المصاغة صياغة بلاغيَّةً وبلباس هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة التي وضّحناها آنفاً.

ثمَّ إنَّ القارئ وبعد أنْ ألمّ بدقَّة وعظمة هذه الصّياغة البلاغيَّة التي صيغت بها فقرات هذه الآية الكريمة، ينطق من نفسه قائلاً: إنَّ ذلك كلّه يُشكِّل علامة ظاهرة، وبصورة يقينيَّة على وجود الله العظيم الذي صاغ هذه الآية الكريمة بهذه الصّياغة البلاغيَّة المعجزة والفريدة في أسلوبها أيضاً.

وعليه؛ فقد استحقّت هذه الآية من آيات فريضة الصّيام اسم (آية)، وإنْ تعدّدت فقراتها وكلماتها. فإنْ كان هذا القارئ مؤمناً بوجود الله تعالى ومن المسلمين المعظّمين لهذا الكتاب المقدّس والمبارك المسمّى (قرآن) فيزداد إيماناً به وبعظمته وبعظمة الله تعالى الذي أنزله، وبعظمة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة التي امتاز بها هذا القرآن العظيم على جميع ما تعارف العرب عليه في مجالات الأدب والإنشاء البيانيّ، ويكتفي هذا القارئ بهذه الأمثلة الأربعة التي قدّمتُهَا له تدليلاً على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة الخامسة المعجزة المشار إليها، بل ويتمنّى أنْ أزيده اطّلاعاً على ما اختصّ به هذا القرآن العظيم من خصوصيات. لذلك فسأطلع القارئ الكريم على خصوصيَّة قرآنيَّة سادسة معجزة من خصوصيّات هذا الكتاب المقدّس والمبارك والذي سمّاه الله تعالى بنفسه (قرآناً).

الخصوصيَّة القرآنيَّة السَّادسة:

إيجازٌ ودقَّةٌ متناهيةٌ في انتقاء الألفاظ

وعندما أقول لك يا عزيزي القارئ بأنَّ من خصوصيَّة هذا القرآن الكريم (الإيجاز والدِّقَّة المتناهية في انتقاء الألفاظ) فإنَّ الإيجاز يدور في فلك قلّة الكلمات المعبّرة، وإنَّ الدِّقَّة المتناهية في انتقاء الألفاظ يدور في فلك الكلمة أيضاً. لذلك؛ فإنَّه يستحيل على الذي تعلّم الكلمات ودلالاتها وقواعد استعمالها أنْ يصل بعد إلمامه بهذا العلم واحتوائه أنْ يضارع ما امتاز به القرآن الكريم من خصوصيَّة معجزة على صعيد الفصاحة وانتقاء الكلمات، وبما يتناسب والتّسلسل الموضوعيّ لأيّ مضمون من المضامين التي يكتبها، وبما يماثل ما امتاز به هذا القرآن العظيم في هذا المجال. وهذه حقيقة يثبت منها أنْ يكون هذا الكتاب العزيز صادراً عمّن أوجد لغة الضّاد العلميَّة، وأقامها على قواعد وأصول، ولتصبح لغة البيان التي نزل بها هذا الكتاب القرآن. أولم يقل الله تعالى في الآيات 55 ـ 58 من سورة الذّاريات: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ؟ فأنا أفهم من معطيات هذه الآيات الكريمة بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أخذ على عاتقه مذ قرَّر خلق هذا الإنسان أنْ يعلّمه لغة البيان التي تدخل في مفهوم الرّزق المعنويّ. ولذلك رأينا كيف أنَّ تاريخ لغة الضّاد يعود تاريخه إلى تاريخ بعثة آدم عليه السّلام، وعلى حسب ما أثبتّ ذلك في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره). ومن المعلوم أنَّ واضع الشّيء هو الأقدر على استعماله مع مرور الزّمان. وإنَّ هذه الحقيقة تساعدنا على التّسليم مقدّماً بأنَّ هذا القرآن الكريم يستحيل إلا أنْ يكون قد امتاز بخصوصيَّة الإيجاز ودقَّة التّعبير، وبما يتلاءم مع التّسلسل الموضوعي لمضامين سور القرآن الكريم.

والحقيقة هي أنَّ الله الخالق يا عزيزي القارئ الذي استهلّ في محكم آيات كتابه العزيز سورة (الرّحمن) وقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي علّم هذا الإنسان لغة البيان التي هي لغة الضّاد بشهادة أهلها وأعدائها هذه الآيات التي شرحتها في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره) ابتداء من الصّفحة 268، وتعني باختصار أنَّه تعالى قد كان في علمه الغيبيّ أنَّه سينزل هذا القرآن الكريم الذي يشتمل على تشريع كامل التّعاليم على محمّد خاتم النّبيّن ﷺ وبهذه اللُّغة العربيَّة العلميَّة القائمة على قواعد وأصول تسع بحار العلوم التي سيتضمّنها هذا الكتاب العزيز، فإنَّ الله جلّ شأنه بعث نبيّه آدم بأوَّل شريعة في تاريخ البشر، ومن جملة ما علّمه قال تعالى في الآية 31 من سورة البقرة موضّحاً ما علّمه وقال ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ولم يقل علّمه البيان؛ بسبب أنَّه تعالى علّم آدم ما يشابه البذرة للُّغة البيان،

هذه البذرة التي نمت من بعد زمن آدم، وترعرعت، حتَّى اكتسبت كمال تطوُّرها على أيدي حملتها من أمَّة العرب، وهي اللُّغة التي سمّاها المستشرقون وعلماء اللّسانيات (اللُّغة السّاميَّة الأصليَّة) والتي أنزل الله تعالى بها هذا القرآن العظيم. وهو تعالى الذي كان قد وضع للإنسان المؤمن بآدم أحرف هجاء اللُّغة العربيَّة وقواعد تسمية الأشياء في هذا الكون. وتطوَّر هذا مع مرور الزّمان إلى أنْ أنزل الله عزَّ وجلَّ هذا الكتاب المقدّس بلغة البيان نفسها على سيِّد المرسلين ﷺ. وهذه الحقيقة تفسّر للقارئ ما تساءل بشأنه. فواضع اللُّغة أجدر أنْ تأتي ألفاظ آيات كتابه العزيز بهذا الإيجاز وبهذه الدِّقَّة المتناهية في انتقاء الألفاظ وبخصوصيَّة سادسة معجزة أيضاً.

وقبل أنْ نتناول هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة بتقديم الأمثلة التي ثبت مصداقيتها كان من الواجب أنْ أُعطي القارئ في البداية فكرةً ولو موجزةً عن (الكلمة) وعن مكانتها في اللُّغة وعن قواعد وضعها، وعن مدى فصاحتها وتاريخ تطوُّر الكلمات.

ألا إنَّ الكلمة في اللُّغة تحتلّ المكانة الأولى ومن باب أنَّ الجمل تتألف أصلاً من كلماتٍ مفردة. وتستعمل هذه الكلمات تارةً للإخبار أو الاستخبار بها، وتارةً لإظهار التّعجّب أو للأمر والنّهي بواسطتها. فالكلمة إذن تُؤدِّي معنىً من المعاني في الجملة اللُّغويَّة، وهي مصاغةٌ إمَّا بصيغة الإخبار أو الاستخبار، وإمَّا بصيغة إظهار التّعجّب والأمر والنّهي. ولا تكون الكلمة فصيحةً إلاّ إذا وردت متلائمةً مع الكلمات الواردة في سباقها وسياقها ومؤانسةً لأخواتها ضمن تسلسل الأفكار الموضوعي، وإلاّ فإنَّه لا يجوز

القول بفصاحتها، بل بنبوّتها وسوء ملائمتها لموقعها. فهذه الحقيقة التي بيّنتها تكشف عن مكانة (الكلمة) في اللُّغة العربيَّة.

ثمَّ إنَّ لوضع المسمّيات قواعد عديدة منها ما يتعلّق بمخارج أحرف الكلمة، ومنها ما يتعلّق بسمات الشّيء المسمّى وصفاته وسواءً في الأمور الحسّيَّة و المعنويَّة. وإنَّ الباحث الذي يدقّق نظره في مفردات كلمات المسميات العربيَّة يدهش لدقّتها في التّعبير، ولقدرتها على تميز الأنواع المتباينة والأفراد المتفاوتة والأحوال المختلفة. ولذلك، فإنَّ مفردات الكلمات العربيَّة هي من الكثرة إلى درجة أدهشت علماء اللِّسانيات؛ حيثُ إنَّه توجد لكلّ درجةٍ من درجات العمر أو لكلّ نوع من أنواع النّظر أو لكلّ أسلوب من أساليب الطّيران أو لأنواع رنين الأصوات وغيرها تسمياتٌ، وعلى سبيل المثال فإنَّ الجنين إذا ما خرج من بطن أمه وعرف النّور وبدأت حركته تزداد، تقول درج الصّغير، فإذا بدأ يزحف تقول حبا، فإذا حاول المشي تقول حجلَ الغلام، فإذا أصبح شاباً تقول خطر الشّاب باهتزازٍ ونشاط، فإذا أصبح شيخاً يخطو بخطوات متقاربةٍ تقول دلف الشّيخ وهدج، أي مشى مثقلاً، وغيرها من الكلمات. فهذه الكثرة في التّعابير لا نجدها إلاّ في اللُّغة العربيَّة.

ومعلوم أنَّ لكل شيء زمن ولادةٍ، وزمن تطوير، وزمن شيخوخة، وزمن موت. وهذه الحقيقة تنطبق على الكلمات في اللُّغة. لذلك يُلاحظ بأنَّ الكلمات القديمة الولادة زمنياً تتميّز من ناحيتين: النّاحية الأولى قلّة أحرفها. فأحرفها تتآكل لكثرة الاستعمال وتقلّ. والنّاحية الثّانية تتجلّى في تعدّد معانيها. فالكلمات التي لا تحمل إلاّ معنى واحداً غالباً ما تكون حديثة

الولادة، ومع توالي الأيام تتعـدّد دلالاتـها واستعمالاتها. والمهمّ من ذلك كلّه هو أنَّ فصاحة الكلمة ترتبط بدقَّة انتخابها وبسعة معانيها ودلالاتها وبالدّور الذي تُؤدِّيه، وهي واقعةٌ بين ما قبلها وما بعدها من كلامٍ يُشَكِّل سباقها وسياقها، وضمن تسلسلٍ موضوعيٍّ رتيب.

ومعلوم أنِّي لا أتكلّم عن إعجاز القرآن الكريم وفصاحته، لكنِّي أبحث في خصوصيَّة إيجازه في التّعبير، وفي دقّته في انتقاء ألفاظه، فالله جلّ شأنه قد جعل واصطفى بدقَّة كلّ كلمةٍ أوردتها آيات كتابه العزيز وإلى درجة بلغت في امتيازها وخصوصيتها حدّ الإعجاز بلا منازع. وسأقدّم للقارئ أمثلةً من جوانب هذا الكتاب العزيز الثّلاث: مقدّمته ومتْنه ومن خاتمته.

مثال أوّل يثبت وجود الخصوصيَّة السّادسة:

فنحن كمؤمنين يا عزيزي القارئ قد سلّمنا بأنَّ الفاتحة هي خلاصة لخّصت مضامين القرآن الكريم وبصياغة بلاغيَّة وعلى شكلِ دعاءٍ ليلتزم المؤمن بالدّعاء بها في صلواته المفروضة عليه. وقد سبق لي أنْ بيّنت للقارئ نوعيَّة تلخيص المضامين القرآنيَّة التي تحمله فاتحة الكتاب. وأنا الآن بصدد الكلام عن فصاحة كلمات الفاتحة ودقَّة انتقائها وواسع دلالاتها ومتجاوزاً الكلام عن لفظ الجلالة (الله) الذي بات معروفاً أنَّه يحمل دلالات أكثر من مائة وخمسة صفاتٍ تجلّى بها الخالق حين خلق هذا العالم المادِّيّ. ولنتناول بالكلام أوَّل ما نتناول الكلام حول كلمة (ربّ) هذه الكلمة الواردة بعد اسم الجلالة الله. فالذي يتبيّن لي يا عزيزي القارئ هو أنَّ كلمة (ربّ) هذه قديمةٌ جداً، ولرُبَّما يعود تاريخها إلى زمن بعثة آدم عليه السّلام. وبدليل تعدّد

معانيها وكثرة استعمالاتها. فالإنسان الذي يراجع هذه الكلمة (ربّ) واستعمالاتها في مختلف معاجم اللُّغة يتبيّن له أنَّها تشتمل على سبعة دلالات. فالمعنى الأوَّل من معانيها أنَّها تدلّ على معنى (المربّي)؛ حيثُ نقول إنَّ فلاناً رعى اليتيم، وربّاه، ولازمه، حتَّى أدرك أنَّ هذا اليتيم قد بلغ رشده، فهو في هذه الحالة يسمّى ربّه. والمعنى الثّاني من معانيها الذي تدلّ عليه كلمة (ربّ) أنَّها تعني (المالك)؛ حيثُ يصحّ أنْ نقول فلانٌ ربّى ثروةً كبيرةً من مالٍ قليلٍ ورثه عن أبيه فهو ربّ ثروته ومالكها، والمعنى الثّالث لكلمة (ربّ) هو أنَّها استعملت بمعنى (السَّيِّد)؛ حيثُ صحّ القول أنَّ فلاناً من الملوك أو الرّؤساء ربّى قومه وساسهم بصورةٍ صحيحةٍ حتَّى أصبح سيِّد قومه عن حقّ وحقيق. والمعنى الرّابع لكلمة (ربّ) أنَّها تطلق على الذّات المدبّرة؛ حيثُ تقول فلانٌ يدبّر شؤون منزله بنفسه فهو ربّ بيته. والمعنى الخامس لكلمة (ربّ) أنَّها تستعمل بمعنى (المُنعم)؛ حيثُ يصحّ لك أنْ تقول فلانٌ ربّ نعمتي بمعنى أنَّه دأب على الإنفاق عليّ. والمعنى السّادس لكلمة (ربّ) أنَّها تستعمل بمعنى (القيّم)؛ حيثُ يصحّ أنْ تقول لقد اختلفنا، فأصلح ربّنا أمرنا، أي تدخّل القيّم علينا، وحكم بيننا، فأصلح ما كنّا فيه مختلفين، كذلك فإنَّ المعنى السّابع لكلمة (ربّ) تستعمل بمعنى (المتمّم) حيثُ تقول لاحظت أنَّ فلاناً ربَّ حاجَةِ فلانٍ، بمعنى أتمم ما كان محتاجاً إليه، وأصلح أمره. فهذه سبعة معاني تفيدها كلمة (ربّ). فمن خلال هذه التّعدديَّة وكثرة دلالات كلمة (ربّ) يستنبط عالم اللّسانيّات قدمَ تاريخ هذه الكلمة.

ولندقّق يا عزيزي القارئ الآن في مدى فصاحة هذه الكلمة وهي واردة ما بين سباقها في آية سورة الفاتحة وهي ضمن قوله تعالى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سباقها وهو ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وما بين سياقها وهو كلمة (العالمين)، ولننظر هل أنَّ كلمة (ربّ) وهي في هذا الموضع من هذه الآية الأولى من دُعاء الفاتحة قد أضفت علينا بجميع ما أوردناه من دلالات؟ فإنْ ثبتت صحّة هذا الاحتمال، فلا نكون قد أثبتنا فصاحة كلمة (ربّ) وهي في هذا الموضع من دعائنا فقط، بل نكون قد أثبتنا أيضاً إعجاز استعمالها بجميع دلالاتها وفي موضعٍ واحدِ الأمر، ويثبت بالتّالي مصداقيَّة ما يدلّ على هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة المعجزة التي نحن بصدد الكلام عنها، وهذا من باب أنَّ الأديب الكاتب إذا استعمل كلمةً من الكلمات، فغالباً ما يستعملها بمعنى أو بمعنيين على الأكثر في موضع واحد. أمَّا أنْ تكون للكلمة سبعة معاني، ومع ذلك يستعملها في مقام واحد وبمعانيها السّبعة، فتلك خصوصيةٌ يمتاز بها هذا الكاتب، ويدخل هذا حينئذ في باب الإعجاز الذي ما بعده إعجاز في مجال استعمال الأديب لكلمةٍ معيّنة من الكلمات. وإنَّ هذه الحقيقة توجب علينا مراجعة سباق كلمة (ربّ) الواردة في دعاء الفاتحة وهو ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لنستوعب دلالته، وليساعدنا ذلك على تفهُّم الدّلالات التي استُعملت بها كلمة (ربّ) في هذا الدّعاء.

فالذي نُلاحظه يا عزيزي القارئ هو أنَّ كلمة (الحمد) تعني المديح والثّناء، وقد وردت مُعرّفةً بالألف واللام، وإنَّ تعريف كلمة (الحمد) هنا يفيد معنى الاستغراق، وليشمل جميع أنواع المديح والثّناء، وليس هذا

التّعرّف عهديّاً. أمّا لفظ الجلالة (الله)، فهو اسم جامع للأسماء الحُسنى، وهو اسمٌ جامدٌ غير مشتقٍّ، ويختصّ بذات الله عزّ وجلّ، وامتازت لغتنا العربيّة بإطلاق كلمة (الله على الذّات الإلهيّة المقدّسة، ومن دون بقيّة لغات العالم كلّها).

كذلك نلاحظ يا عزيزي القارئ دخول اللام على لفظ الجلالة في هذه الآية الكريمة، الأمر الذي يدعونا لنتساءل: ما هو المعنى الذي استُعملت هذه اللام للتّعبير عنه في هذا المقام؟ إذ أنّ للاّم أكثر من عشرين استعمالاً. فإنْ نحن راجعنا معجم (محيط المحيط) فقد نبّهنا إلى أنّ أوّل نوع من أنواع استعمالات اللام في اللُّغة العربيّة هو أنّها إذا وقعت ما بين معنى وذات فتُستعمل بمعنى الاستحقاق. فإنْ نحن عُدنا إلى آية الدّعاء ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نلاحظ بأنّ حرف اللام ورد في حقيقة الأمر ما بين (معنى) تمثّل في كلمة (الحمد) وما بين (ذات) تمثّل اسم الجلالة (الله). وعليه؛ فإنّ اللام في (لله) تكون قد استُعملت هنا بمعنى استحقاق الذّات الإلهيّة لجميع أنواع المديح والثّناء، فهذا الذي حصلنا عليه دلّنا عليه سباق كلمة (ربّ) الواردة في الدّعاء ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وننتقل إلى الكلام عن سياق كلمة (ربّ) الذي تمثّل في كلمة (العالمين) ونتساءل: ما هي دلالة كلمة (العالمين) الواردة في دعاء سورة الفاتحة؟ ونراجع من جديدٍ معجم (محيط المحيط) فنُدرك بأنّ كلمة (العالمين) هي جمعٌ لكلمة (عالم) بفتح اللام، والتي تعني الخلقَ كلّه أو ما حواه بطن هذا

الفُلك وكلّ صنفٍ من أصناف الخلـق . فكلمـة (عـالم) تشـتمل علـى جميـع هذه الدّلالات التي تشكّل سياق كلمة (ربّ) المشار إليها في دعاء الفاتحة .

والآن ؛ وبعـد أنْ أحطنـا علمـاً بـدلالات سـباق وسـياق كلمـة (ربّ) الـواردة في دعـاء سـورة الفاتحـة ، وبعـد أنْ علمنـا مـا تحملـه هـذه الكلمـة مـن دلالات ، يتّضح لنا بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قـد استعمل كلمـة (ربّ) هنـا وبصـورة يقينيَّة بجميع معانيها السّبعة التي سبق لنا أنْ أوردناها ، وليصبح دعاؤنا الذي ندعو به وهو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أنَّنا نخصُّ فيه ذات الله تعالى كونه خلاّقاً ، وأنَّه هو الذي خلقنا من نطفةٍ أمشاجٍ ، فنحـن نحمـده ونحـن موقنـين أيضـاً بأنَّـه سبحانه وتعـالى هـو الـذي ربّانـا في بطـن أمـهاتنا بفضـل منـه ، ومعتقدين أيضاً بأنَّه تعالى هو الذي هيّأ لنا مَنْ يقوم بتربيتنا والإشـراف علينـا بعد ولادتنا ، وبفضل منه أيضاً وإلى أنْ أبلغنا رشدنا ، ومعتقديـن فـوق ذلـك كلّه بأنَّ خالقنا هو الذي خلق لنا عالم الابتلاء في هذه الحياة الدّنيا لينقلنا إلـى الحياة الآخرة ، وعليه ؛ فنحن حين ندعو ونقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فنحن نخـصّ الله بجميـع أنـواع المديـح والثّنـاء علـى اعتبـاره مالكنـا الحقيقـي الـذي نحـن نعيش في قبضتـه ، والمتصـرّف بنـا كمـا يشـاء بـلا منـازع ، فبيـده حياتنا ، وبيده مماتنا ، وبيده نشأتنا الأخرى ، لذلك نخصّ ذات خالقنا بجميع أنواع المديح والثّناء ، لأنَّه جلّ شـأنه في حقيقـة أمـره أيضـاً هـو المدبّـر الحقيقـي لشؤون هذا العالم المادّيّ وشـؤوننا أيضـاً ، فـهو الله الـذي يدبّـر كـلّ شـيء في عالمنا ، ونخصّ ذات خالقنا بجميع أنواع المديح والثّنـاء ، لأنَّـه عـزَّ وجـلَّ هـو المنعم الحقيقي علينا الـذي أوجـد لنـا جميـع هـذه النّعـم التـي يزخـرُ بـها هـذا

الكون من حولنا، وهو الله الذي هدانا إلى الصّراط المستقيم الـذي مـن شـأنه أنْ يدخلنـا في زمـرة المؤمنـين المنعـم عليـهم أيضـاً مـن النّبيـين والصّدّيقـين والشّهداء والصّالحين. ونخـص ّ أيضـاً ذات خالقنـا بجميـع أنـواع المديـح والثّناء، لأنَّ ربنا هو الحيّ القيّوم الـذي لا تـأخذه سنةٌ ولا نـوم، فـهو تعـالى القيّم على إصلاح جميع ما تقع فيه الأمـم المؤمنـة من اختلافـاتٍ وتحريفـاتٍ لكُتبها السّماويَّة المنزلة، فلولا الله الحيّ القيّوم لاستحال تطوير أمـور المؤمنـين ونقلهم إلى مرحلـة يستحقّون معـها تعـاليم هـذا الدِّيـن الإسـلامي الحنيـف. ونخصّ ذات خالقنا بجميع أنواع المديح والثّناء أيضاً؛ لأنَّ ربّنـا لا يـدعُ شـيئاً يخصّ خلقه إلاّ ويتمّمه، فهو جـلّ شـأنه أتمّ تكويـن فطرتنـا البشـريَّة بأحسـن تقويم، وأتمّ إنزال التّعاليم التي عادت صالحةً لكلّ زمانٍ ومكـان. فإلـهنا هـو المتمّم حقّاً وصدقاً لكلّ شيء في هذا الوجود. ومن هـذا نكـون قـد أدركنـا يـا عزيـزي القـارئ بـأنَّ الله تعـالى قـد أورد كلمـة (ربّ) في دعـاء سـورة الفاتحـة مورداً إيّاها بجميع دلالاتها وليس بمعنى واحد.

وعلى هذه الصّورة يكون القارئ العزيـز قـد أدرك لا محالـة فصاحـة، بل وإعجاز انتقاء الله عزَّ وجلَّ لكلمة (ربّ) الواردة في دعاء الفاتحة المذكور، وضمن هذا السّباق والسّياق الذي رجعنا إليه. وعليه؛ واسـتناداً إلـى عمليَّـة الدِّقَّة في انتخاب الألفاظ المناسبة والإعجاز في استعمالها قـد سـاعد هـذا كلّـه لتصبح آيـات سـورة الفاتحـة خلاصـة لجميـع مضـامين سـور القـرآن الكريـم، واستحقّت بالتّالي تسمية فاتحـة الكتـاب. ويكفينـا لنقـول واسـتناداً إلـى مـا بحثناه، وما توصّلنا إليه بأنَّ كلمة (ربّ) هذه وهي واردة في دعاء الفاتحـة قد

شكّلت الأساس والمرجعيَّة لمئات الآيات الكريمة الواردة في متن هذا الكتاب العزيز، تلك الآيات التي أورد الله عزَّ وجلَّ فيها كلمة (ربّ) مورداً إيّاها في كلّ مرَّة بمعنى من هذه المعاني السّبعة التي تفيدها هذه الكلمة (ربّ) والتي اجتمعت بدلالاتها كلّها في دعاء الفاتحة، وسأسعى لأورد بعضاً من تلك الآيات كنماذج دالّةٍ على استعمالات الله تعالى لكلمة (ربّ) في كلّ موضعٍ من مواضع سور القرآن الكريم بمعنى من تلك المعاني والدّلالات.

كذلك لاحظ معي يا عزيزي القارئ كيف أنَّ سورة الفاتحة أوردت صفة ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ لكنَّها لم تورد صفة ﴿ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ ولا ﴿ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ ولا (مالك كلّ شيء) فكيف يكون دعاء الفاتحة والحال هذه قد اختصر جميع دلالات هذه الآيات التي أوردناها والوارد فيها كلمة (مالك)؟

أقول: إنَّ كلمة (ربّ العالمين) هي التي اختصرت هذه الصّفات التي ذكرناها، وبمختلف أشكالها من خلال كلمة (ربّ) ودلالتها على معنى المالك. لذلك؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال في الآية 26 من سورة آل عمران وعلى سبيل المثال ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾. فإنَّ مرجعيَّة هذه الآية الكريمة قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾. وإنَّه جلّ شأنه حين قال في الآية 189 من السّورة نفسها: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾. فإنَّ مرجعيَّة ذلك المعنى تضمّنه قوله تعالى في دعاء الفاتحة ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

كذلك؛ فليلاحظ القارئ كيف أنَّ سورة الفاتحة لم تصف الله تعالى بأنَّه هو ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فكيف تكون الفاتحة، والحال هذه قد اختصرت صفة (القيّوم) المرتبطة بصفة الله (الحيّ)؟ ألا إنَّ صيغة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الواردة في سورة الفاتحة هي التي اختصرت هاتين الصّفتين المذكورتين ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ من خلال دلالة كلمة (ربّ) الواردة فيها على معنى (القيّوم)، لذلك؛ فإنْ نحن راجعنا ما استهلّ الله عزَّ وجلَّ به سورة آل عمران، نلاحظ بأنَّ الله جلّ شأنه قد استهلّها بقوله: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ وبمعنى أنَّ عمليَّة تطوير تعاليم الأديان والقيام بنسخ ما حرّفه أهلها، وما نسوه من تعاليمها، قد قام بذلك كلّه الله الحيّ القيّوم. خصوصاً وقد علمنا أنَّ من معاني كلمة الرّبّ ودلالاتها صفة القيّم على كلّ شيء، والذي يقوم بإصلاح أمور ما فسد من أشياء. كذلك ليلاحظ القارئ أنَّ كلمة (ربّ) التي استُعملت في دعاء الفاتحة بمعانيها السّبعة التي أتينا على ذكرها، وكان من جملة معانيها معنى (المربّي) فإنَّ أكثر الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة (ربّ) ضمن متن القرآن المجيد يكون قد قُصد بها معنى (المربّي) خاصَّة ولتكون مرجعيّتها كلمة: (ربّ) الواردة في سورة الفاتحة. وعلى سبيل المثال فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: في سورة الضّحى ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فقد استعمل كلمة (ربّك) في الآيات بمعنى الذي ربّاك وأشرف على تطويرك من حالٍ إلى حال. كذلك ليلاحظ

القارئ كيف أنَّ من معاني (الرّبّ) الواردة في دعاء الفاتحة معنى (السَّيِّد) وإنَّ هذا المعنى لخّص معاني الآيات الكريمة التي أوردت كلمة السَّيِّد بمعنى الذي يسوس ويسود. فعلى سبيل المثال قال الله تعالى في الآيات 66 ـ 68 من سورة الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ فقد قصد أهل النّار من قولهم هذا أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو سيّدهم الحقيقي وأمثالها من الآيات الكريمة والتي يُعدُّ دعاء الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ مرجعاً لجميع هذه الآيات الواردة فيها كلمة (ربّ) وبمعنى السَّيِّد الحقيقي الذي يسوس أمور عباده بحكمة وخبرةٍ لا مثيل لهما.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ دعاء الفاتحة لم يشتمل على صفة الله (المدبّر)، بل اشتمل على كلمة (ربّ) وبمعنى المدبّر، لذلك أصبحت كلمتا ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ مرجعاً وأساساً لجميع الآيات الكريمة التي اشتمل عليها مَتْن القرآن المجيد. وعلى سبيل المثال؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال في الآية الخامسة من سورة السّجدة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فمعنى هذه الآيات، أنَّ الله تعالى الذي جعل هذا القرآن العظيم وسيلةً لهذا التّدبير المشار إليه في هذه الآيات وتعود صيغة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

مرجعيَّة صفة (المدبّر)، وبذلك أكون قد وجّهتُ نظر قارئي الكريم إلى كيفيَّة أصبحت آيات سورة الفاتحة خلاصةً ومرجعاً لجميع ما ورد في كتاب الله العزيز، واستحقّت بذلك سورة الفاتحة أنْ تسمّى فاتحة الكتاب وخلاصته يقيناً. وقس على ذلك بقيَّة ألفاظ آيات سورة الفاتحة السّبعة، وأدرك تلخيصها لآيات القرآن بهذا الأسلوب الذي ذكرناه. وعلى هذه الشّاكلة، فإنَّ جميع الآيات الكريمة الوارد فيها مختلف صيغ (المُنعم) من أنعم وأنعمت وأمثالها من الصّيغ. فإنَّ مرجعيَّة تلك الآيات الوارد فيها هذه الكلمة بمختلف صيغها جميعها، فأساسها نابعٌ من صيغة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الواردة في دعاء الفاتحة، وتابعة لمعنى كلمة الرّبّ بمعنى (المنعم). وبما أنَّ النّعمة منها ما هو ماديّ ومنها ما هو روحيّ، فإنَّ دعاء سورة الفاتحة علّمنا طلب النّعمة الرّوحيَّة التي لا يوازيها شيءٌ ماديّ أيضاً. وهي النّعمة التي تلقّاها النّبيّون والصّدّيقون والشّهداء والصّالحون.

وأخيراً؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال في الآية الثّالثة من سورة المائدة ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ فقد نصّ تعالى في هذه الآية الكريمة على أنَّ من صفاته عزَّ وجلّ (المتمم). وهو المعنى الذي دلّت عليه كلمة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الواردة في دعاء الفاتحة و المعتبرة مرجعاً لهذه الصّفة وأساساً لها أيضاً.

وعليه؛ واستناداً إلى مختلف أقوال النّحويّين وعلماء البلاغة واللّسانيات، فإنَّ الله جلّ شأنه حين أورد كلمة (ربّ) ضمن سباقها وسياقها

من قوله تعالى في أوّل آيةٍ من آيات سورة الفاتحة التي تعتبر خلاصةً أولى لمضامين القرآن الكريم، فإنَّ الله جلّ شأنه يكون قد أتى بهذه الكلمة المذكورة بمنتهى الفصاحة والإعجاز من حيثُ إيراده إياها في المكان المناسب لها، ولتفيد في آنٍ واحدٍ معانيها السّبعة التي اكتسبتها على مرّ ألوف السّنوات من خلال استعمالات العرب لها بالمعاني المتعدّدة المذكورة. وتكون هذه الكلمة (ربّ) قد لخّصت جميع الآيات القرآنيَّة الوارد فيها هذه المعاني السّبعة المشار إليها. وبذلك أكون قد قدّمتُ أوّل مثالٍ من ضمن هذه الخلاصة القرآنيَّة التي هي سورة الفاتحة، وأكون قد أثبتّ من خلال هذا المثال المذكور مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة المعجزة التي امتاز بها هذا الكتاب المقدّس والمبارك على جميع ما عرفته البشريَّة من إنجازات أدبيَّة معروفةٍ في تاريخها الغارق في الزّمان والممتدّ ألوف الأعوام.

مثال ثاني يثبت وجود الخصوصيَّة السّادسة:

والآن؛ أحاول أنْ أقدّم لقارئي العزيز مثالاً آخر مستمداً من سور (جزء عمّ) والذي أنظر أنا إليه على أنَّه خلاصة مطوّلة لسور متن هذا القرآن الكريم أيضاً، وتتبعه سور المعوّذات التي أنظر إليها على أنَّها الخاتمة المصغرة لسور هذا القرآن العظيم. وهذا المثال أستمدّه من كلمة (المطّففين) الواردة في (سورة المطّففين) هذه الكلمة التي تشهد على فصاحتها وعلى دقّة وعظمة انتقائها في هذا الموضع من سورة المطفّفين بالذّات، والتي تثبت امتياز آيات هذا القرآن الكريم بهذه الخصوصيَّة السّادسة المعجزة.

وأوَّل ما نحاوله فهو الإحاطة بدلالات كلمة (المطفّفين). إنَّ هذه الكلمة صيغة جمع ومفردها مُطفّف كاسم فاعل، ومشتقّ من فعل طفّف، فإنْ قلتَ: طفّفَ فلان المكيال تطفيفاً معناه نقصه، وملأه فقط إلى إبصاره، أمَّا إذا قلنا طفّف فلانٌ الوزن، فمعناه نقصه أيضاً، أو قلنا طفّف فلانٌ على عياله، فمعناه قتّر عليهم، فلم ينفق عليهم بسعة، أو قلنا طفّف فلانٌ على فلان، فمعناه أنَّه أعطاه أقلّ ممَّا أخذ منه قيمة (أقرب الموارد) ثمَّ إنَّ كلمة (طفيف) معناها قليلٌ وغير تامّ (محيط المحيط).

فبعد أنْ أحطنا علماً يا عزيزي القارئ بدلالات كلمة (مطفّفين) نعود نتساءل بأيَّة المعاني وردت هذه الكلمة في (سورة التّطفيف) كما نتساءل عن مدى دقَّة الانتقاء والفصاحة التي اكتسبتها هناك في السّورة المذكورة؟ وهل وردت مؤانسةً لسباقها وسياقها وتسلسل الآيات الموضوعيّ وعلى شاكلة حال كلمة (ربّ) الواردة في سورة فاتحة الكتاب؟

فالمستفاد من التّفاسير القديمة هو أنَّ هذه السّورة قد أنزلها الله تعالى في مكّة المكرّمة، وهي حقيقة مال إلى تأييدها المستشرقون أمثال نولدكة وميور، بل ومالوا للقول بأنَّها أُنزلت في السّنة الرّابعة للبعثة المحمديَّة أيضاً. علماً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ كان أنزل هذه السّورة المشار إليها في مكّة المكرّمة وفي وقت كان سيأتي موقعها في ترتيب التّلاوة ضمن سور (جزء عمّ) الذي لخّصت سوره مضامين جميع سور القرآن الكريم. وحدث هذا في أحلك أيام الدّعوة الإسلاميَّة في السّنة الرّابعة في مكّة المكرّمة. . وفي وقتٍ ما كان المؤمنون وغيرهم يدرون شيئاً عن مستقبل الإسلام، ولا عن مستقبل هذا الكتاب

العزيز. ودارت الأيّام وأثبتت بأنَّ هذا الأسلوب في إنزال آيات القرآن الكريم شكّل إعجازاً غيبيّاً أظهر الله جلّ شأنه من خلاله إنجازاً من الإعجاز ما بعده من إعجاز خصوصاً، وأنّه تعالى كان قد عالج في الوقت نفسه ما كان يواجهه رسوله الكريم وصحابته الأبرار من أحوال تصادفهم هناك.

وبعد هذا التّقديم لهذا المثال الثّاني أشرع في الكلام عن انتقاء كلمة (المطّففين) وعن إعجاز فصاحتها ونحن واعين إلى أنّنا نستقي هذا المثال الثّاني من سورةٍ تشكّل جزءاً من (جزء عمّ) المعتبرُ خلاصةً مطولةً لكتاب الله العزيز. فنتساءل أوّل ما نتساءل عن المواضيع القرآنيَّة التي لخّصتها كلمة (المطّفّفين) التي هي محلّ هذا المثال الثّاني الذي نحن بصدده؟

فأوّل ما نلاحظه هو أنَّ كلمة (المطفّفين) لم يوردها الله عزَّ وجلَّ في أيَّة سورةٍ أخرى من سور كتابه العزيز إلاّ في هذه السّورة بالذّات والتي نحن بصددها، فما معنى أنْ تنفرد هذه السّورة بهذه الكلمة، وأنْ ترد في أوّل آية من آياتها، ومقرونة بكلمة (ويل) الذي معناه الدّمار والهلاك للمطفّفين؟ وما معنى أنْ يورد الله تعالى كلمة (المطّففين) معرّفةً بالألف واللام أيضاً؟ فلابُدَّ أنْ يكون هذا التّعريف لهذه الكلمة قد قُصد به الإشارة إلى قومٍ معيّنٍ اشتُهر في أسلوب تعامله مع النّاس بأنّه أسلوب تطفيفٍ أيْ أسلوب محاولة الانتقاص من حقوق النّاس حين العطاء، وحين الأخذ منهم أيضاً.

والملاحظة الثّانية التي نلاحظها، والتي تؤكّد مضمون الملاحظة الأولى هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ عندما راح بعد ذلك يوضّح حقيقة التّطفيف الذي اتّصف

به القوم المشار إليه قال ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

والملاحظ أنّ الله تعالى أورد كلمة (النّاس) في هذه الآية الكريمة معرّفة هي أيضاً بالألف واللام، ولم يوردها نكرةً. الأمر الذي يؤكّد أنّه تعالى يشير من خلال تعريف كلمة (النّاس) إلى قوم معهود وليس إلى أناس عاديين، وإنّ هاتين الملاحظتين تدفعنا للعودة إلى سباق قول الله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ الوارد في سورة (الانفطار) التي وردت قبل هذه السّورة وبترتيب تلاوتها.

فإنْ نحن ألقينا نظرةً فاحصة على سورة (الانفطار) هذه، فالذي يلفت نظرنا هو أنّ الله عزَّ وجلَّ قد استهلّ سورة الانفطار بالظّرف (إذا) المشير إلى ما يُستقبل من الزّمان وما ترافقه من أحداث. وقد راح تعالى يقول: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أقول إنْ نحن انطلقنا في نظرتنا إلى الظّرف (إذا) الذي استهلّت به هذه الآيات الأوائل من سورة الانفطار نُدرك بأنَّ تلك الآيات الكريمة قد وردت متضمّنةً نبوءات مستقبليَّة، وأرى أنَّها أشارت في حقيقة أمرها إلى الزّمان الذي ستظهر فيه الأمَّة التي استعمل الله عزَّ وجلَّ لها كلمة (المطفّفين) والتي أنذرها الله تعالى بالويل والثّبور وقال ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ وذلك في سورة التطفيف.

ألا إنَّ هذه الحقيقة التي انتبهنا إليها تدفعنا إلى محاولة فهم قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ فالسّماء يقصد بها كلّ شيءٍ ماديٍّ علاك وخيّم فوقك، ويشار بكلمة سماء إلى سقف الدّار وإلى الكواكب في السّماء

وإلى كل ما علاك، واستناداً إلى هذه المعاني فمن المعلوم أنَّ السّماء الماديَّة لا تنفطر، وهذا من باب أنَّ كلمة الانفطار اشتُقّت من انفطر الشّيء ومعناه انشقّ؛ حيثُ تقول انفطرت الحطبة التي بين يديّ، بمعنى أنَّها انشقّت، ولم تعد متماسكة. ومادام المعنى الماديّ لألفاظ قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ قد انتفى فإنَّ هذا الانتفاء يُشكّل قرينةً تنقلنا لنفهم معنى كلمة (انفطرت) بدلالتها المجازيَّة. لذلك نسأل هنا: هل أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استعمل كلمة (انفطر) في أيٍّ من آيات كتابه العزيز وبمعناها المجازيّ؟

ونعثر على الإجابة في الآية 88 - 95 من سورة مريم التي راح تعالى يقول فيها بحقّ النّصارى الذين اتَّخذوا لله ولداً: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾. فقد استعمل الله جلّ شأنه في هذه الآيات فعل (يتفطّرن) بصيغة المضارع، وليس بصيغة الماضي (انفطرت)، ومقروناً بفعل المضارع (تكاد)، وليس بالظّرف (إذا) علماً بأنَّ فعل (تكاد) هو من أفعال المقاربة التي تفيد معنى مقاربة وقوع الشّيء المتكلّم عنه. والنّتيجة التي نحصل عليها ممَّا فعلناه هو أنَّ فعل (انفطرت) كان قد استعمل في متن القرآن الكريم بمعنى المقاربة ومقروناً بالقوم الذين قالوا اتَّخذ الله ولداً. على حين ورد صيغة فعل (انفطرت) في سورة الانفطار مقروناً بالظّرف الدّالّ على الزّمان المستقبل. ومقروناً

بعلاماتٍ تحدث في الزّمان المستقبل الذي سيحدث فيه هذا الانفطار. وهذه النّتيجة التي خرجنا بها تعني بألفاظٍ أخرى أنَّ سورتي (الانفطار والمطفّفين) قد اختصرتا المواضيع التي بحثها متن القرآن بشأن النّصارى، وبما يتعلّق بعقيدتهم الباطلة، وعمّا هو مقدّرٌ بشأن مصيرهم الذي سيؤولون إليه في نهاية المطاف.

فمن خلال هذا نستدلّ على علامات دلّتنا عليها آيات سورة الانفطار، وتتعلّق بزمن تلك الأحداث المقبلة، فمن تلك العلامات ما نصّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ وإنَّ مضمون هذه النّبوءة قد تحقّق في زماننا هذا، وعلى صورة لم يسبق لها مثيل. وقد تحقّقت على أيدي الأمم النّصرانيَّة ذاتها أيضاً. وهو أنَّ هذه الأقوام النّصرانيَّة الغربيَّة برعت في البحث عن آثار الأمم الماضية، ولم يتورّع علماؤها في سبيل تحقيق أهدافهم هذه عن محاولة نبش قبور الموتى وبعثرة ما في القبور وإلى درجةٍ عادت معها بقيَّة الأمم تسير على نهجهم وتقلّدهم فيما يفعلونه تقليداً أعمى.

والعلامة الثّانية الدّالّة على زمن تلك الأحداث المقبلة هي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ وإنَّ فعل (فُجّرت) اشتقّ من فجّر الماء، ويعني فتح له طريقاً ليتفجّر الماء من خلاله. وعليه؛ فإنَّ عمليَّة تفجير البحار معناها فتح طريق ضمن الأراضي التي تحول دون جريان مياه الأنْهار. والمعلوم أنَّه قد فُتحت في زماننا هذا قناتان كبيرتان على أيدي وبتحريض الأمم الذين قالوا اتَّخذ الله ولداً. وهاتان القناتان هما ترعة (السّويس) التي حُفروها وفجّروها لتلتقي بسبب حفرها مياه البحر الأبيض المتوسط بمياه

البحر الأحمر والهندي. والتّرعة الثّانية هي ترعة (بناما) التي حفروها وفجّروها لتلتقي مياه الأطلسي بمياه البحر الهادي. وعليه؛ فقد تحقّقت هذه العلامة الثّانية في زماننا أيضاً وعلى أيدي الأمم الغربيَّة النّصرانيَّة الذين اتَّخذوا لله ولداً.

والعلامة الثّالثة الدّالّة على زمن تلك الأحداث المقبلة والمُتعلِّقة بالذين اتَّخذوا لله ولداً تضمّنها قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾. فكلمة الكواكب جمع كوكب، وللكوكب معاني كثيرة، وإنَّ كلمة (النّجم) تعتبر من أحد تلك معاني كوكب. والملاحظ هو أنَّ كلمتي (نجم وكوكب) تُستعملان في زماننا هذا بدلالتيهما الحقيقيَّة والمجازيَّة، فيقال أمّ كلثوم كوكب الشّرق على سبيل المثال. وإنَّ كلّ عالم مهما كان اختصاصه فإذا بلغت شهرته الآفاق يسمّونه نجماً أو كوكباً.

وتتضمّنُ هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ علامة أخرى تبعاً لمعنى آخر يفيده كلمة (كوكب ونجم) وتتعلّق بهذا القوم المشار إليه في هذه الآيات الكريمة. فأنت تقول: انتثرت أوراقي على الأرض، والمعنى أنَّها سقطت منتشرة هنا وهناك. ومعلوم أنَّ الشّيء الذي ينتثر تضيع مكانته وترتيبه وقوته. وعليه؛ فإنَّ قوله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ قد تضمّن علامة أخرى من علامات الذين اتَّخذوا لله ولداً وهو أنَّهم لا يعودون يُعطون أهل الاختصاصات العلميَّة (الكواكب) في فنونهم مراكز سيادةٍ في مجتمعاتهم. بل يعطون هذه المراكز لرجال السّياسة، وهي ظاهرةٌ باتت واضحةً في المجتمعات الغربيَّة. فالعالم يُستفاد من علمه؛ لكنَّه لا يستفاد منه

على الصّعيد السّياسي، بل يكون تابعاً للتّكتّلات الحزبيّة. ولذلك؛ فإنَّ علماء الذّرّة الأوروبيين على سبيل المثال احتجّوا على استعمال رجال السّياسة الذّرّة الماديَّة لصنع الأدوات الحربيّة، وحاولوا توجيه المسؤولين لاستعمال الذّرّة واكتشافاتها في صالح الإنسان والسّلم والاستقرار، وليس للقتل والتّدمير. لكنَّ السّياسيين عتّموا على تلك المطالبات، وسخّروا ما تحقّق على أيدي العلماء من هذه الاكتشافات لبناء أدوات حرب ودمار.

فإنْ نحن أخذنا بمعطيات هذه النّبوءات التي تضمّنتها هذه الآيات الأوائل من سورة الانفطار يا عزيزي القارئ بعين الاعتبار والدّالّة على زمن هيمنة الأمم النّصرانيَّة الذين قالوا اتَّخذ الله ولداً. وإنْ نحن أخذنا بعين اعتبارنا أيضاً ما توعّدَ الله جلّ شأنه به تلك الأمم يومئذٍ بالويل والثّبور. فإنَّ هذا يساعدنا على فهم مضمون أوّل آيةٍ من آيات (سورة الانفطار) التي ورد فيها قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ ولتعني هذه النّبوءة بأنَّ الله عزَّ وجلَّ على حين كان ادّعاء هؤلاء بأنَّ الله تعالى اتَّخذ ولداً قد أثار فيما مضى غضبه عليهم. فإنَّ الله جلّ شأنه ينبّه أذهاننا هنا إلى أنَّ غضبه على تلك الأقوام سيبلغ ذروته في آخر الزّمان، وهو زماننا الذي تحقّقت فيه نبوءات سورة الانفطار.

وإنَّ ما يؤكّد صحّة ما ذهبنا إليه آنفاً، هو أنَّ الله تعالى قد راح يخاطب تلك الأمم المنبأ عنها والمغضوب عليها من هؤلاء الذين اتَّخذوا لله ولداً، ومعتبراً إيّاهم فصيلاً واحداً وجنساً واحداً، لذلك خاطبهم بصيغة المفرد وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

فَعَدَلَكَ﴾ أي أنَّ الله تعالى قد قصد من كلمة (الإنسان) هنا معرّفة بأداة التّعريف العهديَّة المنبأ عنها، وليصبح المعنى أنْ يا مَنْ تدّعون الإنسانيَّة من الأمم الذين اتَّخذوا لله ولداً، وتحملون على عاتقكم مسؤوليَّة الدّفاع عن حقوق الإنسان ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ففعل (غرّ) اشتقّ من قولك غرّ فلانٌ فلاناً والمعنى خدعه وأطمعه بالباطل. كما تقول ما غرّك بفلانٍ والمعنى ما الذي جرّأك عليه. فالله عزَّ وجلَّ يخاطب هنا أيضاً تلك الأمم المشار إليها ويقول لهم: مادمتم تدّعون الإنسانيَّة وتدافعون عن حقوق الإنسان فما هو الذي دفعكم لتنسوا حقوق الله خالقكم عليكم، وهو الذي أمهلكم، وفسح لكم المجال لتنهضوا نهضتكم الحديثة التي انتهكتم فيها حرمة القبور، وأنزلتم علماء زمانكم عن مستوى منزلتهم التي يستحقّونها، وعملتم خلاف إرادتهم، فصنّعتم آلات الحرب والدّمار الرّهيبة، ووصلتم البحار بعضها ببعضها الآخر، فتناسيتم ما كنتم عليه في القرون الوسطى، بل وتجرّأتم على الله جلّ شأنه نفسه، فاتَّخذتم لله ولداً ظلماً وجوراً فلم تنفعكم نهضتكم للعودة عن هذا الافتراء عليه سبحانه، وما عدتم تصغون لصوتٍ سماويٍّ مهما يكون مصدره بسبب ما ركبكم من غرور وكبرياء. فهذه الدّلالات كلّها تضمّنها قول ربّنا هنا وهو يخاطب هؤلاء الذين اتَّخذوا لله ولداً وقائلاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾

وقد استهلّ الله جلّ شأنه بعد ذلك كلّه بقوله (كلاّ) هذه التي هي في نظر سيبويه والخليل والمبرد والزّجّاج وأكثر البصريّين أنَّه حرف ردع وزجرٍ ولا معنى لها عندهم إلاّ ذلك، وورد في الكلّيات أنَّها للزّجر والرّدع وبمعنى

(حقّاً). والمعنى هو أنَّ الله تعالى بعد أنْ ذكّر تلك الأمم المغضوب عليهم بأفعالها المشينة أخذ يزجرهم ويردعهم ويقول: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أنَّه تعالى قد أتى بحرف الرّدع والزّجر ليزجرهم وينفي حقيقة انتسابهم الذي ينتسبون إليه وهو (المسيح النّاصري) الذي يبرأ أمام ربّه تعالى منهم ومن أفعالهم. وليؤكّد لهم كونهم ملحدين غير مؤمنين بوجود يوم الدّنيويَّة بعد الموت، وأنَّ مبادئهم وفلسفاتهم لا تمتّ إلى الدِّين بصلةٍ من الصّلات. وهو يلفت نظرهم إلى أنَّ ما يفعلونه يوثّقه ملائكة الله تعالى وتقنيّاته الذين يعلمون ما تفعله هذه الأمم المطفّفون المشار إليهم في سورتي (الانفطار والمطفّفين) أي في سورتي القرآن هاتين اللّتين لخّصتا ما تكلّمت به عنهم سور القرآن المجيد.

وقد راح الله تعالى ينذرهم في الآيات الأخيرة من سورة الانفطار ويقول: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ وقد سمّى الله عزَّ وجلَّ هذه الأمم المتّخذة لله ولداً وخاصَّةً منهم مَنْ يعاصرون تحقُّق تلك النّبوءات التي استهلّت هذه السّورة بالإشارة إليهم سمّاهم: (فُجّاراً) وأنَّ أحوالهم التي يكونون عليها هي أحوال أهل الجحيم، وأنَّهم سيُصلون الجحيم يوم الدِّين، ولن يكونوا عن تلك الجحيم التي سيصلونها بغائبين.

علماً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استعمل مصطلح ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ الوارد ذكره في هذه الآيات تارةً للتّعبير به عن يوم الدّنيويَّة والحساب القادم بعد الموت. وأورده تارةً ثانيةً متحدّثاً من خلاله عن واقعة جحيمٍ ستنزل بالأمم

المشار إليها في الزّمن الذي يتمُّ فيه تحقُّق النّبوءات الأربعة سالفة الذّكر.

ولذلك لاحظنا بأنَّ الله جلّ شأنه قد راح يصف للقارئ هول تلك الواقعة الجهنميَّة والمقدّر أنْ تحلّ بهم وقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾. بمعنى أنَّ غضب الله تعالى على الأمم المذكورة سيبلغ يومئذٍ ذروته أولئك الذين زعموا أنَّ الله اتَّخذ ولداً، وراحوا يُعربدون يوم تحقّق هذه النّبوءات، ولذلك؛ فإنَّ الله تعالى سيتدخّل، ولا تعود تملك يومئذٍ (نفسٌ لنفسٍ شيئاً)، وسينفّذ فيهم أمر الله عزَّ وجلَّ.

فهذه الحقائق التي زوّدتنا بها آيات سورة الانفطار تكون قد شكّلت يا عزيزي القارئ سباق قوله تعالى وهو يستهلّ سورة المطّففين ويقول ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ وإنَّ هذا السّباق يساعدنا على إدراك دلالة كلمة (ويلٌ) التي تضمّنها قوله تعالى ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾. كذلك ساعدنا على تعيين القوم المقصود المنذر بالويل والمتّصف بصفة المطفّفين. وأنَّ وقوع ذلك الويل بهم سيفضحهم أمام جميع النّاس؛ لأنَّ من جملة معاني الويل (الفضيحة)، وهو معنى أورده معجم (محيط المحيط).

والآن؛ وقد فرغنا يا عزيزي القارئ من الإحاطة علماً بما اشتمل عليه سباق قول الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ ننتقل إلى محاولة الإحاطة بدلالات سياقه أيضاً، وليمكننا ذلك كلّه من الإحاطة علماً بأيَّة المعاني أورد تعالى هنا كلمة (مطفّفين) وفي هذا المقام خاصَّة.

أفلا يُلاحظ القارئ كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد راح يفضح هؤلاء النّصارى ويقول بعد هذه الآية الأولى ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فهو سبحانه وتعالى قد نبّه أذهاننا من خلال هذه الآيات الكريمة إلى صفتين بارزتين سيتّصف بهما هؤلاء الذين قالوا اتّخذ الله ولداً والذين سيعاصرون زمن ما أفادته نبوءات سورة الانفطار. وأنَّ الصّفتين المشار إليهما ستتجلّيان من خلال تعاملهم مع سواهم من الأمم بكلّ وضوح، ويشهد على حدوثها جميع أهل الأرض، ويستحقّون بذلك أنْ يستعمل لهم وصف (مطفّفين) وكما هو واردٌ في هذه الآية الكريمة.

ومادمنا قد عاصرنا هذه الأقوام المسيحيَّة المشار إليها في هاتين السّورتين اللّتين تشتملان على خلاصة ما أورده الله عزَّ وجلَّ في مختلف سور المتن القرآني من مضامين تتعلّق بهذه الأقوام المشار إليها. فقد عاد بإمكاننا ملاحظة هاتين الصّفتين المذمومتين اللّتين اتّصف بهما هؤلاء من خلال تعاملهم مع بقيَّة أمم الأرض.

أفلا يُلاحظ القارئ الكريم ما يجري حوله في أيامنا هذه من احتجاجاتٍ ومظاهرات حول الأمكنة التي يعقد أعضاء البنك الدّولي مؤتمراته؟ وهذا البنك الدّولي تأسَّس في حقيقة أمره على أيدي نفرٍ من الأعضاء الذين ينتسبون لما يسمّونه نادي باريس. ويجمع هذا النّادي أكبر الأثرياء في العالم المسيحيّ الغربيّ. فإنْ تساءل المرء: ومن أين جمع هؤلاء

أموالـهم؟ فـالجواب إنَّـهم جمعـوا أموالـهم مـن خـلال اتّصافـهم بـالصّفتين المذمومتين المنصوص عليهما في هذه الآيات الأوائل من سورة المطفّفين وهـو قول الله جلّ شأنه بحقّهم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟

فلمّا أصل بك يا عزيزي القارئ إلـى هـذا الحدّ مـن البيـان تطـالبني أنْ أفسّر لك هاتين الآيتـين بمنهجيَّـة القـرآن الكريـم وأصـول تفسيره فـأقول: إنَّ كلمـة (اكتـالوا) اشـتقّت مـن قولـك: كـال فـلانٌ الطّعـام وغـيره يكيلـه كيـلاً ومكيلاً، فهو فعلٌ من الأفعـال الشّاذة. إذ المصـدر مـن وزن فعـل يفعـل هـو فعْل أي مكال، وليس كيلاً. فهذا ما نبّه إليه معجم (محيـط المحيـط). ثـمَّ إنَّ قولـك كـال الطّعـام معنـاه حقّق مقـداره بواسـطة آلـةٍ مُعقّـدة لذلـك كالصّـاع والذّراع ونحو ذلك. وقد يتعدّى فعل كال إلى مفعولين؛ حيثُ يقـال: كلـتُ زيداً طعامه وقد تدخل اللام على مفعـول كـال فيقـال: كلـتُ لزيـد طعامـه. وعليه؛ فكال الشّيء بالشّيء معناه قاسه به، ففعل كال يستعمل نسـبةً للـذي يدفع بواسطة المكيال. كما يستعمل للذي يأخذ كيله. وهي معـاني وضّحـها اللُّغويون في مُؤلّفاتهم. ومادام الله عزَّ وجلَّ قد قال في الآيـة الأولـى ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ فقد أشار إلى مبدأ الأخذ من النّاس. وقـد حذف جلّ شأنه مفعـول يسـتوفون، فلـم يوضّـح مـاذا يسـتوفون. ومـادامت هذه الآية الكريمة قد أوردهـا الله عـزَّ وجـلَّ في معـرض ذمّـه للمطّففـين المقـدّر عليهم الويل والعذاب والفضيحـة. فيكـون القصـد مـن قولـه تعـالى بحقّـهم

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أنَّهم لا يستردّون حقوقهم بعدل وإنصاف، بل يستردّونه وفق هواهم، وبما يتناسب مع أهوائهم الشّخصيَّة، وليس وفق مشيئة المديونين. وبألفاظ أخرى، فإنَّ ما يستوفونه من دائنيهم لا يستند إلى مبدأ العدالة ولا التّشاور والحوار، ويتجاوزون بذلك القيم الأخلاقيَّة والقوانين المعمول بها بين النّاس. أي أنَّهم يتعاملون مع النّاس من دون أيّ وازعٍ من شفقةٍ أو عدالة.

ثمَّ إنَّ الملاحظ هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أورد كلمة (النّاس) في هذه الآية الكريمة معرّفةً بالألف واللام وبمعنى الاستغراق، ولتشمل هذه الكلمة جميع الأمم الأخرى غير تلك الأقوام. علماً بأنَّه تعالى أورد كلمة (النّاس) هنا عوضاً عن كلمة المديونين. وقد كان القصد من ذلك تنبيه أذهاننا إلى أنَّه تعالى قد قصد بفعل (اكتالوا) التّعامل الدّوليّ، وليس التّعامل الفرديّ. وهذه الحقيقة تعني بألفاظٍ أخرى أنَّه ستكون لهذه الأقوام التي اتَّخذت لله ولداً الغلبة والهيمنة والسّيطرة يومئذٍ على الصّعيد الدّولي. فهذا ما يُستنبط هنا من إيراد كلمة (النّاس) في هذا المقام.

هذا؛ فإنْ أنتَ عُدت يا عزيزي القارئ إلى ما يجري في أيّامنا هذه من أفعال من قِبَل الأمم الغربيَّة المشار إليها في هذه الآيات الكريمة بصيغٍ بلاغيَّة معجزة تتجلّى لعينيك إعجاز وعظمة مضمون هذا الكلام الإلهيّ الذي صدّقته أفعال تلك الأمم الغربيَّة المسيحيَّة المعاصرة. تلك الأمم التي استعمرت مختلف بقاع الأرض، وجمعت من كنوز الدّول المستعمرة ما جمعته من أموال شكّلت منها نادي باريس والبنك الدّوليّ. وراحت بالتّالي

في هذه الأيام تتحكّم في مصائر شعوب الدّول التي سبق أنْ كانت قد استعمرتها، ونهبت أموالها.

وعليه؛ فإنَّ قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ إنَّ قوله تعالى هذا قد تضمّن هذه المعادلة التي باتت الشّعوب الغربيَّة المسيحيَّة تعمل وفقاً لمعطياتها. فتلك الأمم تُقرض الدّول الفقيرةً والمحتاجة من جرّاء ماضيها معها. وتفرض على الذين تُقرضهم ما تسمّيه (فوائد الدّيون المستحقّة) وبنسبة مئويَّة فرضتها عليهم حين عمليَّة الإقراض.

وأمَّا على صعيد المبيعات، فإنَّ الدّول الغربيَّة المذكورة قد احتكرت صنع الأدوات الحربيَّة القتاليَّة والدّفاعيَّة. فإذا باعت غيرها من الدّول الأسلحة التي تصنّعها تفرض الأسعار التي تشاء والتي تتجاوز الحدود الطّبيعيَّة والمعقولة، وبذلك يتحقّق قول الله عزَّ وجلَّ بشأن هؤلاء المطفّفين ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ وهي الحقيقة التي تتجلّى من خلال تعاملهم مع غيرهم من النّاس على الصّعيد الاقتصاديّ سواءً على صعيد المشاريع الاقتصاديَّة التي تؤسّسها في بُلدان الدّول المحتاجة، وسواءً على صعيد مبيعات القمح وسواها من أنواع المبيعات الأخرى.

وهكذا؛ فإنَّ الأمم الغربيَّة المعاصرة التي اتَّخذت عقيدة أنَّ المسيح البشر هو ابن الله، وابتدعت الثّالوث المعروف، والتي تجرّأت على خالقها، وعملت ليل نهار لتهيمن على مصائر البشريَّة، ولتجرّهم بهذه الوسيلة إلى الاعتقاد بهذه العقيدة التي وضّحتها الآية 80 من سورة مريم وحسبما سبق

لنا أنْ ذكرناه. فمن خلال هذه الخطوة الأخيرة التي تخطوها الأمم الغربيَّة المعاصرة لنا ولترسيخ عقائدها الباطلة في العالم وعلى النّحو الذي أتينا على ذكره ووضعته الآيتان الثّانية والثّالثة من سورة التّطفيف، هذه الخطوة الأخيرة التي نتحسّسُ مجريات تأثيراتها في أيامنا هذه. إنَّ هذا كلّه هو الذي أكمل غضب الله تعالى على الأقوام المذكورة، ودعته جلّ شأنه ليبنئ في هذه السّورة متوعّداً هؤلاء بالويل والعذاب وبافتضاح أمورهم، وليستهلّ هذه السّورة وبكلّ جلالٍ وهيبة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

وعلى حين كان الله عزَّ وجلَّ قد قال في سورة الانفطار بحقّ هؤلاء ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ وسمّاهم (فجّاراً) أيضاً من خلال قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾. فقد راح الله جلّ شأنه يكرّر هنا في سورة المطفّفين الحرف (كلاّ) الذي يفيد الرّدع والزّجر وأنبأ وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ولا أرى بي من حاجة هنا لشرح هذه الآيات الكريمة التي صوّرت للقارئ مبلغ الغضب الإلهي الذي بلغ أشده. هذه الآيات التي باتت توضّح للقارئ مضمون دلالة كلمة (ويل)، هذا المدلول الذي سيحلّ بتلك الأقوام

المشار إليها، والتي ضجّت شعوب الأرض كافة في أيّامنا هذه من مخطّطاتها الرّهيبة ومن أفعالها الشّنيعة.

لذلك؛ نعود للكلام عن هذه العمليَّة التي أجراها الله تعالى من خلال قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي عمليَّة انتقاء الله عزَّ وجلَّ لكلمة (المطفّفين)، وعن مدى دقَّة انتقائها وفصاحتها في هذا الموضع بالذّات، وبهذا الإعجاز الذي جمع ما بين جميع دلالات كلمة (مطفّفين) الواردة في معجم: (محيط المحيط) ومعجم (أقرب الموارد). وعليه؛ فإنَّ الإنسان العاديّ حين يقرأ قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فإنَّه لا يفهم منه إلاّ ظاهره، وهو الزّجر عن الإقدام على عمليَّة التّطفيف. لكنَّ المؤمن الذي يتدبّر هذه الآية الكريمة وما قبلها وما بعدها من آيات بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره وبدون الأخذ منها بما يتبادر لذهنه فإنَّه يصل إلى ما توصّلنا إليه. لكنّ هذا المفسّر الذي يأخذ هنا بما يتبادر من هذه الآية الكريمة إلى ذهنه وكحال العلاّمة الفخر الرّازي رحمه الله تعالى الذي تصدّى لتفسير قول الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وكتب يقول:

(اعلم أنَّ اتّصال أوَّل هذه السّورة بآخر السّورة المتقدة ظاهر. لأنَّه تعالى بيّن في آخر تلك السّورة أنَّ يوم القيامة يومٌ من صفته أنَّه لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر كلّه لله. وذلك يقتضي تهديداً عظيماً لكل عاصي، فلهذا أتبعه بقوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد الزّجر عن التّطفيف. وهو البخسُ في المكيال والميزان بالشّيء القليل على سبيل الخفية. وذلك لأنَّ الكثير يُظهر فيمنعُ منه. وذلك القليل إنْ ظهر أيضاً منع منه فعلمنا أنَّ التّطفيف هو البخسُ في المكيال والميزان بالشّيء القليل على سبيل الخفية). فهل أتى

الرّازي رحمه الله تعالى بمعنى يزيد عمّا يتبادر من هذه الآية الكريمة لذهن الإنسان العاديّ؟ على حين أنَّه تبيّن لنا بعد تدبّرنا لهذه الآية بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره تبيّن أنَّ الله عزَّ وجلَّ وإنْ استعمل هذه الكلمة (المطففين) بدلالاتها اللُّغويَّة جميعها. إلاّ أنَّه تعالى أضفى عليها معنىً جديداً، وهو معنى التّحكّم بالشّاري المستدين ووفق مشيئة المطفّف، وبعيداً عن الرّحمة والعدل والإنصاف أثناء التّعامل. بسبب أنَّه تعالى أورد هذه الكلمة في معرض الذّم. بالإضافة إلى أنَّ الذي يراجع كتاب الله من أوَّله إلى آخره لا يعثر على كلمة (المطّففين) إلاّ ورودها في هذه الآية بالذّات. وقد استعملها جلّ شأنه بمعنى مقصودٍ هو غير المعنى الذي يتبادر منها للذهن القارئ وعلى حسب ما وضّحناه. فالكلمة (المطفّفين) وردت في غاية الانتقاء والفصاحة، وهي مؤانسةٌ سباقها وسياقها. الأمر الذي يثبت وجود هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة المعجزة التي قدّمنا على مصداقيّتها مثالين إلى الآن، وعلى هذه الصّورة، فقد عاد يحقّ لنا القول بأنَّ هذا المثال الذي استقيناه هنا من السّور التي لخّصت مضامين سور القرآن المطوّلة للتّدليل به على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة السّادسة القرآنيَّة المعجزة، فإنَّه يكفي لإثبات هذه المصداقيَّة المذكورة إضافةً إلى جانب المثال الذي استقيناه من قبل من كلمة (ربّ) من سورة فاتحة الكتاب.

مثال ثالث يثبت وجود الخصوصيَّة السّادسة:

والآن؛ آخذ بيدك يا عزيزي القارئ لأقدّم لك مثالاً أو أكثر من خلال كلمات سور المتن القرآني وعلى قدر ما يوفّقني إلى ذلك الله عزَّ وجلَّ.

والذي فعلته لتقديم هذا المثال الجديد أنّي دعوت ربّي ليوفّقني، فيدلّني عليه، وفتحتُ القرآن المجيد لا على التّعيين، فوقعت عيني على كلمة (صلصال) هناك، فراجعت حينئذ معجم ألفاظ القرآن الكريم، وقد تبيّن لي ورودُ هذه الكلمة أربع مرات فيه فقط. فالمرَّة الأولى وردت كلمة (صلصال) في سورة الرّحمن حين راح الله تعالى يلفت نظرنا إلى إحدى عجائب صنعه؛ حيثُ قال في الآية (14) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. كما وردت كلمة (صلصال) ثلاث مرّات في الآيات 26 / 33 من سورة الحجر؛ حيثُ قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. ومن المناسب يا عزيزي القارئ أنْ أفعل هنا ما فعلناه حين قدّمنا الأمثلة السّابقة. نطرح أسئلةً ونُجيب عنها بمنهجيَّة القرآن وأصول تفسيره.

فالسّؤال الأوَّل الذي نسأله هو ما معنى كلمة (صلصال) لغوياً؟ والسّؤال الثّاني: هل أنَّ الله عزَّ وجلَّ استعمل هذه الكلمة في هذه الآيات بمعناها الحقيقيّ أم أنَّه تعالى استعملها بمعناها المجازي؟ والسّؤال الثّالث الذي يمتُّ إلى هذه الخصوصيَّة السّادسة التي نحن بصددها هو: ما مدى دقَّة

وفصاحة المعاني التي استُعملت فيها كلمة (صلصال)؟ فإنْ نحن أجبنا عن هذه الأسئلة الثّلاثة إجابات صحيحة ومعقولة نصل إلى ما نريد.

وللإجابة عن السّؤال الأوّل نراجع معاجم اللُّغة. فقد تضمّن معجما (محيط المحيط وأقرب الموارد) المعاني التّالية: وهي أنَّ كلمة (صلصال) اشتُقّت من قولك صلصل الشّيء ومعناه صوّت. أو قلت: صلصل الحُليّ فمعناه صوّت أيضاً. كذلك؛ فالصّلصال يُطلق على طينٍ حُرٍّ خُلط برمل. فما لم يُشو ويصير خزفاً وتُرك ليجفّ ليبلغ درجة إرجاع الصّوت بمجرّد حكّة أو النّقر عليه، فيصحّ استعمال له كلمة صلصال.

ونتوجّه الآن للإجابة عن السّؤال الثّاني لنعلَمَ: هل استعُملت كلمة (صلصال) في الآيات القرآنيَّة التي أوردناها بمعناها الحقيقي أم أنَّها استُعملت بمعناها المجازي؟ ونراجع في بداية الطّريق ما كتبه المفسّرون القدماء رحمهم الله بهذا الشّأن وخاصّة منهم التّفسير الكبير للفخر الرّازي رحمه الله. فالعلاّمة الفخر الرّازي كتب يقول:

(ولقد خلقنا الإنسان إشارةً إلى ذلك الإنسان الأوَّل. والمفسّرون أجمعوا على أنَّ المراد منه هو آدم عليه السّلام. ونُقل في كتب الشّيعة عن محمد بن علي الباقر أنَّه قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر. . والأقرب أنَّه تعالى خلق آدم أوّلاً من طينٍ فصوّره، وتركه في الشّمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف، ولا يدري أحدٌ ما يُراد به، ولم يروا شيئاً من الصّور يشبهه، إلى أنْ نفخ تعالى فيه الرّوح. وحقيقة

الكلام أنَّه تعالى خلق آدم من طينٍ على صورة إنسانٍ، فجفّ، فكانت الرّيح إذا مرّت به سُمع له صلصلةٌ، فلذلك سمّاه الله تعالى صلصالاً).

فمن خلال ما اقتبسناه من أقوال الفخر الرّازي رحمه الله يتبيّن لنا بأنَّ الرّازي وغيره من المفسّرين القدماء نظروا إلى كلمة (صلصال) بمنظار معناها الحقيقي الذي أورده اللُّغويون. فلم يخطر ببالهم رحمهم الله تعالى أنْ يُراجعوا المعنى المجازي لكلمة (صلصال) الواردة في قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ خصوصاً وأنَّهم كانوا يجهلون منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

لكنّنا وقد منَّ الله تعالى علينا بهذا العلم اللازم لتفسير آيات هذا الكتاب المقدّس والمبارك تفسيراً يكشف لنا عن واسع دلالات آياته الكريمة. فإنَّنا نعرض عمّا ورثناه من أقوال المفسّرين القدماء رحمهم الله، ونقوم بتدبّر هذا الآية الكريمة من سورة الحجر بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. وننظر فيما توصّلنا إليه، ونحكم في هذا الموضوع العائد لكلمة (صلصال).

فأوَّل ما يتوجّب علينا عمله هو تفحّص دلالات سباق هذه الكلمة (صلصال) وهي واردة في الآية المذكورة. فإنْ نحن فعلنا ذلك يتراءى لنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال قبل هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. فإنْ نحن أضفنا إلى ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استهلّ سورة الحجر هذه بالأحرف المقطّعة ﴿الٓر﴾ وقد أثبتُّ في مُؤلَّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم، أنَّها تعني (أنا الله أرى) فقد كان

القصد منها ليشير الله تعالى بذلك إلى أنَّه جلّ شأنه سيبيّن في سورة الحجر واسع رؤيته تعالى الغيبيَّة التي تشمل الماضي والحاضر والمستقبل. بالإضافة إلى أنَّه جلّ شأنه يُوجّه خطابه إلى كلّ مَنْ كفر بهذا الدِّين الإسلامي الحنيف. وعلى حسب ما دلّت عليه الآيات الأوائل من هذه السّورة وهو قوله تعالى ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ إلى أنْ أتى تعالى بقوله الذي نحن بصدده قائلاً ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. فنستنتج من جميع ما علمناه بأنَّ موضوع هذه السّورة لم يُخصصه الله تعالى ليتكلّم فيه عن خلقِ الإنسان الأوّل، بل خصّصه ليستعرضَ لنا تاريخ هذا الإنسان وتطوُّره. فقوله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ فقد أشار به تعالى إلى واسع رؤيته لتاريخ هذا الإنسان والمُتعلِّق بما قبل زمن بعثة آدم عليه السّلام الذي أحدث تعالى على يديه أعظم قفزةٍ نوعيَّة في تاريخ البشر. وإنَّ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فقد أشار تعالى به إلى الأمم التي جاءت بعد بعثة آدم عليه السّلام ومنها أولئك الذين يتكلّم الله تعالى عنهم، وهم الذين كفروا بهذا الدِّين الإسلامي الحنيف. وإنَّ دلالات هاتين الآيتين الكريمتين شرحتهما في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره) فليُرجع إليه.

ونستنتج من ذلك كلّه بأنَّ المفسّرين القدماء رحمهم الله ما فهموا مضمون سباق الآية التي نحن بصددها وهي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ والوارد فيها كلمة (صلصال). وتبادر

لأذهانهم من هذه الآية وهذه الكلمة المذكورة خطأ بأنَّ الله تعالى يتكلّم في هذه الآية الكريمة عن خلق أوَّل إنسان على سطح الكرة الأرضيَّة. ولربَّما خدعتهم كلمة(خلقنا) هذه الواردة في هذه الآية الكريمة. لذلك كان من واجبنا الإحاطة بدلالات كلمة (خلقنا) فما هي دلالاتها؟ أقول: إنَّ هذا الفعل اشتُقّ من قولك خلق الله الأديم، ومعناه قدّره قبل أنْ يقطعه. فإذا قطعه تقول: فراه. أمَّا إذا قلت خلق الله تعالى الشّيء فمعناه أنَّه تعالى أوجد هذا الشّيء وأبدعه على غير مثالٍ سابق. فإنْ قلتَ فلانٌ خلق الإفك، فمعناه افتراه. أو قلتَ خلق الأديب الكلام فمعناه صنعه وألّفه.

أو قلتَ: خلق فلانٌ العود فمعناه سوّاه. وإنَّ صيغة الخالق هي صيغة اسم فاعل، فالخالق هو صانع الأديم ومُبدع الأشياء على غير مثالٍ سابق. فإنْ نحن نسبنا كلمة الخلق للإنسان تعود تُفيد هذه الكلمة (خلق) التّقدير أو افتراء الكذب (محيط المحيط).

والآن؛ لنستعرض يا عزيزي القارئ ما حمله إلينا سباق هذه الآية التي نحن بصددها بالإضافة إلى ما دلّت عليه كلمة (خلقنا) من معاني ودلالات، وبالإضافة إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ حين استهلّ هذه الآية الكريمة بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ استهلّه بحرف الابتداء (لقد) إلى جانب أنَّهُ لماذا وردت كلمة (إنسان) معرّفةً بالألف واللام. ولماذا لم يورد تعالى في هذه الآية الجار والمجرور ﴿مِن قَبْلُ﴾ على حين أنَّه أوردها في الآية التي بعدها. فإنَّ جميع هذه القرائن تؤكّد وتعطي هاتين الآيتين معنى الشّموليَّة، وليس

معنى التّخصيص. هذه الشّموليَّة التي تشمل جميع البشر، ولا تشمل الكلام عن خلق أوَّل إنسان وحسب، وكما ذهبت إليه أذهان المفسّرين القدماء.

واستناداً إلى ذلك كلّه فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فقد لفت أنظارنا إلى حقيقة ما روعيَ من جملة ما روعيَ من أمور وحقائق عند إبداع الله عزَّ وجلَّ هذا المخلوق الذي سمّاه (الإنسان) وهو الاسم المُؤلَّف من أُنسين: إحداهما مشتقّ من أنس غيره دلالة على أنَّ هذا المخلوق اجتماعيّ بطبعه ويأنس سواه من البشر، وأنس ثاني يتعلّق بصلة هذا المخلوق مع خالقه إنْ هو تعرّف إلى ربّه وتعامل معه. وقد روعي أنْ تكون فطرة هذا الإنسان تتّصف بصفةٍ عبّر تعالى عنها بقوله (من صلصال) وبألفاظٍ أخرى؛ فإنَّ الله جلّ شأنه لا يكون وبالنّظر إلى جميع ما أوردناه، قد أورد كلمة (صلصالٍ) في هذه الآية الكريمة بمعناها الحقيقي، بل هو أوردها كصفة للإنسان وبمعناها المجازي الذي سنشرحه فيما بعد. فهذا ما دلّ عليه سباق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وننتقل الآن يا عزيزي القارئ لنتفحّص سياق هذه الآية الكريمة، أي في الآيات التي وردت بعدها والتي قال الله تعالى فيها ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ فها أنَّه ورد في هذه الآية الجار والمجرور (من قبل)، وليُشير تعالى بذلك إلى البشر الذي كان قبل بعثة آدم عليه السّلام وهم الذين أخبر تعالى عنهم وقال بحقّهم في الآية 42 ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ وبذلك يكون الله تعالى قد أطلق كلمة (جانّ) هنا على البشر القديم

الذي سبق وجوده بعثة النّبي آدم عليه السّلام. وإنَّ هذه الكلمة اشتقّت أصلاً من جُنّ بمعنى اختفى. ولقد أثبت التّنقيب الذي قام به علماء المستحاثات بأنَّ البشر القديم كان يقطن الكهوف على وجه العموم، ولا يظهر إلاّ عند احتياجه لتأمين الماء والغذاء والصّيد على وجه الخصوص. وهي معلومات تضمّنها مُؤلّفي (خلق الإنسان وتطوُّره) بالتّفصيل.

فهذه الكلمة (الجانّ) وردت في آية سياق الآية التي نحن بصددها، وقد استُعملت في هذه الآية الكريمة كصفةٍ اتّصف بها البشر القديم، ولم ترد كاسم جنس كما ظنّ ذلك المفسّرون القدماء رحمهم الله تعالى، الذين ما فهموا معطيات ما ذكرناه من دلالات آيات السّباق ولا دلالات آيات السّياق.

أي أنَّ الله تعالى وكما وصف البشر الذين آمنوا بآدم بصفة الصّلصال، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف في آية السّياق البشر القديم الذي كان موجوداً قبل بعثة آدم وطوال ملايين السّنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ ونبّهنا من خلال قوله هذا إلى أنَّ طبيعة البشر القديم كانت مختلفة عن طبيعة البشر الذي عاصر بعثة آدم عليه السّلام. وأنَّ العامل الأساسي الذي فرّق ما بين صفات هذين النّوعين من البشر هو الوحي السّماويّ الذي أنزله الله تعالى على أوّل نبيٍّ من أنبياء الله الكرام وهو آدم عليه السّلام. ومن خلال هذا التّنبيه إلى هذه الحقيقة الذي نبّهنا ربّنا عزَّ وجلَّ إليه في هاتين الآيتين الكريمتين يكون الله عزَّ وجلَّ قد أعطانا المفتاح الذي يكشف لنا أيضاً عن الصّفة التي تضمّنها قوله عزَّ وجلَّ في الآية التي نحن بصددها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ والمعنى

هو أنَّ الله تعالى قد وصف البشر الذي آمن بآدم والبشر الذي كان قبله وصفهم بصفتين هما على طرفي نقيض: الطّبيعة الصّلصاليَّة التي استجابت لصوت السّماء، والطّبيعة النّاريَّة التي استكبرت وأبت الخضوع لتعاليم الله ربّ السّماوات والأرض. فهذا الوصف (من نار السّموم) وردت فيه كلمة (السّموم) بمعنى الحرّ الشّديد النّافذ في المسام والذي يكون في اللّيل كما يكون في النّهار(محيط المحيط). وقد وُصفت به طبيعة البشر القديم الذي سمّاه الله تعالى (جاناً) لاختفائه على الدّوام في الكهوف هرباً من الوحوش الكاسرة. وبذلك؛ يكون الله عزَّ وجلَّ قد وضّح لنا بأنَّ البشر القديم الذي كان متّصفاً بصفة التّوحّش والغضب لأتفه الأمور التي كانت تخالف مشيئته. فانقلبت طبيعة الذين آمنوا بآدم عليه السّلام إلى طبيعة صلصاليَّة تستجيب لتعاليم ربّها، ولو خالفت تلك التّعاليم رغباتها وميولها وشهواتها.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ وبعد أنْ قدّم لموضوعه الذي شاء أنْ يبحثه ويتكلّم عنه هذا التّقديم المُتعلّق بالبشر القديم والبشر الحديث وبعد التّنبيه إلى اختلاف طبائع كلّ فريق منهما فقد راح يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

فلاحظ كيف أنَّ الله تعالى عندما ابتدأ موضوع الكلام عن نبيّه آدم عليه السّلام، فقد استهلّه بالحرف (إذ) ليعود بذاكرتنا إلى زمن بعثة آدم عليه السّلام، وليذكّرنا بقصة آدم نفسه التي بتنا مطّلعين على خفاياها من خلال مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره). هذا الحرف (إذ) الذي نبّه ذاكرتنا إلى ما ورد في التّقديم الذي قدّمه تعالى من قبل وللدّخول في هذا الموضوع. والذي فصل فيه بشكلٍ نوعيٍّ ما بين تاريخ البشر القديم وما بين تاريخ البشر الحديث، ولا حاجة لي هنا للإكثار من الشّرح والتّفصيل، ويكفينا أنْ دلّنا سباق وسياق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ على كون كلمة (صلصال) قد وردت في هذه الآية الكريمة بدلالتها المجازيّة، وليس بدلالتها الحقيقيَّة. وبذلك نكون قد أجبنا عن السّؤال الثّاني الذي كنّا طرحناه في مستهلّ كلامنا عن هذا المثال المُتعلّق بهذه الكلمة (صلصال)، لذلك؛ يتوجّب علينا الانتقال للإجابة عن السّؤال الثّالث الرّئيسيّ وهو ما مدى دقَّة وفصاحة المعاني التي وردت كلمة (صلصال) تحملها هذه الكلمة التي دللّت على مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة المعجزة؟

وهذا السّؤال الثّالث قد تجمّعت لدينا موادّ الإجابة عليه من خلال جميع ما بحثناه حول قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. سواء على صعيد دلالة المعنى الحقيقي لكلمة (صلصال) وهو طينٌ حرّ خُلط برمل وتُرك ليجفّ حتَّى عاد إذا نقر الإنسان عليه يُصوت ويصلصل وكأنَّه من قبيل الخزف. وأنَّه قد أثبتنا بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أورد هذه الكلمة هنا بمعناها المجازي، وليس بمعناها الحقيقيّ.

وكناية عن طبيعة البشر التي تولّدت في نفس هذا الإنسان بعد بعثة آدم عليه السّلام. وهو أنَّ هذا البشر الذي كانت طبيعته من قبل من نار وتشتعل غضباً لأتفه الأسباب هدأت ثورة نفسه بعد استجابته لتعاليم السّماء وبُعده عن الاندفاع وراء نزوات نفسه ورغباتها وميولها وأهوائها. توصّلنا إلى هذا بعد اطّلاعنا على سباق وسياق كلمة (صلصال).

فدقّق معي يا عزيزي القارئ في دقَّة انتقاء كلمة (صلصال) وفصاحتها وهي واردة في هذا الموقع من آي الذّكر الحكيم. وانظر أيضاً الدّلالات المجازيَّة لكلمة (صلصال) ووصفها ما حدث بصورة إعجازيَّة. فهو تعالى كنّى بالطّين الحرّ المخلوط بالرّمل عن كيان الإنسان المخلوق من لحم وعظم وحُرّ الإرادة والتّفكير والاختيار. وأنَّ محاولة ترك هذا الخليط من الطّين والرّمل أو من اللّحم والعظام ليجفّ، فهي عمليَّة تطوير هذا الإنسان بواسطة تعاليم السّماء لإفقاده حيويَّة الطّين الحرّ. فتجفيف الطّين الحرّ المخلوط بالرّمل معناه أنْ يستمسك ويعود صالحاً للنّقر عليه وتركه يصلصل، أي تركه مؤهّلاً لتلقّي وحي السّماء. وبألفاظ أخرى، فقد نبّه الله جلّ شأنه أذهاننا حين قال إنَّه خلق الإنسان من (صلصال) إلى أنَّ الحُرِّيَّة المطلقة التي أعطيها هذا الإنسان بالفطرة من واجبه أنْ يجعلها تتقيّد بتعاليم ربّه لتجفّ بواسطتها ما يفرزه جسده من ميول ورغبات وشهوات تبعده قواها الفوّارة عن أهليَّة تلقّيه وحي السّماء المقدّس الذي يخرجه من الظّلام إلى النّور. وكأنَّه تعالى قد أشار من خلال هذا المعنى إلى أنَّ تعاليم الأديان تطالب هذا

الإنسان أنْ يتنازل عن بعض حُرِّيَّاته الشّخصيَّة، وأنْ يتقيّد بأفكار وعقائد تُنظِّم حُرِّيَّة الإنسان ليتأهّل للقاء الخالق الرّحمان.

فتعاليم الإسلام على سبيل المثال تُطالب المؤمن أنْ يلتزم بالعمل على العبادات المفروضة، وأنْ يتخلّق بأخلاق خالقه ليُحدِث بذلك تجانساً بين هذين الطّرفين يؤهّل الإنسان ليتوجّه ربّه نحوه فيحبّه ويقرّبه ويرضى عنه. وتعاليم الدِّين تطالب هذا الإنسان أنْ يصارع رغبات نفسه وميولها وأهواءها. وإنَّ هذا الشّكل من تقييد حُرِّيَّة الإنسان بواسطة هذه التّعاليم التي تشبه عمليَّة تجفيف للحيويَّة الحرَّة؛ فهي عمليَّة تقييد لصالحه يقيناً. وإلى هذه الحقيقة قد أشار حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه [موتوا قبل أنْ تموتوا] وهل يعني هذا الحدبث إلاّ هذا المفهوم الذي تضمّنته كلمة (صلصال)؟ خصوصاً وأنَّه ﷺ قد أوتي جوامع الكَلِم، فالرّسول ﷺ يشير علينا من خلال ألفاظ حديثه المذكور أنْ نموت عن رغبات أجسادنا الفانية وعن ميولها الفاسدة وعن اتّباع ما تهواه هذه النّفس والتي تدفع صاحبها ليعصي الله ربّه الذي خلقه من صلصال وراح وأهّله ليعرف هذا المحبوب الحقيقيّ.

فإنْ أنت يا عزيزي القارئ قد أحطت علماً بهذه الكنايات وتلك التّشابيه التي أفادها المعنى المجازي لكلمة (صلصال). عاد بإمكانك القول بأنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ . قد أشار بذلك إلى أنَّ هذا البشر كان مؤهّلاً في جبلّته الباطنة للتّعرّف على ربّه، وعلى سماع وحيه، وتلقّي إلهامه، والانقياد إلى تعاليمه، وهذه

الحقيقة تفسّر في الوقت نفسه حقيقة تشبيه رسول الله ﷺ تلقّيه وحي ربّه عزَّ وجلَّ بصلصلة الجرس.

وعليه؛ يكون الله عزَّ وجلَّ قد أورد حرف (من) من قوله تعالى ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ بمعنى تفسيره للحقيقة المذكورة. وأمَّا حرف الجرّ (من) الثّانية الواردة ضمن قوله تعالى ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فقد أوردها الله تعالى بمعناها الغالب عليها، وهو إفادتها معنى ابتداء الغاية. فكيف أدركنا ذلك؟

أقول أدركنا حقيقة هذا الاستعمال هنا بعد رجوعنا إلى معجم (محيط المحيط) الذي بيّن بأنَّ كلمة (حمأ) اشتقّت من قولك: إنَّ فلاناً حمأ بئره معناه أنَّه نزع ما فيه من طينٍ وأوساخ. فالحمأ هو الطّين الأسود الذي تغيّر واسودّ لمجاورته الماء (بيضاوي)، ويُطلق الحمأ على ما كان من قِبلِ الزّوج من أقارب مثل الأخ والأب وغيرها. فهؤلاء أبناء حميّه. ثمَّ إنَّ كلمة (مسنون) تعني المنتن. فقوله تعالى ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ يعني أنَّه مخلوق من طين أسود تغيّر لونه واسودّ لمجاورته الماء هذا، وإنَّ هذا المعنى لقوله تعالى ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تدلُّنا على أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد استعمل حرف الجرّ(من) الثّاني بمعناه الغالبُ عليه، وهو معنى ابتداء الغاية، وكما سبق أنْ ذكرناه. أفلا يقول أحدنا: صُمتُ من يوم الجمعة على سبيل المثال؟ وألا يقول الضّيف الذي نستضيفه عندنا: سافرتُ إليكم من مدينة حمص السّاعة كذا؟

فاستناداً إلى ذلك حقّ لنا أنْ نقول يا عزيزي القارئ بأنَّ دقَّة وفصاحة كلمة (صلصال) الواردة ضمن قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

صَلْصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ تزيدها عظمة بعد إحاطتك علماً بالنّاحية التّاريخيَّة لخلق هذا الإنسان وكما بيّنته في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره).

مع الملاحظة بأنَّ القول بأنَّ الإنسان قد خلقه ربّه ليتلقّى وحيه المقدّس وتجلّيات أنواره، وبدافع ما دلّت على ذلك كلمة (صلصال) المستعملة في هذه الآية الكريمة لن يكون هذا القول غير طبيعيّ حتَّى يعترض عليه هؤلاء الذين كفروا بالإسلام وبرسالة محمد ﷺ النّبيّ الذي ادّعى أنَّ الله تعالى كلّمه وأنزل عليه هذا القرآن العظيم. فاعتراض الكُفَّار مردودٌ عليهم لجهلهم بحقيقة تاريخ البشر بفرعيه القديم والحديث. هذا من جهة، ولانغماسهم في الأوحال التي أبعدتهم عن تلقّي كلام ربّهم وعن التّعرّف إليه من جهة أخرى. وكأنَّهم ما سمعوا طيلة حياتهم بقصّة آدم عليه السّلام، ولا بما حدث من بعده من أحداث. وبذلك يكون الله تعالى قد كشف لنا من خلال قوله تعالى﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ عن هذه الحقيقتين التّاريخيّتين: الحقيقة الأولى المُتعلِّقة بالبشر قديمه وحديثه، والحقيقة الثّانية المُتعلِّقة بجبلة هذا البشر، وكيف أنَّه خلقه ربّه مفطوراً على تلقّي كلام الله الخالق والتّشرّف بلقائه.

وبالإضافة إلى بيان هاتين الحقيقتين فإنَّ قوله تعالى في هذه الآية المذكورة ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ قد زوّد الباحثين من بني آدم بمعلومةٍ عن حقيقة وكيفيَّة نشوء الحياة على سطح هذا الكوكب الأرضي، وعن كيفيَّة خلق الله تعالى، هذا الإنسان كما يكون قد زوّدهم بزادٍ علميٍّ ستكشف الأيام عن حقيقته بعد زوال أمم المسيح الدّجال من الوجود. وبألفاظ

أخرى؛ فإنَّ جسم البشر ابتدأ خلقه من حمأ مسنون، أي من طين أسود تغيّر لونه لمجاورته التّراب، فأصله من تراب. وعلى هذا الشّكل تمَّ إبداع هذا الجسد البشريّ. وأمَّا خلق قواه الرّوحيَّة، فابتدأت من مرحلة تكوّنه من (صلصال) وبمعناه المجازي، والمدهش في الأمر هو أنَّ الله جلّ شأنه قد كشف عن هاتين الحقيقتين قبل أربعة عشر قرن من الزّمان وعلى رجلٍ أمّيٍ من أمَّةٍ أميَّةٍ لا تعرف أكثريَّة أفرادها الكتابة ولا الحساب. علماً بأنَّ شرح مضمون هاتين الحقيقتين لا يتمكّن الأديب أو العالم من أدائه إلاّ من خلال تأليف كتاب ضخمٍ قائم على الحقائق العلميَّة المكتشفة وتجارب المجرّبين. على حين أنَّ الله جلّ شأنه قد اختصر ذلك كلّه ضمن آيةٍ لا يتجاوز عدد كلماتها خمسة كلمات قال فيها ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾. وهل هناك إعجازٌ أعظم من إعجاز انتقاء هذه الكلمة (صلصال) وفي هذا المقام؟ فلولا أنْ يكون الله عزَّ وجلَّ هو الواضع للُّغة البيان ومعلّمها فأنّى لإنسانٍ القدرة على صياغة مثل هذه الآية الكريمة وما تضمّنته من كلمات خمس، وبهذه الدِّقَّة في انتقاء ألفاظها وبهذه السّعة من البيان؟

ألا إنَّ العالم الباحث المتابع للأبحاث العلميَّة التي تتعلّق بكيفيَّة بدء الحياة على سطح الكرة الأرضيَّة والتي أجرى تجاربها علماء الغرب في زماننا الحاضر والتي لم تُفسّر حتّى اللّحظة حقيقة كيفيَّة بدء الحياة على سطح كوكبنا الأرضي. ومصداقا لقول ربّنا عزَّ وجلَّ في الآية (51) من سورة الكهف ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾. فإنَّ هذا جميعه يفسّر للقارئ الكريم السّبب في

فشل علماء الغرب فيما سعوا لاكتشافه، والسّبب في أنَّ الله تعالى قد راح بعد أنْ كشف عن هاتين الحقيقتين يذكّر هؤلاء الفاشلين بقصّة آدم عليه السّلام وعلى شاكلة ما فعله في سورة الكهف هذه التي راح تعالى يقول في الآية (50) منها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ واعلم يا عزيزي القارئ أنّه وبعد زوال أمم هذا المسيح الدّجّال فحدسي يقول بأنَّ هذه الحقائق التي نبّهت إليها هذه الآية من سورة الحجر ستأخذ طريقها إلى الظّهور على أيدي الباحثين المؤمنين الأطهار إنْ شاء الله العزيز. وأعلم أيضاً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد مكنني من خلال مثال كلمة (صلصال) الذي بيّنته آنفاً من إثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة السّادسة القرآنيَّة المعجزة والذي استقيته للقارئ من ضمن آياتِ سورِ مَتْنِ هذا القرآن العظيم.

مثال رابع يثبت وجود الخصوصيّة السّادسة:

وأنت تعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ السّور التي تشكّل مَتن هذا القرآن الكريم كثيرة جداً، الأمر الذي يضطرّني لتقديم مثالٍ ثان من آيات سور هذا المتن القرآنيّ. وما دامت قصّة آدم وردت بعد آيات المثال الذي قدّمته لك من سورة الحجر، فأرى أنْ أجعل من كلمة (إبليس) الواردة في قصّة آدم محور الكلام في هذا المثال الثّاني الذي بدأت بتقديمه وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وعليه نعود نتساءل: مَنْ هو إبليس. وماذا فهم المفسّرون القدماء رحمهم الله حول شخصيّته واستقاء من كلمة (إبليس)؟

وما هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة (إبليس)؟ وبأية المعاني الحقيقيَّة أو المجازيَّة أورد الله جلّ شأنه هذه الكلمة في هذه الآية من سورة الحجر؟

وإجابة عن السّؤال الأوّل أقول: إذا عدنا يا عزيزي القارئ إلى ما فهمه الفخر الرّازي رحمه الله ودوّنه في تفسيره الكبير بهذا الخصوص نلاحظ أنَّه كتب في تفسيره الكبير تحت هذه الآيات الواردة فيها كلمة (إبليس) قال: (﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فيه مباحث، أحدها هل أنَّ ذلك السّجود كان لآدم في الحقيقة، أو كان آدم كالقبلة لذلك السّجود؟ وهذا البحث قد تقدّم ذكره في سورة البقرة. وثانيها: أنَّ المأمورين بالسّجود لآدم عليه السّلام هم كلّ ملائكة السّماوات أو بعضهم أو ملائكة الأرض؟ قال بعضهم لا يجوز أنْ يُقال إنَّ أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسّجود لآدم عليه السّلام. والدّليل الذي يقدّمونه هو أنَّ الله تعالى قال في آخر سورة الأعراف في صفة الملائكة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ فقوله ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ يُفيد الحصر. وذلك يدلّ على أنَّهم لا يسجدون إلاّ لله تعالى. وذلك يُنافي كونهم ساجدين لآدم عليه السّلام أو لأحد غير الله تعالى). وأضاف الرّازي يقول (أقصى ما في الباب أنْ يُقال إنَّ قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يفيد العموم، إلاّ أنَّ الخاصّ مقدّم على العامّ، وثالثها: أنَّ ظاهر الآية يدلّ على أنَّه تعالى كما نفخ الرّوح في آدم عليه السّلام وجب على الملائكة أنْ يسجدوا له لأنَّ قوله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مذكورٌ بفاء التّعقيب، وذلك يمنع من التّراخي. وقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ قال الخليل وسيبويه

قوله ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ توكيدٌ بعد توكيد. وسُئل المبرّد عن هذه الآية فقال: لو قال: فسجد الملائكة احتمل أنْ يكون سجد بعضهم. فلما قال ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ زال هذا الاحتمال، فظهر أنَّهم بأسرهم سجدوا. ثمَّ بعد هذا بقي احتمالٌ آخر وهو أنَّهم سجدوا دفعةً واحدةً أو سجد كلّ واحدٍ منهم في وقتٍ آخر؟ فلمّا قال ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ظهر أنَّ الكلّ سجدوا دفعةً واحدةً، ولمّا حكى الزّجّاج هذا القول عن المبرد قال: وقول الخليل وسيبويه أجود، لأنَّ أجمعين معرفة، فلا يكون حالاً، وقوله ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ أجمعوا على أنَّ إبليس كان مأموراً بالسّجود لآدم، واختلفوا أنَّه هل كان من الملائكة أو لا؟ وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة).

وأنقل للقارئ ما تابعه الفخر الرّازي رحمه الله بشأن إبليس. فممَّا أورده رحمه الله وهو يفسّر سورة البقرة قال:

(اختلفوا في أنَّه كيف تمكّن إبليس من وسوسة آدم عليه السّلام، مع أنَّ إبليس كان خارج الجنة، وآدم كان في الجنة، وذكروا فيه وجوهاً: أحدهما قول القصّاص. أنَّه لمّا أراد إبليس أنْ يدخل الجنّة منعته الخَزَنَة، فأتى الحيَّة وهي دابّة لها أربع قوائم كأنَّها البختية... فابتلعت الحيَّة، وأدخلته الجنة خفيةً من الخزنة، فلمّا دخلت الحيَّة الجنة، خرج إبليس من فمها، واشتغل بالوسوسة... وهنا قال الرّازي: واعلم أنَّ هذا وأمثاله ممَّا يجب ألاّ يُلتفتَ إليه؛ لأنَّ إبليس لو قدرَ على الدّخول في فم الحيَّة، فلمَ لم يقدر أنْ يجعل نفسه حيَّة، ثمَّ يدخل الجنّة. ولأنَّه لمّا فعل ذلك بالحيَّة، فلمَ عوقبت الحيَّة، مع أنَّها ليست بعاقلة ولا مكلّفة.). وراح الرّازي بعد ذلك يورد وجهاً آخر

كما ذكروه، قال: (وثانيها أنَّ إبليس دخل الجنة في صورة دابة، وهذا القول أقلّ فساداً من الأوَّل وثالث الوجوه: قال بعض أهل الأصول: إنَّ آدم وحواء عليهما السّلام لعلّهما كانا يخرجان إلى باب الجنة وإبليس كان بقرب الباب يوسوس إليهما.). وأورد الرّازي وجهاً رابعاً وهو قول الحسن: (أنَّ إبليس كان في الأرض، وأوصل الوسوسة إليهما في الجنة، قال بعضهم: هذا بعيد، لأنَّ الوسوسة كلام خفيّ، والكلام الخفيّ لا يمكن إيصاله من الأرض إلى السّماء، واختلفوا في وجهٍ آخر، وهو أنَّ إبليس باشر بهما، أو يقال إنَّه أوصل الوسوسة إليهما على لسان بعض أتباعه؟ حجّة القول الأوَّل: قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ وذلك يقتضي المشافهة. وكذا قوله ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾. وحجّة القول الثّاني: أنَّ آدم وحوّاء عليهما السّلام كانا يعرفان إبليس، ويعرفان ما عنده من الحسد والعداوة فيستحيل في العادة أنْ يقبلا قوله تعالى وأنْ يلتفتا إليه فلابُدَّ وأنْ يكون المباشر للوسوسة من بعض أتباع إبليس - وهنا قال الرّازي - : (بقي هاهنا سؤالان، السّؤال الأوَّل: أنَّ الله تعالى قد أضاف هذا الإذلال إلى إبليس فلمَ عاتبهما على ذلك الفعل؟) - وقد راح رحمه الله تعالى يعلّل ذلك قال: (قلنا معنى قوله ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أنَّهما عند وسوسته أتيا بذلك الفعل. فأضيف ذلك إلى إبليس. . هذا ما قاله المعتزلة... والتّحقيق في هذه الآية الإضافة على ما قرَّرناه مراراً أنَّ الإنسان قادر على الفعل والتّرك ومع التّساوي، ويستحيل أنْ يصير مصدراً لأحد هذين الأمرين إلاّ عند انضمام الدّاعي إليه والدّاعي في حقّ العبد هو عبارةٌ عن علمٍ أو ظنٍّ أو اعتقادٍ بكون

الفعل مشتملاً على مصلحته، فإذا حصل ذلك العلم أو الظّنّ بسبب منبّهٍ نبّه عليه كان الفعل مضافاً إلى ذلك لِما لأجله صار الفاعل بالقُوَّة فاعلاً بالفعل. فلهذا انضاف الفعل هنا إلى الوسوسة..). ـ وهنا تساءل الرّازي: (هب أنَّ زلّة آدم حصلت بسبب وسوسة إبليس، فمعصية إبليس حصلت بوسوسة مَن؟). وأضاف ـ يقول: (وهذا ينبّهك على أنّه ما لم يحصل الدّاعي لا يحصل الفعل. وأنَّ الدّاعي، وإنْ ترتب بعضها على بعض فلابُدَّ من انتهائها إلى ما يخلُقه الله تعالى ابتداءً، وهو الذي صرّح به موسى عليه السّلام في قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.). ومن ثمَّ طرح الرّازي سؤاله الثّاني: (وهو كيف كانت تلك الوسوسة؟). وراح يجيب عنه وقال: (الجواب أنّها هي التي حكّى الله تعالى عنها في قوله ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ فلم يقبلا ذلك منه، فلمّا آيس من ذلك عدل إبليس إلى اليمين على ما قال ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فلم يصدّقاه أيضاً، والظّاهر إنَّ إبليس عدل بعد ذلك إلى شيءٍ آخر، وهو أنّه شغلهما باستيفاء اللّذات المباحة حتّى صارا مستغرقين في استيفائهما، فحصل بسبب استغفارهما في ذلك نسيان النّهي، فعند ذلك حصل ما حصل.) ـ قال رحمه الله وأنّهى قوله قائلاً: (واللهُ أعلمُ بحقائق الأمور كيف كانت.) ـ المجلّد الثّاني، الجزء الثّالث. وعلى هذه الصّورة أكون قد وضعتُ القارئ الكريم في الصّورة الكاملة التي رسمتها التّفاسير القديمة بما يتعلّق بإبليس، والتي استوفاها التّفسير الكبير للفخر الرّازي رحمه الله.

وألخّص للقارئ ما اقتبسناه من تفسير الرّازي رحمه الله، وهو أنّه فهم (سجود إبليس) بمعناه المادّيّ. وأنَّ إبليس كان خارج الجنة يترقّب، فإذا خرج آدم وحوّاء إلى باب الجنّة دنا إبليس منهما، ووسوس إليهما. حتّى شغلهما باستيفاء اللّذات إلى حدّ الاستغراق فيها، فتسبَّب ذلك في نسيانهما ما نهاهما الله تعالى عنه، وحصل ما حصل. وهذا كلّه يعني بألفاظ أخرى أنَّ الرّازي كان معتقداً بأنَّ إبليس هو كائن مخلوق، وليس من جنس البشر، ولم يخلقه الله تعالى إلاّ للإضلال.

فهذه هي مفاهيم الأقدمين الموروثة بشأن هذه الكلمة (إبليس). فهل هذه المفاهيم صحيحة وحقيقيَّة، وهي التي أشار إليها كتاب الله العزيز؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه. وأوّل ما أفعله هو محاولة الاطّلاع على المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وعلى حسب ما ورد في معاجم اللُّغويّين. فقد أورد معجم (محيط المحيط) قال: إنَّ هذه الكلمة (إبليس) اشتقّت من بَلَسَ. فإنْ أنتَ قلتَ: أبلس الرّجل، معناه حزن وانكسر وقلّ خيره، أو قلتَ أبلسَ فلانٌ من رحمة الله، معناه يئس، أي قنط وقطع الأمل، فهو يائس، أو قلتَ: أبلسَ الرّجل في أمره، معناه تحيّر، أو قلتَ أبلس فلانٌ، معناه: سكت غمّاً. فالبلسُ مَنْ كان لا خير عنده.

وخلاصة ما أورده هذا المعجم هو أنَّ لكلمة إبليس أربع معاني: فالمعنى الأوّل هو الشّخص الذي حزن وانكسر وقلّ خيره. والمعنى الثّاني هو الشّخص الذي يئس وقنِط وقطع الأمل. والمعنى الثّالث هو الشّخص الذي تحيّر في أمره، فلم يستقرّ على حال. والمعنى الرّابع هو الشّخص الذي سكن

غمّاً. وإنَّ هذه المعاني جميعها تعتبر في حقيقتها معاني حقيقيَّة لكلمة (إبليس) وتعبّر عن أحواله الطّارئة.

وقبل أنْ أحاول يا عزيزي القارئ تبيان هل أنَّ كلمة (إبليس) استُعملت بمعانيها الحقيقيَّة أم بمعانيها المجازيَّة كان لابُدَّ من التّنويه إلى أنَّ هذه الكلمة وردت إحدى عشرة مرَّة في كتاب الله العزيز. تسعٌ منها ضمن مختلف عناصر قصّة آدم عليه السّلام الموزّعة على عدّة سور من سور القرآن الكريم. والعاشرة ضمن الآيتين 94 / 95 من سورة الشّعراء؛ حيثُ قال تعالى فيهما ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أمَّا المرَّة الحادية عشرة، ففي الآية 20 من سورة سبأ التي قال تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ومادام أغلب استعمالات كلمة (إبليس) قد ورد ضمن عناصر قصّة آدم عليه السّلام. فقد عاد من السّهل الجزم بأنَّ إبليس كان من البشر، وكان يقطن والنّبيّ آدم عليه السّلام في كهف واحد. وهذه حقيقة أثبتُّها في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره). وذلك كان حادثاً قبل أنْ يصطفي الله جلّ شأنه نبيّه آدم لإحداث نقلةٍ نوعيَّةٍ في حياة البشر من سكّان الكهوف في منطقتنا العربيَّة. هذا؛ وإنَّ هذه المعاني الأربعة التي تضمّنتها كلمة (إبليس) قد ظهرت في تصرّفات أوّل بشر كان قد كفر برسالة آدم عليه السّلام.

وبعد أنْ أيقنّا بأنَّ هذه الكلمة (إبليس) أوردها الله عزَّ وجلَّ ضمن قوله ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بالمعاني الأربعة الحقيقيَّة الدّالّة على ذاك الإنسان الذي كفر بآدم وبرسالته، كان من واجبنا مراجعة سباق

هذه الآية وسياقها وتسلسلها الموضوعيّ، وكما فعلنا من قبل في الأمثلة سالفة الذّكر. ليساعدنا ذلك كلّه على الإحاطة علماً بمدى دقَّة انتقاء هذه الكلمة (إبليس) في هذا المقام، ومدى فصاحتها، وكيف أنَّها تُمثِّل هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة المعجزة.

فسباق هذه الآية الكريمة يا عزيزي القارئ كنّا تبيّناه حتَّى اللّحظة حين تكلّمنا عن مثال كلمة (صلصال)، وأنَّ كلّ ما فعله الله تعالى بعد ذلك هو أنَّه أتى بطرفٍ من قصّة آدم عليه السّلام وقال ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وموردًا في هذا النّصّ كلمة (إبليس) التي نحن بصدد الكلام عنها. لذلك؛ فإنَّ من واجبنا الانتقال لفهم سياق آية ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وهو ما بعدها من آيات. هذا السّياق الذي استهلّه الله عزَّ وجلَّ بقوله ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾؟ علماً بأنَّه سبق لي أنْ وضّحتُ بأنَّ المفسّرين القدماء رحمهم الله تعالى، وخاصَّة منهم الفخر الرّازي قد أخذوا قصّة إبليس مع ربّه على أنَّها كانت قصّة حقيقيَّة تخاطب فيها إبليس وخالقه وجهاً لوجه. وفنّدتُ هذا الموروث بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره في مُؤلَّفي (نشوء الإنسان وتطوُّره) وأثبتُّ فيه أنَّ قصّة آدم القرآنيَّة وردت في كتاب الله العزيز مجازيَّة، وبلسان الحال، وليس كما فهمها الرّازي رحمه الله وغيره من المفسّرين القدماء. ومن منطلق أنَّ الله تعالى قد صرّح في مقام آخر بأنَّه يكلّم المؤمنين،

وليس المفسدين الكافرين. فإبليس كان من الكافرين، وليس من أصحاب الجنّة. فهذه الحقيقة قرينة تؤكّد أنَّ حوار قصّة آدم كان حواراً مجازيّاً. وعليه؛ فلا ينبغي أنْ نفهم من قول إبليس ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾. بأنَّ إبليس كان من جنسٍ غير جنس البشر، بل أنْ نفهم أنَّه كان بشراً كآدم، ومن سكّان الكهوف كمثله، وهي الحقيقة التي شرحتُهَا في مُؤلَّف نشوء الإنسان. ولقد قصد إبليس بقوله هذا اعتراضه على ادّعاء آدم تلقِّي الوحي من ربّه، مع أنَّ حقيقة تلقّي الوحي الإلهيّ تدخل في جبلة البشر وفطرته، وعلى حسب ما كنتُ قد بيّنتُ. وهذا يعني أنَّ إبليس في الآية التي نحن بصددها قد قال وبلسان حاله: إنِّي خُلقت حرّ الإرادة والتّفكير والاعتقاد، ولا يقبل عقلي أنْ تقيّدني بقيود هذه التّعاليم التي تدّعي أنَّها أوحيت إليك من الله الخالق نفسه. ومن تلك اللّحظة بدأ صراع الحُرِّيَّة الشّخصيَّة ومفرزاته عبر تاريخ هذا الإنسان. من هذا عُدتَ تدركُ يا عزيزي القارئ ومن خلال آيات سياق الآية التي نحن بصددها أنَّ في تلك الآيات الكريمة تذكيرٌ لكلّ مَنْ يكفر بوجود تعاليم الوحي الإلهي بما يترتّب على هذا التّكفير من نتائج سلبيَّة. فما هي تلك النّتائج الحتميَّة؟

أقول: لقد أجاب الله عزَّ وجلَّ عن هذا السّؤال من خلال قوله تعالى ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ومن خلال هذه الإجابة قرَّر الله عزَّ وجلَّ لعن الذين كفروا، وحرمانهم من محبّته، ومن التّعرف عليه، وأنَّ هذه اللعنة سترافقهم إلى يوم الدِّين.

وتراودك هنا بعد الذي سمعته منّي عدّة اعتراضات أهمّها: ما المقصود من ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الوارد في هذا المقام خاصَّة؟

فأجيب وأقول: كان المقصود من ضمير (منها) إشارة إلى المرحلة الصّلصاليَّة موضوع ادّعاء الآيات السّابقة، وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قال بألفاظ أخرى: مادمتَ يا إبليس قد كفرتَ بكون الإنسان مخلوقاً ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فنحن نحرمك من بركاتها التي أفادت آدم وجماعته المؤمنة، وبدليل فاء الاستئناف من قوله ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾. ومادام الله جلّ شأنه قد أتى بفاء الاستئناف ثانية وقال ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فقد استأنف تعالى الكلام عن الحالة التي يصير إليها كلّ إنسان لا يؤمن بالحقيقة التي عبّر الله تعالى عنها وقال ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾، أي الحالة التي يؤول إليها كلّ مُنكرٍ لنزول الوحي وما يفرضه على المؤمن من قيود يدعى كافراً. أمَّا ما هو المقصود هنا من اصطلاح ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؟ فلا ينبغي الإجابة عن هذا السّؤال بدون مقدّمات له. لذلك؛ أرجو من قارئي العزيز أنْ يعود بذهنه إلى ما استهلّ الله تعالى به سورة الحجر هذه. فهو تعالى قال وبدون أيَّة مقدّمات: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. فماذا قُصد من هاتين الآيتين الكريمتين؟ هل قُصِدَ كفّار مكّة ومَنْ حولهم من شبه جزيرة العرب؟ أم قُصد بهم كُفَّار سيأتون في المستقبل بعد زُمر أولئك الكافرين؟ فلابُدَّ من تعيين الجهة التي قصدها هذا الخطاب الإلهيّ.

أقول: إنَّ حرف (رُبَّ) يتضمّن معنى المستقبل، لكنَّه لا يدخل على الفعل أصلاً في اللُّغة العربيَّة، بل يدخل على الاسم. فكيف أدخله ربّنا عزَّ

وجلَّ هنا على فعل (يودّ)؟ وهو الذي اشتقّ من ودّ بمعنى أحبّ وتمنّى. فالملاحظ هو أنَّه تعالى أضاف على حرف (ربّ) هنا (ما) لتفصل بينه وبين الفعل (يودّ). وإنَّ (ما) هذه تأتي على وجهين: تكون اسميَّة كما تكون حرفيَّة. أمَّا الاسميَّة، فقسمان أيضاً: الأوَّل تكون فيه معرفة، لكنَّها ناقصة وموصول نحو ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾. والقسم الثّاني من (ما) الاسميَّة ترد فيه (ما) تامة وعامّة الدّلالة ومقدّرة بقولك (الشّيء) وهي التي لا يتقدّمها اسم، بل يتقدّمها حرف كحال ما ورد في هذه الآية الكريمة ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ أي ربّ وقتٍ يأتي على الذين كفروا يودّون فيه أشياء تدفعهم ليقولوا في حديث أنفسهم ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾. وعليه؛ ومادام العرب قد أسلموا في حينه، فهذا الكلام لا ينطبق عليهم، بل يعود ينطبق على فئةٍ من الكفّار يأتون بعد الفتوحات الإسلاميَّة وانحطاط المسلمين. أي يظهرون بعد ذاك الدّور من حياة الإسلام الذي آمن فيه مَنْ آمن، ورفض، وبقي فيه على كفره مَنْ كفر.

ويظلّ سؤالنا قائماً، وهو مَنْ هم هؤلاء الكُفَّار المقصودون في هذه الآية الكريمة ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾؟ ولتعيين ذلك نعود إلى ما أنهى الله تعالى به السّورة التي هي قبل سورة الحجر وبترتيب تلاوتها، وهي سورة إبراهيم التي كان الله تعالى قد أنَّهاها قائلاً: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. فهذه الآية الكريمة أبلغت النّاس الذين استبدلوا عقيدة وحدانيَّة الله بعقيدة الثّالوث (الآب والابن وروح القدس) فهؤلاء هم الذين ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم

عليه السّلام الذي أخبرنا الله تعالى بشأنه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآيتان 35 / 36 من سورة إبراهيم. ولقد أجاب الله عزَّ وجلَّ في الآيات 42 / 43 / 44 على دعاء إبراهيم عليه السّلام وقال ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾. وقد راح تعالى يقول محدّداً الزّمن الذي سينزل عذابه بهؤلاء الكُفّار، فقال في الآيات من (47 ـ 52) ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. فليلاحظ القارئ الكريم كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ راح يتكلّم عن هذا الفريق من الكُفّار منذ سورة هود التي عاد تفسيرها بين يديك، والتي توعّد الله تعالى فيها هؤلاء بالإهلاك. وضرب لهم مثال يوسف عليه السّلام من خلال سورة كاملة ليثبت بأنَّ الله موجودٌ، ولا يخلف الميعاد. وقدّم لهم في سورة الرّعد الأدلّة العلميّة على وجوده سبحانه وبنفس أسلوبهم المعاصر في

التّدليل. وأعاد إلى ذاكرتهم تاريخ جدّهم إبراهيم عليه السّلام، وأنّهى سورة إبراهيم بهذا البلاغ الموجّه إليهم وبصريح العبارة وعلى حسب ما بيّنت.

وعليه؛ فإنَّ النّتيجة التي حصلنا عليها من خلال ما بيّناه آنفاً هو أنَّ المقصود من قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ هم هؤلاء الكُفّار المعاصرون من أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى. فهم الذين يُقسمون في هذه الأيام أنّهم عادوا سادةً للعالم، ومالهم بعد اليوم من زوال، وهم الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، بمعنى ساروا على نهجهم. ولذلك توعّدهم الله جلّ شأنه في الآية الثّالثة من سورة الحجر هذه وقال: ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾. وهو تهديدٌ موجّهٌ إلى هذه الأمم الذين (ابتدعوا الثّالوث)، وأنّه لن يدومَ لهم الأمر، وإنَّ أجلهم قادمٌ، وسيزولون. ولا أرى من حاجة للدّخول أكثر في التّفاصيل. فقد تعيّن المقصود من قوله تعالى ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

ولا يبقى علينا هنا إلاّ محاولة فهم حقيقة كيف (يودّ) هؤلاء لو كانوا مسلمين، وهم من ألدّ أعداء الإسلام؟ الجواب نتلمّسه من واقع الأمم المشار إليها، والذي يجري في أيامنا هذه. إنّهم ابتدؤوا يتلمّسون عواقب الخمر والتّدخين والمخدّرات وغيرها من المحرّمات التي حرّمها الإسلام، وفي وقت كانوا قد أباحوها باسم الحُرِّيّة الشّخصيّة. وحتّى إنّهم بدؤوا يتلمّسون عواقب الإباحيّة الجنسيّة من خلال انتشار مرض الإيدز وغيره من الأمراض في أوساط بيئاتهم وغيرها من البيئات الإباحيّة. وعليه؛ فإنّهم يقولون في

أيّامنا هذه وبلسان حالهم (يودّون لو كانوا مسلمين) فما كان لمجتمعاتهم أنْ تصاب بما أصيبت به من أمراض وويلات. وقيسوا على ذلك بقيّة الأحكام التي جاء بها الإسلام.

فالكلام في سورة الحجر موجّهٌ في حقيقة أمره إلى هذه الأمم الغربيّة المعاصرة خاصّة. وإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين استعرض تاريخ المسلمين والمستأخرين من البشر في سورة الحجر هذه، فقد قصد من ذلك الإشارة إلى ما كشف عنه علم المستحاثات من حقائق تحقّقت على أيدي هؤلاء الغربيّين. وهو في الوقت نفسه كشف عمّا لم يستطيعوا الكشف عنه، وهو أنَّ جبلة البشر جُبلت على سماع وحي الله تعالى، وتلقّيه، والاستجابة لصوت السّماء، والعمل على ما تأتي به تعاليم من قيود على الحُرّيّة الشّخصيّة. وإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين ذكّر هؤلاء بقصّة آدم عليه السّلام قد شاء تنبيه أذهانهم إلى أنَّ مواقفهم وجهلهم بحقيقة المرحلة (الصّلصاليّة) يجعل مصيرهم المحتوم على شاكلة ما آل إليه مصير إبليس من قبل، الذي كفر بآدم عليه السّلام. وهذه الحقيقة تفسّر المقصود من ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الذي تساءلنا عنه في هذا السّياق من الكلام. وهو يوم الوقت المعلوم الذي تنبّأت به سورة هود بحقّ زوال هؤلاء الكُفّار.

والآن؛ وبعد أنْ أحطنا علماً بمضامين سباق وسياق كلمة (إبليس) الواردة في قوله تعالى ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ نكون قد توصّلنا يا عزيزي القارئ إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد انتقى هذه الكلمة هنا بدقّة واسعةٍ بهذه الدّلالات الواسعة وبهذه الفصاحة، ولم يكن سبحانه وتعالى

قد قصد الكلام بها عن شخص بعينه، بل قصد أنْ يُكنّي تعالى بهذه الكلمة (إبليس) عن هذه الأمم المعاصرة من أهل الكتاب من يهودٍ ونصارى، أولئك الذين عبّرت هذه الكلمة (إبليس) عن أحوالهم وبوصفٍ كاملٍ معجزٍ، وأثبتت من خلال ذلك وجود هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّادسة المعجزة.

فاعلم يا عزيزي القارئ أنَّ هذه الكلمة بيّنت لنا حقيقة أنَّ الأقوام المشار إليها قد كفرت بمحمدٍ رسول الله ﷺ وبالشّاهد الذي بعثه ربّه ليشهد على صدق نبوّة رسوله الكريم، وهو إمام هذا الزّمان. وقد يئس هؤلاء، وقنطوا من وجود يوم الحساب، وانقطع أملهم، وتحيّروا في أمرهم، وقلّ خيرهم أيضاً، وهي المعاني التي تضمّنتها كلمة (إبليس) فإنْ فاجأ هؤلاء مصيرهم المحتوم المقدّر لهم وفق معطيات ما ذكرناه فسيحزن مَنْ يبقى منهم، وينكسر فؤاده، ولا تعود تقوم له قائمة. وهل ينتقي هذا القرآن المجيد كلمة (إبليس) في هذا الموضع وبهذه المعاني وبهذه الدِّقَّة في التّعبير والفصاحة إلا أنْ يكون الله تعالى الذي أنزله هو مَنْ علّم آدم الأسماء كلّها، ولذلك أصبح لكتابه العزيز أمثال هذه الخصوصيّات المعجزة؟ لذلك أكتفي بما قدّمتُهُ من أمثلة لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة التي تكلّمتُ عنها، وأنتقل للكلام عن خصوصيَّة القرآن المجيد السّابعة المعجزة.

الخصوصيَّة القرآنيَّة السَّابعة:

ما قَلَّ ودَلَّ

فأنتَ إنْ كنتَ ممّن هو مغرمٌ بمطالعة الكُتُب الأدبيَّة وغيرها من الموضوعات تميل لمدح كتابة كاتبٍ وتقول إنَّه عبّر عمّا أراد التّعبير عنه بما قلّ ودلّ. وإذا ملت لنقد كتاب كاتب من الكُتَّاب تقول إنَّ كتابته مملّة من كثرة التّكرار. أمَّا إذا تلوتَ هذا القرآن الكريم من أوَّله إلى آخره، وكنتَ ضليعاً في البلاغة، ومحيطاً بمنهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره، فلا تملّ من تلاوة آياته الكريمة، بل تلاحظ أنَّ نفسك تكتشف علوماً جديدة كلّما أعدتَ تلاوتها، ولسببٍ جوهريٍّ، وهو أنَّ آيات هذا القرآن العظيم قد صيغت بخصوصيَّة معجزة، وهي أنَّها جميعها عبّرت عمّا أراد الله تعالى بيانه بأقلّ الألفاظ، وأدلّها، وبإعجاز ظاهر.

فأنت يا عزيزي القارئ أتْلُ آيات هذا القرآن الكريم كلّها، وانتبه إلى هذه الملاحظات التّالية:

أوّلاً: إنْ كنتَ يا عزيزي القارئ أديباً عبقريّاً، وحاولتَ إجراء أي تغييرٍ في مفردات آيات هذا القرآن العظيم سواء أكانت أسماء أو كانت أفعالاً

أو كانت حروفاً تجد نفسك عاجزة عن إحداث أيّ تغيير أو تبديلٍ فيها. بل وإنَّك تعجز عن إجراء أيّ تغيير أو تبديل في كلمات هذا الكتاب العزيز لا على صعيد إشاراته ولا على صعيد تنقيطه ولا على صعيد تقسيمه إلى آيات. ويكفي أنَّ أحداً من أدباء العرب لم يتمكن حتَّى اليوم من الإقدام على ذلك.

ثانياً: وجرِّب يا عزيزي القارئ أنْ تأت إلى آية بعينها مهما تكن طويلة النّصّ، فتعمد إلى اختصارها، وتحاول التّعبير عن مضمونها بألفاظ أقلّ وأدلّ، فتجد نفسك مهما كنتَ ضليعاً في اللُّغة والأدب أنَّك تقف عاجزاً عن الإقدام على ذلك. فلو كان قد ظهر بعد إنزال هذا القرآن المجيد أيّ أديب أو نحويّ له من القدرة على فعل ذلك، لكان تباهى وفعل.

ثالثاً: وممَّا يزيد هذا كلّه صعوبةً واستحالة هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد صاغ آيات كتابه العزيز هذا على صورةٍ يتبادر لذهن القارئ من هذه الآية معنىً يكون في حقيقة أمره مخالفاً للمعنى المقصود من الآية التي تتلوها. وهي خصوصيَّة سبق لي أنْ شرحتُهَا وتكلّمتُ عنها في مُؤلَّف (منهجيَّة القرآن الكريم وأصول تفسيره). فأنْ تجتمع هذه الامتيازات كلّها في وقتٍ واحد وفي جميع آيات هذا القرآن العظيم الذي تحدّى الله الذي أنزله به الجنّ والإنس فهذا هو الإعجاز نفسه. وهو الذي يُشَكِّل مضمون هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة التي سأحدّثُ قارئي العزيز عنها مع ضرب الأمثلة على مصداقيتها. ولا يظننّ القارئ الكريم أنِّي سأقارن بعض آيات هذا الكتاب العزيز ببعض

منتجات الأدباء المشهورين دفعاً للحساسيّات التي ستنتج عـن هـذه الخطوة، والتي تخلّ بمرتبة وقداسة هذا الكتاب المقدّس والمبارك وآخر كتب السّماء.

مقارنة ما بين نصوص قصّة قرآنيّة وتوراتيّة:

لذلك اخترتُ أنْ أورد نصاً قرآنياً، ويقابله نصٌ من كتابٍ يقدّسه أصحابه وأتباعه، وفي مضمون مشترك بينهما. ومحاولاً إثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة السّابعة على الصّعيدين اللّفظي والمعنوي، واخترتُ بالتّالي شطراً من قصّة يوسف عليه السّلام الواردة في القرآن الكريم، وفيما يقابله في سفر التّكوين من العهد القديم الذي يسمّونه التّوارة الموسويَّة تجنِّياً. ولا أقول تجنّياً بدون دليل وبرهان، بل بأدلّة قاطعة وبراهين ناصعة. ولاحظ يا عزيزي القارئ أنِّي بادرتُ لأنقل لك ممَّا ورد في الكتاب المقدّس نفسه الذي يسمّونه (العهد القديم) والذي طبعته جمعيات الكتاب المقدّس في الشّرق في بيروت لبنان عام 1989.

فأنتَ إنْ راجعت (العهد القديم) المشار إليه تلاحظ على الصّفحة (54) منه وتحت عنوان: (50 ـ معنى العهد القديم: 1) عند اليهود ورد ما يلي:

(دوّن الدِّين اليهودي تقليده التّفسيريّ الخاصّ في الحقبة الحاخاميَّة الكلاسيكيَّة من القرن الثّاني قبل المسيح وحتَّى القرن الثّامن بعده. كان هذا التّقليد في أوَّل أمره "شريعةً شفهية" أو "تقليد الأقدمين" لأنَّه كان ينتقل من المعلم إلى التّلميذ دون المرور بالكتابة). ثمَّ دُوّن وكُتب في "المشنة" التي

يكون تفسيرها "التّلمود") وفي مجموعات "مِدراشيَّة" مختلفة. وتوسّع أساساً على صعيدين: التّفسير الحرّ الوعظي الهادف إلى تغذية التّفكير الدِّيني "هجّادة"، وتحديد قواعد السّلوك اليومي "هالاخة"، ثمَّ الشّريعة الخطِّيَّة و "الشّريعة الشّفهيَّة"، أي النّصّ المرجع والتّفسير المتواصل، كلها تكوّن التّقليد الدِّيني الحرّ في اليهوديَّة.).

يثبت لك من هذا الكلام يا عزيزي القارئ أنَّ بني إسرائيل كانوا أمَّةً أميَّةً، وبقوا كذلك مُدَّة ألف ومئتي عام من بعد بعثة موسى عليه السّلام، فلم يدوّن إلاّ ممّا هو الآن ويسمّونه (العهد القديم) هذا الذي كانوا يتناقلونه بطريق الرّواية وعلى شاكلة ما نعرفه عن دور الرّواية في صدر الإسلام.

وقد ورد على الصّفحة (64) منه وتحت عنوان مدخل إلى سفر التّكوين:

(ولابُدَّ من التّذكير أيضاً بأنَّ سفر التّكوين لم يؤلّف دفعةً واحدةً. بل جاء نتيجةَ عملٍ أدبيٍّ استمرَّ عدّة أجيال) وأورد الكاتب على الصّفحة (65) يقول:

(وينتهي سفر التّكوين بسيرة بني يعقوب. ويمثّل فيها يوسف الدّور الرّئيسي إلى جانب يهوذا فيستقبل إخوانه في مصر ويُنقذهم من المجاعة. ولن يلبث يوسف أنْ يموت هو أيضاً. تاركاً ذويه في أرض (سوف) يذوقون فيها عبوديَّةً مرَّةً).

وهذه النّصوص وضّحت أنَّ سفر التّكوين كُتب على فتراتٍ زمنيَّة متباعدة كان آخرها ما كتبه الكاتب حول قصة يوسف عليه السّلام.

فتلاحظ يا عزيزي القارئ بأنَّ هذه النّصوص إلى جانب ما سأكشف عنه ضمن المقارنة التي سأجريها فسيثبت لك منها ما ذكرته لك من قبل من أنَّ ما يسمونه (العهد القديم) أو التّوراة الموسويّة إنَّما يسمّونه (تجنياً). فلا يمثّل هذا (العهد القديم) ذاك الذي كان عليه موسى، وما وعظ به في حينه تمثيلاً حقيقياً، بل يمثّله تمثيلاً مشوّهاً.

فتابع معي يا عزيزي ما سأنقله لك من نصوص العهد القديم المشار إليه، مع مقارنة ذلك ما أورده القرآن المجيد من نصوصٍ تقابلها، وليثبت لك عظمة هذه الخصوصيَّة السّابعة المعجزة التي امتاز بها هذا الكتاب العزيز والتي تتجلّى معالمها فيما قلّ ودلّ من نصوص آياته الشّريفة. وستلاحظ يا عزيزي القارئ في الوقت نفسه مدى التّشويه الذي اشتملت عليه هذه التّوراة المعاصرة، وبما يتعلّق بمشاهد أحداث قصّة يوسف عليه السّلام. وما نصّ عليه هذا القرآن الكريم بشأن أحداث قصّة يوسف عليه السّلام، وفيما يقابل تلك النّصوص التّوراتيَّة، وليتّضح لك يا عزيزي القارئ عظمة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة التي امتاز بها القرآن المجيد حتَّى على هذه الكُتُب التي يقدّسها أتباعها أيضاً.

فلقد أورد الإصحاح 37/ 23 من سفر التّكوين يقول بحقّ يوسف عليه السّلام:

«نزعوا عنه قميصه، القميص الموشّى الذي عليه، وأخذوه، وطرحوه في البئر. وكانت البئر فارغةً لا ماء فيها، ثمَّ جلسوا يأكلون. ورفعوا عيونهم ونظروا فإذا بقافلةٍ من الإسماعيليين مُقبلةٌ من جلعادَ وجمالهم محمّلةٌ صَمْغ

قتاد ويلساناً ولاذناً، وهم سائرون لينزلوا بها إلى مصر، فقال يـهوذا لأخوتـه: ما الفائدة من أنْ نقتل أخانـا ونخفـي دمـه؟ تعـالوا نبيعـه للإسـماعيليين، ولا تكن أيدينا عليه، لأنَّه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته. فمرّ قومٌ مدينون تجـار، فانتشلوا يوسف، وأصعدوه مـن البـئر، وبـاعوه للإسـماعيليين بعشـرين مـن الفضّة. فأتوا بيوسف إلى مصر. ورجع رأوبين إلى البئر، فإذا يوسـف ليـس في البئر، فمزّق ثيابه. ورجع إلى أخوته وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا إلى أيـن أمضـي؟ فـأخذوا قميـص يوسـف، وذبحـوا تيسـاً مـن المعـز، وغمســوا القميص في الدّم، وبعثوا بالقميص الموشّى، وأوصلـوه إلـى أبيـهم، وقـالوا أ قميص ابنك أم لا؟ فنظر إليه وقال: هـو قميـص ابنـي، وحـشٌ ضـارٍ أكلـه، افتُرس يوسف افتراساً. ومزّق يعقوب ثيابه وشدّ مِسحاً على حَقَويه، وحزن على ابنه أياماً كثيرةً. وقام جميع بنيه وجميع بناته يُعزّونه، فأبى أنْ يتعـزّى، وقال: إنّي أنزلُ حزيناً إلى ابني، إلى مثوى الأموات. وبكى عليه أبوه. ».

فأنت تلاحظ يا قـارئي العزيـز هـذا التّطويـل الممـلّ الـذي اعتمـده هـذا الكاتب ليُعطينا فكرةً عن أحـد مشـاهد قصّـة يوسـف عليـه السّـلام. والـذي صوّر لنا فيه تآمر إخوان يوسف للتّخلّص منه، وذلك بإلقائـه في جـبٍّ لا مـاء فيه والتقاط سيارةٍ من جانبهم إيّاه، وانتشالهم يوسف من البئر، وبيعهم إيّـاه في مصر. وكيف جاءوا أبيهم بقميص يوسـف ملوثـاً بـالدّم. وكيـف وصـف الكاتب حال والد يوسف بعد سماعه لمصير ابنه.

وأنقل لك يا قارئي العزيـز الآيـات الكريمـة مـن كتـاب الله العزيـز التـي تضمّنت معلومات هذا المشـهد المذكـور نفسـها ضمـن هـذا النّـصّ التّوراتـي.

ولأقوم بعدها بالمقارنة بين هذين المرجعين المذكورين ألفاظاً ومعانٍ وبنداً بنداً، ولإبراز هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة من وراء ما أقوم به.

قال الله تعالى في الآيات (8 ـ 18) من سورة يوسف ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾.

وبعد أنْ وضعت هذين النّصين أمام القارئ العزيز سأقوم بمقارنة كلّ فقرةٍ من فقرات طرف بفقرةٍ أخرى تقابلها من فقرات الطّرف الآخر. وأبدأ بآخر فقرةٍ من فقرات كلّ طرف من هذين الطّرفين.

ففي الفقرة الأخيرة من هذا المشهد كتب كاتب سفر التّكوين يقول (**فأخذوا قميص يوسف، وذبحوا تيساً من المعز، وغمسوا القميص في الدّم، وبعثوا بالقميص الموشّى، وأوصلوه إلى أبيهم، وقالوا: وجدنا هذا انظر: أ قميصُ ابنك هو أم لا؟ فنظر إليه وقال: هو قميص ابني**).

هذه الفقرة يُقابلها قول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ .

فمن حيثُ الصّياغة فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اختصر هذه الجمل الثّمانية الأولى بجملةٍ واحدةٍ معبّرةٍ تغني عن تلك التّفصيلات التي عمد إليها الكاتب التّوراتي بلا سندٍ وبلا دليل، فقال تعالى ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ وهذه الجملة تفيد بأنَّ إخوان يوسف عمدوا إلى تلطيخ قميص يوسف بدمٍ ما، ليخدعوا به أباهم. وقد جاءت هذه الجملة في غاية الإيجاز والتّعبير صياغةً ومعنى.

وقد صحّح الله تعالى ما قاله الكاتب من أنَّ إخوان يوسف أوصلوا قميصه إلى أبيهم وقالوا: انظر أ قميص ابنك هو أم لا؟ فهو تعالى قد طرح حقيقة ما كان قد جرى وقال: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ وهذا هو منطق الأحداث. فلو أنَّ الذّئب أكل يوسف لتراكضوا في تلك السّاعة عائدين إلى أبيهم، يبكون ولا يتأخرون إلى العشاء، وليسألوا أباهم: انظر

أ قميص ابنك هو أم لا ؟ فإنَّ بقاءهم حتَّى وقت العشاء وهو وقت العودة إلى الدّار هو قرينةٌ تشككٍ في مزاعمهم.

ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ نبّه أذهاننا قبل آيات من خلال هذه الفقرة وقال ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . فالله علاّم الغيوب بشّر يوسف عليه السّلام وأبيه يعقوب بما تآمر به هؤلاء عليه قبل وقوعه تثبيتاً لفؤادها ، وبسبب أنَّه تعالى كان قد قدّر ما سيحدث ليكون آيةً للنّاس ودليلاً على وجود الله علاّم الغيوب.

وعليه ؛ يبدو لك يا عزيزي القارئ أنَّ الله تعالى اختصر ثماني جُمل بما قلّ ودلّ. ومن جهة أخرى صحّح بأسلوب معقول ومنطقيّ ما زعمه الكاتب التّوراتي خطأً فيما كتبه.

ونأتي إلى حال النّبي يعقوب بعد سماعه نبأ مصير ابنه يوسف عليه السّلام ، والذي صار إليه . فالكاتب نسب إلى النّبي يعقوب عليه السّلام أنّه ما إنْ تعرّف على قميص ابنه يوسف إلاّ قال « هو قميص ابني . وحشٌ ضارٍ أكله . افترس يوسف افتراساً . ومزّق يعقوب ثيابه ، وشدّ مِسحاً على حقويه ، وحزن على ابنه أياماً كثيرةً . وقام جميع بنيه وجميع بناته يعزّونه ، فأبى أنْ يتعزّى وقال : [إنّي أنزل حزيناً إلى ابني ، إلى مثوى الأموات ، وبكى عليه أبوه .] » . فالكاتب من خلال ما أوردناه قد صوّر يعقوب عليه السّلام وكأنّه لم يكن نبياً ، ولا كان ربّه قد أطلعه عمّا سيفعله أبناؤه بيوسف عليه السّلام ، وأنَّ يعقوب قام بحركاتٍ وردود فعلٍ تصدر عن العوام البعيدين عن الإيمان والذين يتّبعون التّقاليد الموروثة.

فماذا أورد الله عزَّ وجلَّ مقابل ذلك في كتابه العزيز ؟ إنَّه جلّ شأنه أوجز ما جرى وقال على لسان يعقوب ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ . فبهذه الألفاظ القليلة وواسعة الدّلالات غيّر القرآن الكريم الصّورة التي صوّر الكاتب بها نبيّ الله يعقوب من جهة، وأبرز على لسانه الحقائق التّالية :

أوّلاً : فمن خلال قول يعقوب هذا نبّه إلى أنَّ النّبيّ يعقوب لم يصدّق رواية أبنائه التي رووها له عن مصير ابنه يوسف؛ لأسباب منها : أنّهم لم يسارعوا إلى الدّار لإخبار والدهم في الوقت المناسب. وبسبب معرفته بتلك البشائر التي كان يوسف يتلقّاها من جانب ربّه والمُتعلّقة بمستقبله، إذ كان يعقوب عليه السّلام على يقين بأنَّ ربّه لا يعد إلاّ ويحقّق ما وعد به عبده، وأنّه ولا يخلف الله تعالى الميعاد.

ثانياً : والملاحظ أنَّ يعقوب عليه السّلام قال في الآية ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ . وإنَّ فعل سوّل له يعني أغواه، وسهّل، وزيّن، وهوّن عليه ما فعله (محيط المحيط) أي أنَّه عليه السّلام لم يصدّق رواية أبنائه، واتّهمهم بهذه الاتّهامات التي أفادها فعل (سوّل له) المشار إليه.

ثالثاً : وقد طهّر الله عزَّ وجلَّ نبيّه يعقوب ممَّا نسبه إليه كاتب سفر التّكوين من أمورٍ تتنافى وكونه نبياً. لذلك لاحظنا بأنَّ الله تعالى أتى بفاء الاستئناف وقال على لسان نبيّه يعقوب : ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. فكلمة (صبرٌ) أوردها منوّنةً على آخرها، والصّبر يعني ترك الشّكوى من ألم البلوى لغير الله، كما يعني إمساك النّفس عن الفضول،

وعمّا يفضل عن قوام المعيشة بقناعةٍ وعفّة (محيط المحيط)، وبهذا الأسلوب ومن خلال دلالات كلمة (صبر) يكون الله عزَّ وجلَّ قد نفى عن نبيّه يعقوب عليه السّلام أنْ يكون قد مزّق ثيابه، وفعل ما يفعله قليلوا الإيمان واليقين بربّهم عزَّ وجلَّ.

رابعاً: وإضافة إلى ذلك فإنَّ الوصف بالصّبر الجميل يفيد معنى التّلطّف في الكلام مع مَنْ آذاه، ووقوفه منه موقفاً حسناً (محيط المحيط)، وهذا يعني أنَّ يعقوب عليه السّلام بالرّغم من معرفته بكذب أبنائه وافترائهم قصّة الذّئب، وعلى أنَّه أكل يوسف ابنه العزيز عليه. فإنَّ النّبي يعقوب لم ينفعل، ولا عنّف أبناءه على فعلتهم الشّنيعة هذه. وإنَّ كلّ ما فعله فهو أنَّه توجّه إلى ربّه يدعوه ليُظهر الحقيقة، وليُظهر كَذِبَ ما حدّثه به أبناؤه.

وعلى هذه الصّورة يكون الله عزَّ وجلَّ قد فعل هنا ما فعله عند تناوله الفقرة الأولى من هذا المشهد الذي نقلناه عن كاتب سفر التّكوين. فقد اختصر ما حدث، وصحّح ما زعمه الكاتب من افتراءاتٍ مشينة نسبها إلى يعقوب عليه السّلام.

ونتناول الآن يا عزيزي القارئ الفقرتين الأولى والثّانية من هذا المشهد الذي نقلناه. فالكاتب قال أوَّلاً (نزعوا عنه قميصه، القميص الموشّى الذي عليه، وأخذوه، وطرحوه في البئر. وكانت البئر فارغةً لا ماء فيها. ثمَّ جلسوا يأكلون. ورفعوا عيونهم ونظروا، فإذا بقافلةٍ من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم محمّلةً صمغَ قتاد وبلسناً ولاذناً وهو سائرون لينزلوا بها إلى مصر.) فالقارئ الذي يقرأ هذا الكلام يتصوّر أنَّ إخوان يوسف فعلوا

فعلتهم الشّنيعة، وجلسوا على بعد مئات الأمتار من البئر الفارغة يأكلون ويراقبون ما سيجري هناك. لكنَّ القارئ عندما يسمع ما عدّد به الكاتب التّوراتي ما كان الإسماعيليون يحملونه على جمالهم من بضاعةٍ متعدّدةٍ يتعجّب كيف كان بإمكان هؤلاء الإخوان معرفة هذه التّفاصيل من بعيد؟ ويضيف الكاتب ويقول: إنَّ يهوذا قال لإخوانه وهم يأكلون (ما الفائدة من أنْ نقتل أخانا ونخفي دمه؟ تعالوا نبيعه للإسماعيليين، ولا تكن أيدينا عليه لأنَّه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته. فمرّ قومٌ مدينيّون تُجّار، فانتشلوا يوسف وأصعدوه من البئر، وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة، وأتوا بيوسف إلى مصر). وبعد أنْ يقرأ القارئ هذا المقطع الثّاني، فلا يتعجّب، بل يدهش لكثرة التّناقض الواقع بين مضمون هذا المقطع وبين مضمون المقطع الأوَّل للأسباب التّالية:

أوّلاً: كيف قبل يهوذا من قبل أنْ يُلقوا بأخيه يوسف في البئر دون أنْ يعترض عليهم؟

ثانياً: فإنْ افترضنا أنَّ رؤيتهم قافلة الإسماعيليين قد حرّكت فيه هذه الفكرة. فكيف يقول الكاتب بعد ذلك (ورجع رأوبين إلى البئر، فإذا يوسف ليس في البئر، فمزق ثيابه. ورجع إلى إخوانه وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا أين أمضي؟)

ثالثاً: ولنلاحظ كيف أنَّ الكاتب التّوراتي زعم بين هذين المقطعين وقال (فمرّ قومٌ مدنيون تجار، فانتشلوا يوسف، وأصعدوه من البئر، وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضّة). فكيف يحدث كلّ ذلك من دون أنْ

يشاهد يهوذا وإخوانه قافلة المدنيين الذين انتشلوا يوسف من البئر؟ على حين كانوا رأوا قافلة الإسماعيليين؟ فما بين هذه النّصوص الثّلاثة تناقضات واضحة المعالم. فكيف لم ينتبه هذا الكاتب إلى هذه التّناقضات، وكتب ما وصله من أخبارٍ متناقضة وكأنّها حقائق ثابتة. خصوصاً وأنّه يدوّن قصّة النّبي يوسف عليه السّلام؟

والآن؛ وبعد أنْ كشفنا القناع عن هذه التّناقضات لنرجع إلى ما رواه لنا هذا القرآن الكريم الذي أُنزل على رجلٍ أمّيٍّ، واتّهمه أهل الكتاب المعاصرون بأنّ معلوماته التي صاغها في هذا القرآن الكريم كانت من تلقين بحيرا الرّاهب ومن قريب زوجته ﷺ خديجة ورقة بن نوفل وغيرها من مزاعم وافتراءات.

فإنْ نحن راجعنا الآيات التي اشتملت مضامينها هذه المقاطع الثّلاثة من المشهد. نلاحظ يا عزيزي القارئ بأنّ الله عزّ وجلّ أخبرنا وقال: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾. وقد نبّهنا الله تعالى في هذه الآيات الكريمة إلى ما يلي:

أوّلاً: فقد علّلَ القرآن الكريم بادئ ذي بدء السّبب الذي دفع بإخوان يوسف ليقعوا فريسةً لما فعلوه، وهو أنّ يوسف عليه السّلام كان يعتني به

أبوه يعقوب النّبيّ لملاحظته كثرة رؤاه المبشّرة التي كان يراها، ويقصّها عليه. وإنَّ هذه الحقيقة كانت تدفع يعقوب لرعاية ابنه رعاية خاصَّة ومتميّزة.

ثانياً: وإنَّ هؤلاء الإخوان الأشرار اقترحوا فيما بينهم إمَّا أنْ يقتلوا يوسف، وإمَّا أنْ يذهبوا به إلى مكانٍ بعيد لا يقطنه أحد إلاّ الوحوش الكاسرة، فيُلقونه هناك طعاماً للوحوش.

ثالثاً: وأنَّ أحدهم اقترح إلقاء يوسف في بئرٍ لا ماء فيه، ويعرفون موقعه، وحُجّته في ذلك أنَّه لابُدَّ أنْ تمرّ قافلةٌ من جانب البئر وتعثر على يوسف، فينقذوه، ويتبنّوه.

هذا؛ وإنَّ هذا التّرتيب الوارد في هذه الآيات الكريمة، وهذا التّعليل المنطقي للأحداث يخالف ما أورده كاتب المقاطع الثّلاثة التي أوردناها. فأنّى لرجلٍ أمّيٍّ كمحمد بن عبد الله ﷺ أنْ يطّلع على تلك التّناقضات التي كشفنا الغطاء عنها، وكيف أمكنه ترتيبها هذا التّرتيب المنطقي؟ والأعظم من ذلك كلّه أنْ يختصر الله جلّ شأنه ذلك كلّه في ثلاثة آياتٍ وحسب؟

ألا إنَّ الذي يُطالع ما كتبه كاتب سفر التّكوين بما يتعلّق بتآمر إخوان يوسف على يوسف لا يتحسّس من ذلك أيّ إحساسٍ بكون والد هؤلاء الأخوة وهو يعقوب عليه السّلام كان نبياً، بل يتحسّس أنَّه كان رجلاً عادياً. بل ولا يتحسّس القارئ من هذا النّصّ المذكور أنَّ يعقوب عليه السّلام كان يخشى على يوسف من إخوته أنْ يتآمروا عليه. على حين لتلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد بيّن هذه الحقائق ووضّحها، فهو أورد بحقّ

نبيــه يعقــوب قــائلاً : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ .

فهذه الآيات الثّلاثة مفعمةٌ بالمعاني والدّلالات ، ذلك أنّ يعقوب عليه السّلام ومن خلال قوله ﴿ لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ قد قال لهم إنّكم إذا أخذتم يوسف برفقتكم ستحرمونني إيّاه ، وتتركونني أتوجّع بسبب فراقي له . هذا من باب أنّك يا عزيزي إذا قلت : حزن فلان ومعناه أنّه توجّع كما تقول ذهب به ، والمعنى أزاله . كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ (محيط المحيط) .

ثمّ إنّ قول يعقوب ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ يعني بأنّ الله تعالى كان قد أطلع نبيّه يعقوب عليه السّلام من قبل على ما سيدبّره أولاده ليوسف من تدبيرٍ لتصريفه ، وعلى ما سيحتجّون به أيضاً أمامه . لذلك لا حظنا بأنّ يعقوب عليه السّلام دعّم هذه الحقيقة حين قال ﴿ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾ أي أنّكم ستحتجّون بأنّكم سهيتم عنه ، هذه الحقيقة التي وضّحها قولهم : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ .

وعليه ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يكون قد قصّ علينا أحسن القصص بدل ما أورده كاتب سفر التّكوين ومصحّحاً قصّة يوسف عليه السّلام أيضاً . وقد تجلّت معالم هذه الخصوصيّة القرآنيّة السّابعة المعجزة من خلال اختصار هذه الآيات القرآنيّة لتفاصيل أحداث القصّة وعلى صورة يستحيل اختصارها

بأكثر ممَّا اختصرته هذه الآيات الكريمة، والتي تجاوزت إيراد تفاصيل يستحيل إثباتها بمجرّد الرّواية، وفي وقتٍ لم يلتزم كاتب سفر التّكوين بهذا الأسلوب العلمي القرآني، بل دخل في رواية تفاصيل وصلت إلى حدّ التّناقض.

ومن جهةٍ أخرى، فقد أبرزت الآيات القرآنيَّة وجود الله مسبّب الأسباب وعلاّم الغيوب والنّاصر لأنبيائه الكرام مهما تآمر عليهم أعداؤهم للقضاء، ومهما استغلّوا من أجل ذلك الفُرصَ السّانحة لهم. وقد جاء ذلك كلّه مِصداق قول الله تعالى عند ابتدائه الإخبار عن قصّة يوسف؛ حيثُ قال قبل الشّروع بها: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾. فأين هذا التّطويل والتّشويه الوارد في قصّة يوسف في سفر التّكوين منها هذا الاتّجاه والتّصحيح العقلاني المنطقي الذي أوردته آيات هذا القرآن العظيم؟ فهذا أوّل مثالٍ قدّمتُهُ لإثبات مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة التي اختصّ بها من دون جميع ما كتبه الأدباء وغيرهم من العرب، وعلى هذا المستوى المعجز ممَّا قلّ ودل.

مثال ثاني يثبت وجود هذه الخصوصية السّابعة:

وأقدّم للقارئ مثالاً ثانياً لأثبت من خلاله مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة، ومن قصّة يوسف عليه السّلام نفسها التي أوردها كاتب سفر التّكوين. ويدور هذا المثال حول موضوع تفسير الأحلام. هذا العلم الذي يثبت من خلال النّصّ الذي سأنقله للقارئ بأنَّ كاتبه كان جاهلاً بحقيقة هذا العلم الدِّينيّ الهامّ، والذي تُجلّي حقائقه أنَّ الله الخالق كان يكلّم عباده الصّالحين من وراء حجاب، وعلى حسب ما ذكره القرآن الكريم.

فهذا المثال الثّاني أورده الإصحاح **40** من سفر التّكوين، وتحت عنوان يوسف يفسّر أحلام رؤساء فرعون. قال الكاتب التّوراتي:

« وكان بعد هذه الأحداث أنَّ ساقي ملك مصر والخبّاز أجرما إلى سيِّدهما ملك مصر. فسخط فرعون على كلا خصّييه: رئيس السّقاة ورئيس الخبّازين. وأوقفهما في بيت رئيس الحرس في السّجن؛ حيثُ كان يوسف مسجوناً. فألحق رئيس الحرس بهما يوسف، فقام بخدمتهما، وظلاّ موقوفين مدّة. فرأيا كلاهما حلماً في ليلةٍ واحدة، كلّ واحدٍ حلمه ساقي ملك مصر وخبّازه المسجونان في السّجن. فأتاهما يوسف في الصّباح فإذا هما حزينان. فسأل خصّيي فرعون اللّذين معه والموقوفين في بيت سيِّده وقال: "ما بال وجهيكما مكتئبين اليوم؟ فقالا له: رأينا حُلماً وليس لنا مَنْ يفسّره؟" قُصّا عليّ". فقصّ رئيس السّقاة حلمه على يوسف وقال له: "رأيت كأنَّ جفنة كرمٍ أمامي وفي الجفنة ثلاثةُ قضبانٍ، وكأنِّي بها أزهرت، ونما زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً، وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذتُ العنب وعصرته في كأس فرعون، ووضعتُ الكأس في يده".

فقال له يوسف: "هذا التّفسير: القُضبان الثّلاثة هي ثلاثة أيام. فبعد ثلاثة أيام يرفعُ فرعون رأسك ويردّك إلى وظيفتك، وتُناول فرعون كأسَه كالعادة السّابقة حين كنتَ ساقيه. وإذا حسُنَ أمرك فتذكّرني، واصنع إليّ رحمةً، واذكرني لدى فرعون، وأخرجني من هذا البيت، لأنِّي قد خُطِفتُ من أرض العبرانيين، وهاهنا أيضاً وضعوني في السّجن من غير أنْ أفعل شيئاً. ولمّا رآى رئيس الخبازين أنَّ التّفسير كان خيراً قال ليوسف: "رأيت أنا

أيضاً في حُلْم كأنَّ ثلث سلاسلٍ من الخبز الأبيض على رأسي. وفي السّلّة العليا من جميع أطعمة فرعون ممَّا يصنعه الخبّاز، والطّيور تأكله من السّلّة التي على رأسي." فأجاب ويسف وقال: هذا تفسيره "السّلال الثّلاثة هي ثلاثة أيام، فبعد ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك فوقاً، ويعلّقك على خشبة، فتأكل الطّيور لحمكَ من عليك." فكان في اليوم الثّالث يوم مولدِ فرعون أنَّه صنع مأدبةً لجميع حاشيته، فرفع رأس رئيس السّقاة، ورأس رئيس الخبّازين بين حَشمه. فردّ رئيس السّقاة إلى سقايته، فوضع الكأس في يد فرعون. وأمَّا رئيس الخبّازين، فعلّقه، فكان كلّ شيء بحسبِ تفسير يوسف لهما. ولم يتذكّر رئيس السّقاة يوسف فنسيه».

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ هذا الكاتب أورد هذه التّفصيلات جميعها، واستناداً إلى ما وصله من رواياتٍ مضى على حدوثها ألف ومئتي عام، وحسبما أوردناه سابقاً استناداً إلى مقولة الذي طبع العهد القديم في لبنان. فلو أنَّ هذا الكاتب التّوراتي كان يفكّر ويكتب بأسلوبٍ علميٍّ لكان استحى أنْ يورد تلك الأحداث بهذه التّفاصيل، وإنَّ هذه حقيقة تثبت بالتّجربة، وهو أنَّ المجتمع الذي يعتمد على الرّواية في نقل الأحداث يلاحظ بأنَّ العوامل الشّخصيَّة تلعب دوراً كبيراً في تشويه وتضخيم ما ينقلها ناقلها إلى الآخرين. فما بالنا أنْ تروي عدَّة أجيال أحداثاً جيلاً بعد جيل وعلى السّماع، فهل من الممكن أنْ تصل تلك الأحداث بعد تلك المدّة الطّويلة سالمة وبلا تشوهات؟

ثمَّ إنَّ هذا الكاتب شاء أنْ يُحدِّثنا عـن قُدرة يوسـف عليـه السّلام على تأويل الأحلام. فلو أنَّ هذا الكاتب كان مُلمّاً بعلم تـأويل الأحـلام لكـان قـد خجـل ممَّـا وصلـه مـن تـأويلات حدّثنـا بـها، وتتنـافى وقواعـد التّأويل، وأصوله المعروفة.

فهو فسّر ثلاثة قُضبان جَفْنه الكرمة بثلاث أيام. وفسّر السّـلال الثّلاثـة بثلاثة أيـام أيضـاً. فلِـم تُفسّـر بثلاثـة أيـام، وليـس بثلاثـة أسـابيع، أو بثلاثـة أشـهر، علـى سـبيل المثـال؟ وإضافـةً إلـى هـذا وذاك، فـهل يُعقـل أنْ يكــون يوسف عليه السّلام نبيّاً من أنبياء الله الكرام ومكلّفاً أيضاً بتأدية رسالة ربّه عزَّ وجلَّ ولا يغتنم فرصة تأويل هذه الأحلام ليعظ هذيـن السّجينين قبـل القيـام بتأويل أحلامهما بموعظةٍ تدفعهما إلى التّعرّف على ربّهما الحقيقي؟

فهيا أيها القارئ الكريم إلى هذا الكتاب العزيز (القرآن) الـذي نقدّسـه كمسلمين، لأنقلَ لك الآية الواحدة التي اختصرت تلك التّفصيلات جميعها التي أوردها كاتب سفر التّكوين بشأن أحداث حدثـت قبـل كتابتـه لـها بـأكثر من ألف ومئتي عام، ووصلته بطريق الرّواية التي شوّهتها، ومن دون تقديـم أيَّة أسانيد وبراهين على مصداقيّتها. فأصغ معي إلى هذه الآيـة الكريمـة التـي ستوحي لنا بما أراد الكاتب التّوراتي أنْ يُطلعنا عليه ونحن مستغنون عن تلك التّفاصيل.

لقد قال الله عزَّ وجلَّ في الآية (36) من سـورة يوسـف: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ألا إنَّ ألفاظ هذه الآية الكريمة أعطتك المعلومات التّالية :

أوّلاً : وضّحت لك أنَّ يوسف عليه السّلام وأنَّ هذين السّجينين قد أوقفوا في سجنٍ مُختلط .

ثانياً : وأنَّ هذين السّجينين كانا فِتيان . فالفتى هو الشّابّ الحدث (محيط المحيط) .

ثالثاً : وأنَّ هذين السّجينين كانا بقيا مدّةً غير قصيرة مع يوسف في سجنه ، تعاملا معه ، وتبيّن لهما خلالها أنّه يختلف عنهما في فهمه وفي أسلوب تعامله وفي تعبّده أيضاً ، فهذا هو معنى قولهما ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وإنْ كان ما يزال فتىً في عمرهما تقريباً .

رابعاً : وأنَّ النّاس في تلك الحقبة من الزّمان كانوا على اعتقاد بأنَّ الأحلام وحيٌ سماوي ، وأنّه علمٌ قائم بذاته لا يعلمه إلاّ الذين يُحسنون التّصرّف في حياتهم وفي تعاملهم مع النّاس . وأنّهم كانوا خلال فترة سجنهما يسمعان من يوسف عليه السّلام أحلامه ، وما يفهمه منها ، وهذا الأمر دفعهما ليطلبا منه تأويل ما شاهداه تلك اللّيلة .

فهذه المعلومات التي زوّدنا بها هذا النّصّ القرآنيّ هي أوسع وأشمل ممّا أراد الكاتب التّوراتي إخبارنا به من خلال النّصّ سالف الذّكر . أي أنَّ هذا الكلام الإلهيّ اتّصف بما اشتمل عليه المثل السّائر (ما قلّ ودلّ) . فمن خلال ما يزيد عن خمس وعشرين كلمة التي اشتمل عليه هذا النّصّ القرآنيّ

المذكور فقد عبّر بها عوضاً عمّا يزيد عن مائة كلمة احتاجها هذا الكاتب التّوراتي لتأدية معانيه التي نقلتها للقارئ الكريم.

ولاحظ معي يا عزيزي القارئ كيف أنّ الله تعالى لم يعمد إلى ما عمد إليه الكاتب المذكور، الذي راح يورد لك تأويل يوسف عليه السّلام لأحلام هذين الفتيين، وهما يرويان ليوسف أحلامهما، وكأنّهما يرويان لرجلٍ عاديٍّ هو يوسف عليه السّلام. بل راح تعالى يوحي إليك بكون يوسف كان على مقام روحي عند ربّه، وكان يبشّر بوحدانيّة الله عزّ وجلّ، وهو يؤوّل تلك الأحلام. هذه الحقيقة التي أوحى بها قول ربّنا عزّ وجلّ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وإنّ هذا النّصّ القرآنيّ قد نقل لك التّقديم الذي قدّم له يوسف عليه السّلام من تقديم بشّرهما به، ولينقلهما عقائدياً ممّا كانا يرزحان تحته من أفكار وعقائد موروثة وتقاليد وانحرافات.

فيوسف عليه السّلام قال وهو يقدّم لتأويله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فمن خلال معطيات هذه الآيات الأربعة يكون الله جلّ شأنه قد رمّم الثّغرة الحاصلة في رواية الكاتب التّوراتيّ المذكور، فأعطى بذلك يوسف عليه السّلام مرتبته الرّوحيَّة التي كان عليها في ذاك الحين. وما إنْ فرغ الله تعالى من عمليَّة التّرميم تلك إلاّ وراح يقصّ علينا ما أوَّل به يوسف ما رآه الفتيان في نومهما، فأوَّل وقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

فلاحظ يا عزيزي مدى الاختصار من جهة ومدى عمليَّة تصحيح الأخبار التي دوّنها كاتب سفر التّكوين بشأن قصّة يوسف عليه السّلام من جهة أخرى، وكيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أثبت من خلال ذلك كلّه أنَّه قد أنزل هذا القرآن الكريم: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾. فالله جلّ شأنه لخّص جميع تفاصيل هذا الشّقّ من قصّة يوسف عليه السّلام من خلال آيةٍ واحدة، وقد لخّص ما أوّله يوسف لرؤى الفتيين من خلال آية واحدة أيضاً، وقام بتصحيح جميع التّشوّهات التي أصابت قصّة نبيّه يوسف على يدي هذا الكاتب التّوراتي الذي استند فيما أخبرنا به من أحداثٍ إلى روايات أشخاص تناقلوها على مدى ألفٍ ومئتين

من الأعوام وهم أمّيّون عشائريون لا يعرفون القراءة ولا الحساب. هذا الكاتب البدائيّ الذي كان قد تعلّم القراءة والكتابة ومن غير أنْ يكون مؤهّلاً علميّاً وفكرياً لما راح يدوّنه من أحداث. فلو أنَّه كان يملك أبسط الإلمام بعلم تأويل الرّؤى التي ذتُعتبر وحياً من وراء حجاب، لكان رفض الكاتب المذكور من نفسه هذه التّفاصيل المُتعلّقة برؤى هذين الفتيين السّجينين، ورفض تأويل ما وصله أيضاً من تأويلات تخالف علم تأويل الأحلام.

وعلى سبيل المثال، فهذا الكاتب التّوراتيّ نقل أنَّ جفنة العنب كانت لها ثلاثة قضبان. وفسّرها بثلاثة أيام. مع أنَّ السّجين قال (وكأنّي بها أزهرت وأنضجت عناقيدها عِنباً.) فالقضبان الثّلاثة كانت تحمل عناقيد ناضجة، فهل يُستدلّ بعددها على الأيام الثّلاثة، والتي بدت لا فرق بينها من حيثُ الحمل ونضوج العنب؟ أمَّا قول السّجين (وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذت العنب، وعصرته في كأس فرعون، ووضعت الكأس في يده) فتطويلٌ في السّرد عبثٌ، والأصح ما فسّر به يوسف وقال ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ هذه الكلمات المختصرة والتي بشّرت السّجين المذكور أنَّه سيُفرج عنه ويعود إلى وظيفته يسقي معلّمه، وعلى حسب ما كان يفعله من قبل. وقس على ذلك رؤيا السّجين الآخر، فإنْ صحّت رواية رؤياه فلا تدلّ هذه السّلاسل الثّلاثة على أنَّه سيُعدم، ويعلّق على الصّليب بعد ثلاثة أيام، بل تدلّ على أنَّه إذا عُلّق على الصّليب يبقى أياماً قبل أنْ يموت وهو معلّقٌ، وحينئذٍ تطمئن الطّيور لموته فتقف فوق رأسه، وتنهش من لحمه. فإنْ نحن أخذنا بعين الاعتبار ما أورده القرآن المجيد على لسان نبيّه يوسف ﴿وَأَمَّا

ﭐلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ نفهم من قوله تعالى هذا عدم صحّة ما وصل إلى الكاتب التّوراتيّ من رواياتٍ في هذا الشّأن. لذلك؛ فإنّه تجاوزها، واكتفى بالقول: (فيصلب) ومن ثمَّ أتى الله تعالى بفاء الاستئناف، وقال ﴿فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ أي يموت وهو على الخشبة، ولا ينزل من فوقها حيّاً لتُكسر عظامه.

وعلى هذه الصّورة، ومن خلال هذا المثال الثّاني الذي اقتبستُهُ للقارئ من قصّة يوسف عليه السّلام التي أوردها سفر التّكوين كما أوردها هذا القرآن العظيم، ومن خلال عمليَّة المقارنة بين ما أورده هذا وذاك، أكون قد أثبتّ للقارئ مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة التي تميّز بها هذا القرآن المجيد الذي امتاز من بين الكُتُب جميعها بأنَّه يورد جميع ما يورده بما قلّ ودلّ، وبلا حشو ولا تكرارٍ، ولا إطالة ولا مبالغات كلاميَّة تتنافى وواقع الأمور. ولا أكتفي بهذه المقارنة التي أجريتُهَا من خلال هذين المثالين المذكورين. بل أرى أنْ أقوم بتقديم مثالٍ مقارنةٍ ثالثة ليطمئن فؤاد هذا القارئ إلى مصداقيّته هذه الخصوصيَّة السّابعة المشار إليها.

مثال ثالث يثبت وجود هذه الخصوصية السّابعة:

فلابُدَّ أنَّ تكون يا عزيزي القارئ قد لاحظت كيف أنَّ الآية الأخيرة من جملة هذه الآيات السّابقة وبعد أنْ فسّر يوسف للسّجنين رؤياهما فقد قال فيها وهو يخاطب السّاقي النّاجي: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ فقول يوسف هنا ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لم يقصد يوسف عليه السّلام من

خلاله أنْ يجعل ساقي ملك مصر وسيطاً وشفيعاً ليوسف لإخراجه من السّجن عند مليكه، بل إنَّ كلّ ما قاله هو ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ ﴾ ومعناه أنَّ يوسف قد طلب من السّجين أنْ يغتنم فرصة تأويلي لرؤياه ليخبر ملك مصر بما حدث، وكيف أنَّ يوسف قد بشّره بالنّجاة من السّجن. وإنَّ هذا الطّلب الذي طلبه يوسف من هذا السّجين قد أقدم عليه لاعتقاده بأنَّ من اليقين أنَّ ربّه عزَّ وجلَّ قد أرى هذين السّجينين هاتين الرّؤيتين وهما مع يوسف في السّجن بقصد معيّنٍ ولحكمةٍ بالغة. وهو أنّه مادام الله تعالى كان قد أرى يوسف في صغره الشّمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين. فقد كان من المناسب الرّبط موضوعيّاً ما بين هذه البشائر جميعها والاجتهاد بأنّه لرُبّما تتحقّق رؤياه السّابقة على أيدي ملك مصر ذاته. فهذا ما يفعله أصحاب الرّؤى والكشوف المبشّرات. وإنَّ هذه الحقيقة هي التي دفعت يوسف عليه السّلام ليطلب من هذا السّجين طلبه المذكور. وإنَّ هذا الطّلب يكشف لك يا عزيزي القارئ بأنَّ يوسف عليه السّلام كان قد أصبح عارفاً بالله تعالى وبتصرّفاته الحكيمة.

على أنَّ كاتب سفر التّكوين كتب في مقابل قوله تعالى ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ بأنَّ يوسف فسّر للسّاقي رؤياه وقال له « وإذا حَسُنَ أمرُك، ويردّك إلى وظيفتك، وتناول فرعون كأسه كالعادة السّابقة حين كنتَ ساقيه، وإذا حسُنَ أمرك، فتذكرني، واصنع إليّ رحمةً، واذكرني لدى فرعون، وأخرجني من هذا البيت؛ لأنّي قد خُطفتُ من أرض العبّرانيين، وهاهنا أيضاً وضعوني في السّجن من غير أنْ أفعل شيئاً ». فقارن يا عزيزي

القارئ ما بين قول الله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ الدّالّ على يقين يوسف ببشائر ربّه التي تلقّاها من لدن ربّه عزَّ وجلَّ. وما بين هذا النّصّ الذي أورده هذا الكاتب التّوراتي، والذي يُفهم منه أنَّ يوسف كان رجلاً عادياً كحال السّاقي الذي كان معه في السّجن والذي طلب منه يوسف أنْ يتوسّط من أجله، ويشفع له عند فرعون؟

فمن خلال قيام النّصّ القرآنيّ بهذه المقارنة وتصحيح المعلومات الواردة في النّصّ التّوراتي ومن خلال ملاحظة أداء النّصّ القرآني جميع ما أدّاه فقد أدّاه بما قلّ ودلّ من الكلمات، وعلى صورة تثبت مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة التي امتاز بها هذا القرآن المجيد ومن خلالها على جميع ما أنتجته أقلام أدباء لغة الضّادّ. لذلك أنتقل لتقديم مثال جديدٍ أستقيه للقارئ العزيز من قصّة يوسف الواردة في سفر التّكوين أيضاً.

فأقول: إنَّه ورد في الإصحاح (**41**) من سفر التّكوين قول هذا الكاتب وهو يروي قصّة رؤيا ملك مصر الذي كان حاكماً في ذاك التّاريخ قال:

« وكان بعد مضي سنتين من الزّمان أنَّ فرعون رآى حلماً، إذ هو واقفٌ عند النّيل. فإذا بسبع بقراتٍ صاعدةٌ منه، وهي حسان المنظر وسمان الأبدان فرعَت في نبت القصب، وبسبع بقراتٍ أُخَر صاعدةٌ وراءها من النّيل، وهي قباحُ المنظر وهزيلة الأبدان. فوقفت بجانب البقرات الأخر على شاطئ النّيل. فأكلت البقرات القباح المنظر الهزيلة الأبدان السّبع بقرات الحسان المنظر السّمان، واستيقظ فرعون. ثمَّ نام، فحلم ثانيةً، وإذا بسبع سنابل قد نبتت في ساقٍ واحدةٍ، وهي سمانٌ جديدةٌ، وبسبع سنابل هزيلةٍ قد

لفحتها الرّيح الشّرقيَّة نبتت وراءها، فابتلعت السّنابلُ الهزيلة السّبع سنابل السّمينة الممتلئة. واستيقظ فرعون، وإذا هو حُلْم. فلمّا كان الصّباح اضطربت نفسه، فأرسل، ودعا جميع سحرة مصر، وجميع حكمائها، فقصّ فرعون عليهم حلمه فلم يوجد أيّ واحدٍ من المجتمعين عنده يفسّرهُ لفرعون. فكلّم رئيس السّقاة فرعون وقال: إنّي أعترف اليوم بأخطائي. وإنَّ فرعون كان قد سخط على عَبْديه، فأوقفني في بيت رئيس الحرس أنا ورئيس الخبّازين. فرأينا كلانا حُلماً في ليلةٍ واحدةٍ ولكلّ حلمٍ تفسيره. وكان معنا هناك شابٌ عبرانيٌّ خادمٌ لرئيسِ الحرس، فقصصنا عليه ففسّر لنا حُلمينا، فسّر لكل واحدٍ منّا حلمه. وكما فسّر لنا كان: فردّني الملك إلى وظيفتي وذاك علّقه. فأرسل فرعون، ودعا يوسف، فأسرعوا به من السّجن. فحلق ذقنه، وأبدل ثيابه، ودخل على فرعون. فقال فرعون ليوسف " حلمت وإذا بي واقفٌ على شاطئ النّيل وقد صَعِدَ من النّيل سبع بقراتٍ سمان الأبدان حسان الهيئات فَرَعَتْ في منبتِ القصبِ. وإذا سبع بقراتٍ أُخر قد صعدت وراءها ضعافاً قباحُ الهيئات جداً هزيلة الأبدان لم أرَ في أرضِ مصرَ مثلها في القبح. فأكلتِ البقرات الهزيلة القِباحُ السّبع البقرات الأولى السّمان فدخلت في أجوافها ولم يُعرف أنّها قد دخلت فيها وبقيَ منظرها قبيحاً كما كان أوّلاً واستيقظ. ثمَّ رأيت في حُلمي سبع سنابلَ قد نبتت في ساقٍ واحدةٍ ممتلئة جيدة، وسبع سنابل جافةً هزيلةً قد لفحتها الرّيح الشّرقيَّة نبتت وراءها. فابتلعت السّنابل الهزيلة السّبع السّنابل الجيّدة. فأخبرتُ بذلك السّحرة فلم يكن من يجيبني. " ».

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ نصف هذا النّصّ المطوّل الذي نقلته لك دار حول رؤيتين رآهما الملك. فما معنى أنْ يُري الله تعالى ملك مصر هذه الرّؤيا المحيّرة إلاّ أنْ يكون جلّ شأنه قد قصد من خلال ذلك تحقيق ما بشّر به نبيه يوسف عليه السّلام في صغره من بشارة باتت معروفة؟

ولاحظ يا عزيزي القارئ من جهة أخرى كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اختصر هذا النّصّ الطّويل الذي نصّ على تلك الرّؤيا، فعبّر عنه في آيةٍ واحدةٍ صحّح من خلالها ما شوّهه رواة هذه الرّؤيا من اليهود طوال ألف ومئتي عام. وقد وضّح الله جلّ شأنه من خلال مضمون هذه الآية الكريمة بأنَّه تعالى كان قد تجلّى على ملك مصر برؤيا واحدة وفي ليلة واحدة، وليس برؤيتين كما ورد في النّصّ التّوراتي. فهذه الآية المشار إليها قال الله تعالى فيها: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

كذلك لاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله جلّ شانه قد أورد في هذه الآية الكريمة كلمة: (الملأ) وأورد بصيغة الخطاب والنّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾. فكلمة الملأ تعني في اللُّغة العربيَّة حاشية التّشاور التي تكون حول الملك والذين يسمّونهم مستشاري الملك في أيامنا هذه، كما تعني فئة الأشراف في المجتمع، وهم وُجهاء القوم، وتعني أيضاً علية القوم ممن يُلتمس عندهم جودة الرّأي. فقد أورد جلّ شأنه هذه الكلمة بدلالات تخالف ما أورده كاتب سفر التّكوين وقال (ودعا جميع سحرة مصر). فالسّحرة في الأصل

يُدعون لأداء دور السّحر، ولا يُدعَون لتعبير الأحلام. وقد اختصر الله جلّ شأنه أجوبة جميع هؤلاء الذين استعمل لهم كلمة (الملأ) فاختصر أجوبتهم ضمن آية لم تتجاوز عدد كلماتها سبع كلمات وهي ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾. وقد نبّهت هذه الآية الكريمة إلى أنَّ عهد ملك مصر المشار إليه كان عهد شركٍ وهيمنة الملك على شعبه وبعده عن كلّ ما هو روحي. وهذه الحقيقة نتلمسها في عصرنا فالدّيكتاتوريات تعلّم النّفاق والبُعد عن الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ إنَّ الكاتب وقد شاء إخبارنا عن السّاقي وعن تذكّره يوسف ووصيته التي أوصاها إياه وقال ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾. فقد احتاج كاتب سفر التّكوين لتأدية هذه المعلومة إلى ربع جمل هذا النّصّ الطّويل الذي أسلفت ذكره. على حين تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنَّ الله جلّ شأنه قد أدَّى المعنى المقصود كلّه من خلال آية جديدة لم يبلغ عدد كلماتها عشر كلماتٍ وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾.

وقس يا عزيزي القارئ بقيَّة قصّة يوسف عليه السّلام الواردة في سفر التّكوين من العهد القديم الذي يقدّسه أهل الكتاب. فأنت عندما تطالعها هناك تجدها وقد رُويت لك بقلم كاتبٍ وصلته أخبار قصّة يوسف بعد قرون طويلة من حدوثها، وبطريق الرّواية، وغير موثّقة، وباعتراف المصدر الذي أطلعتُكَ عليه في بدايتها. على حين أنّك إذا أصغيتَ إلى قصّة يوسف، وكما قصّها علينا علاّم الغيوب، فإنّك تلاحظ بادئ ذي بدء أنّها قد صيغت بصيغةٍ

لها موسيقيَّة تلعب بأوتار فؤادك. فإذا دقّقتَ فيما اشتملت عليه من آيات، وقارنتها بمثيلتها الواردة في سفر التّكوين المشار إليه، تتّضح لعينيك فروقاً عديدة، يتّضح لك:

أوّلاً: عظمة الصّياغة البلاغيَّة المعجزة التي صيغت بها قصّة يوسف عليه السّلام.

ثانياً: كما يتّضح لعينيك أنَّ قصّة يوسف قد صيغت بما قلّ ودلّ.

ثالثاً: فإنْ فعلتَ ما فعلتُهُ أنا وهو أنَّني قارنتُ بين كلّ حصّة وحصّة من كلا المصدرين؛ التّوراتي والقرآنيّ يتبيّن لك معقوليَّة وعلميَّة ما روته النّصوص القرآنيَّة، وانعدام ذلك في الرّواية التّوراتيَّة، وعلى حسب ما بيّنته لك حتّى الآن. الأمر الذي أثبت أنَّ القرآن الكريم قد أنزله الله عزَّ وجلَّ مصدّقاً لما في كتب أهل الكتاب من نبوءات تتعلّق بظهور سيِّد رسل الله ﷺ ومعه شريعته كاملة التّعاليم. وأنزله تعالى مهيمناً على كُتُب أهل الكتاب ومصحّحاً ما ورد فيها من تحريفات وتشوّهات. وثبت من خلال ذلك كلّه قول ربّنا عزَّ وجلَّ الذي أنّهى به قصّة يوسف وقال في الآية 102: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

رابعاً: وإنَّ انتقاء ألفاظ هذه القصّة وسردها بموسيقيَّة تشنّف الآذان يُشَكِّل ظاهرة شهد بمصداقيّتها كل مستمع لقصّة يوسف القرآنيَّة يقيناً.

خاتمة بحث خصوصيّات القرآن الكريم

وبعد أنْ فرغتُ من بيان هذه الخصوصيّات القرآنيَّة السّبعة المعجزة، هذه التي فتحها الله عزَّ وجلَّ على شخصي الضّعيف، وأعانني على إنجاز مهمّتها بصورة لا أقدر أنْ أشرحها بالكلمات لذلك أكتفي بما أوردتُهُ منها، ولعلّ الله تعالى يفتح عليّ خصوصيّات أخرى، فأضيفها في الطّبعة الثّانية إنْ شاء الله العزيز. علماً بأنّي طالعتْ ما يكتبه أعداء الإسلام بحقّ هذا القرآن المجيد، فحزّ في قلبي ما يوجّهونه إليه من طعون. وقد دعوتُ الله على أعتابه ببكاء وعويلٍ أنْ يمدّني بما أصدّ به تلك الطّعون. وقد استجاب الله عزَّ وجلَّ دعائي، وفتح عليّ ما أوردتُهُ في هذا الكتاب. ومفهّماً إيّاي من لدنه أنَّ إعجاز كتاب الله لا ينحصر في صياغته اللُّغويَّة ولا في مضامينه وحسب، بل وإنَّ إعجازه يتجلّى من خلال هذه الخصوصيّات المعجزة التي امتاز بها أيضاً، والتي لم تدركها أذهان أعداء الإسلام، وعلى صورة عادت تبدو في نظرهم مآخذ يستغلّونها لمهاجمة هذا الدِّين الإسلاميّ الحنيف.

فقد أدهش أعداء هذا القرآن العظيم أنْ ترد عناصر الموضوع الواحد موزّعةً على العديد من سوره. فساعدهم ذلك على الاستناد إلى عنصرٍ من عناصر الموضوع الواحد لنقد ما يريدون انتقاده فيه حال أنَّه لا يجوز توجيه

النّقد إلا بعد الإحاطة بجميع عناصر الموضوع الواحد. ولذلك بيّنتُ في الخصوصيَّة الأولى المعجزة هذه الحقيقة، وأثبتُّ مصداقيّتها، وذلك بتقديم الأمثلة على ما أردتُ بيانه.

وقد أدهش أعداء هذا القرآن العظيم التّنقيط الذي يفصل ما بين آياته الكريمة، فلم تقبل عقولهم أنْ يُعتبر حرف واحدٌ آية، ولا حرفين آية، ولا ثلاثة أحرف آية، ولا كلمة آية، ولا كلمتان آية، ولا جملاً كثيرة آية. ومن باب أنَّهم اعتادوا على مشاهدة ما تعارف عليه أدباء لغة الضّاد من تقاليد. كما لم تقبل عقولهم هذا التّشكيل الذي شكّل الله تعالى به آيات كتابه العزيز، وخاصَّة منها إشارات الوقف على مواضع معيّنة. فأعجزهم الله تعالى بهذه الخصوصيَّة الثّانية التي أثبتُّ للقارئ مصداقيّتها، وقدّمتُ الأمثلة التي تؤكّد ما ذهبتُ إليه منها.

ولم يحاول أعداء الإسلام تدبّر آيات هذا القرآن العظيم فاعتمدوا في تهجّمهم عليه على ما بين أيديهم من تفاسير المسلمين ومُؤلّفاتهم الموروثة. على حين أنَّ هذه المراجع لا تدين هذا القرآن العظيم نفسه، بل تُمثِّل ما فهمه الأقدمون من ظاهر آيات هذا القرآن المعجز في صيغته التي يتبادر للقارئ منها غير ما اشتملت عليه من معاني وأفكار. وهذه خصوصيَّة ثالثةٌ معجزةٌ امتاز بها هذا القرآن العظيم وقد أثبتُّ مصداقيّتها من خلال الأمثلة التي قدّمتُهَا في حينه.

ولم ينتبه أعداء هذا الكتاب العزيز إلى خصوصيَّة رابعة امتاز بها، وهو أنَّ الله جلّ شأنه لا يمضي في بيانه إلاّ ويراعي ما تفرضه مناسبة ذلك من

أسئلة تطرح نفسها. فكان الله عزَّ وجلَّ يجيب على تلك الأسئلة بصياغة بلاغيَّة معجزة تخالف ما تعارف عليه أدباء اللُّغة من تقاليد لطرح تلك الأسئلة وللإجابة عنها. وقد بيّنتُ تلك الحقيقة، وذلك من خلال تقديم عدّة أمثلة أثبتت مصداقيّتها.

وقد ألقيتُ الضّوء على خصوصيَّة خامسة معجزة امتاز بها هذا القرآن العظيم على سائر ما عرفه البشر في حياتهم من كُتُب تراثيَّة ومُؤلَّفات. وهو أنَّ الله جلّ شأنه لا يتقدّم خطوةً في بيان أيّ موضوع كان إلاّ ويمزج معلوماته بترغيب وترهيبٍ ظاهر للعيان، الأمر الذي يثبت كون هذا الكتاب العزيز مُنزلاً من ربّ العالمين لتطوير عباد الله تعالى، ولوضع أقدامهم على صراط مستقيم ينتهي بهم للتّعرّف على ربّهم ولجذب محبّته وقُربه ورضوانه.

وخصّصتُ الكلام بعد ذلك لبيان سرّ التّنقيط ما بين الآيات الكريمة وما يتراوح ما بين حرف وما بين عدّة جملٍ، واعتبار كلّ واحد منهما آية قرآنيَّة مستقلّة. هذه الحقيقة التي غابت عن أذهان وأعين أعداء الإسلام وعن أعين بعض أهله أيضاً. فبيّنتُ سرّ هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة الخامسة المعجزة، وضربتُ لإثبات مصداقيّتها ليس مثالاً واحداً، بل أمثلة كثيرة ومن كلّ نوع أيضاً.

ولم أنس أنْ ألفتَ ذهن القارئ الكريم إلى خصوصيَّة سادسة معجزة امتاز بها هذا القرآن العظيم، وتتعلّق بالدِّقَّة المتناهية في انتقاء كلماته وأحرفه وصيغ جمله. ليس في سورة واحدة، ولكنْ؛ في جميع السّور التي اشتمل عليها هذا القرآن العظيم. وقد أثبتُّ مصداقيَّة تلك الخصوصيَّة السّادسة

المعجزة، وذلك من خلال ما قدّمتُهُ للقارئ الكريم من أمثلة استقيتها من مختلف آيات هذا الكتاب العزيز.

وأنَّهيتُ كتابي هذا ببيان أبرز خصوصيّات القرآن العظيم التي تجلّت في بيان كلّ ما ورد فيه بما قلّ ودلّ من الألفاظ والجمل، وهي خصوصيَّة أبرزتُ حقيقتها بمقارنة ما ورد في هذا القرآن العظيم من رواية روت لنا قصّة يوسف عليه والسّلام، ومقارنتها مع ما ورد في سفر التّكوين من قصّة يوسف من العهد القديم المقدّس في أعين أهل الكتاب. ولعلّ ما قمتُ به من مقارنةٍ يكون قد أثبت مصداقيَّة هذه الخصوصيَّة القرآنيَّة السّابعة المعجزة. وآخر دعوانا أنَّ الحمد لله ربّ العالمين.

سليم الجابي

المراجع المعتمدة

1 ـ معاجم :

محيط المحيط .

أقرب الموارد .

مقاييس اللُّغة .

2 ـ جميع المؤلفات الصّادرة للمؤلف سليم الجابي .

3 ـ التفاسير :

ابن كثير .

التفسير الكبير للفخر الرازي .

التفسير الكبير للخليفة الثاني محمود أحمد ﷺ .

4 ـ الأحاديث :

جميع كتب الحديث المعروفة .

الفهرس